الحاصلة على جائزة دويجو أثينا للرواية عام 2017

شبنم إيشيجوزل

قصر الدموع

الجزيرة، 1876

مكتبة ياسمين

ترجمها عن التركية:

أماني محمد صبحي

رواية

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE

t.me/yasmeenbook

فتاة شابة تُرسل إلى جزيرة بطفل في بطنها، بعد محاولتها حرق نفسها. هكذا تبدأ حكاية قصر الدموع، تتخلى مضطرة عن معيشة الأميرات، وأحلام الثراء وجمع المال وتطلعات والديها، وتعيش منفية ومنعزلة مع خادمتها، بين ذكريات الماضي القريب مع عائلتها والوحدة التي فرضت عليها في القصر الذي شيدته والدتها على الجزيرة، تطاردها العيون والأفكار، لكن مفاجأة في انتظارها هناك وقصة حب كبيرة تجعلها تقبل على الحياة من جديد. رواية مفعمة بالعند والكبرياء والتمرد لا تخلو من البهجة والحب والحياة. وقصة فتاة تبحث عن السعادة والأمان والحرية. تتناول حالة المجتمع بين التفكك الأسري والتشبث بالقيم والتطلع للحياة الغربية في نهاية العهد العثماني.

شبنم إيشيجوزل: كاتبة تركية من مواليد عام 1973. درست الإنثروبولوجيا في جامعة إسطنبول. عملت كمراسلة ومحررة في عدة صحف ومجلات وقنوات تلفزيونية، ولها العديد من الكتب والقصص القصيرة والروايات. في عام 1993 صدر أول مؤلف لها (المستقبل يبدو مشرقًا) حازت عليه جائزة يونس نادي للقصة القصيرة، ثم تبعته بكتاب للقصص القصيرة (من سيحكي حكايتي؟) ثم بأول رواية لها (سحلية صديقي القديم) عام 1996 ومن مؤلفاتها الأخرى: (بين النساء المبتهجات: مقالات)، (سيد قدري: حكاية)، (أنا وأمي والغربان: كتاب للأطفال)، ورواياتها: (اللبلاب)، و(مكب النفايات)، و(الموكب)، و(في ظل رموشي)، و(ڤينوس) التي حصلت بها على جائزة نوتردام دي سيون الأدبية 2015، و(قصر الدموع) التي حازت بها جائزة دويجو أثينا للرواية عام 2017، و(الفتاة التي على الشجرة)، و(الخير). ترجمت رواياتها إلى العديد من اللغات وقوبلت أعمالها بالاهتمام والثناء.

9 789778 213577

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE

شبنم إيشيجوزل

قصر الدموع

الجزيرة، 1876

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

ترجمها عن التركية

أماني محمد صبحي

صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE

اماني محمد صبحي/ مدرس بقسم اللغة التركية وآدابها جامعة الأزهر، ترجمت رواية "طبيب الأناضول" لأحمد حمدي تانبينار و"التفاح الأخضر" لناظم حكمت و"الرجل الذي فقد وطنه" و"هم أيضا كانوا بشرًا" لجنكيز داغجي في رسالتها للدكتوراه، والمرشحة ضمن القائمة القصيرة للفوز بجائزة الشيخ حمد للترجمة والتفاهم الدولي عام 2022 عن روايتها "الرجل الذي فقد وطنه".

قصر الدموع
طبعة 2024
رقم الإيـــــداع: 2023/19012
الترقيم الدولي: 7-357-821-977-978

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الناشر
محمد البعلي

إخراج فني
علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

This is a full translation of the novel "Gözyaşı Konağı // The Mansion of Tears" © ŞEBNEM İŞİGÜZEL - Kalem Agency

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
sefsafapr@gmail.com
دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
49 شارع المخزن- العمرانية- الجيزة- مصر

1

في ربيع عام 1876؛ تم إرسالي وأنا على وشك إنجاب طفلي غير الشرعي إلى جزيرة الأميرات[1] في غفلة عن رجال البيت، بعثوا معي بدرية كالفا، وقدم نساء البيت لأبي وأخي الكبير حكاية قصيرة، أبي الذي يحيا في سبيل جني المال لم يكن لينتبه لعدم وجودي؛ وحده أخي الكبير من اندهش حين سمع بابتعادي لمدة، تسمر لوهلة بينما يتناول الخشاف الأحمر على المائدة، ثم ما لبث أن صدق ما روي له زعمًا: بأن النار نشبت في شعري جراء حادثة مؤسفة وأني على إثر هذا سأذهب مع بدرية كالفا إلى قصر عمتي القابع في بيازيد لأستجمع شتات نفسي قليلًا. لم يكن من العسير ابتلاع القصة -مثل حبات القرنفل السابحة في الخشاف- ضمن الحكاية التي روتها نساء البيت. كانت أمي تعرف أبي جيدًا؛ أما أخي فلن أتحدث بشأنه حتى. لن يتعقباني أو يقلقا عليّ ولن يفتقداني وإن مت.

سأبقى في بيتنا المبني حديثًا، ترك أبي ترتيب البيت من الداخل لأمي: «لتفعلي ما تريدين كيفما يتراءى لك؛ لكن لا تنتفيني كالإوز،

1- الجزيرة الكبيرة (Büyükada): وتعرف بجزيرة الأميرات وهي أكبر جزر الأميرات السبع في بحر مرمرة.

نفدت مياه الساقية!». ولو لم يكن موضوع إقامتي مسألة حتمية؛ فإن أمي كانت تجهزه حتى يصبح كالقصر لها بحلول الصيف. وهي الآن مشغولة باختلاق الحجج لأبي:

«لو أنك دفعت أموالًا أكثر لجرى كل شيء وفق ما أردت، فأنا أنشئ بيتًا يقول الناس عنه قصرًا. كنت أريد أمهر الأيادي لنقش جدرانه؛ لكننا الآن ننتظر الصبيان لأنهم أرخص»، لم تكن لدى أبي الرغبة في الذهاب للجزيرة على الفور؛ إذ كان يردد: «أنا أستريح بجنيي للمال». كان يفتخر بإقراض المال للسرايا. «نواصل البقاء في فندق الإيطاليين؛ لا مشكلة!» لم يكن يهتم بشيء آخر غير أكله وشربه وامرأتين لا نعلم عنهما شيء.

لم يكن تضامنًا من أمي وأختَيَّ معي في مسألة حملي غير الشرعي؛ لكنهن أردن إخفائي لأن هذه الورطة ستؤثر على سمعتهن وحياتهن الاجتماعية.

أردن في البداية تزويجي من رجل عجوز.

كما حاولن في البداية معرفة ممن يكون الطفل.

والأغرب من كل هذا أنهن فعلن كل هذا دون أن يلفتن انتباه رجال البيت.

اجتمع عليّ ثلاثتهن وضربنني ثم قلن لأبي إني سقطت من على الدرج.

أشفقت عليّ عمتي، لم تكن تحب أمي وفاطمة من البداية كما كانت تعامل هجران كذبابة، وقالت بينما تتطلع لوجهي الغارق في الدم «واأسفاه!»، «ماذا فعلتن بالفتاة؟!».

وسواء أبات العذاب الذي سببته لهن أو الضغط علي لا يُحتمل؛ أردت في ليلة من الليالي إشعال النار بنفسي؛ فلو أني احترقت وصرت رمادًا ربما ينتهي كل شيء. كان لدي شعر شديد الطول؛ تقول العاملة في الحمام: «ياه! إنه في سمك معصمي ما شاء الله!، أحمم كل نساء إسطنبول ولم أرَ مثله منسابًا كالمياه».

اشتعل في لحظة كالأعواد.

«لحسن الحظ أن رأته بدرية كالفا التي نهضت للتبول، وأطفأته».

احترق شعري، ومن ثم يداي وأنا أحاول السيطرة على النيران بدافع الرغبة في الحياة؛ رغم أني من فعلت هذا بإرادتي، وجدنا المرهم الذي حضره الطبيب أجُوب. ووُضعت يداي في قفازين من القطن وظللت لمدة شهر أنام وأقوم معانيةً وجعًا عميقًا وألمًا لا يمكن وصفه. عزائي الوحيد كان عدم احتراق جسدي ووجهي.

سمعت أبي يقول: «صبوا رصاصًا، علقوا تميمة! ما هذه المصائب التي حلت بالفتاة؟» لم يكن في البيت ليلةَ أحرقتُ نفسي؛ كان عند امرأته الثانية. بدرية أيضًا لم تكن ذاهبة للتبول؛ بل كانت تذهب جارة قدمها العرجاء لتدفئة فراش أخي الثمل الذي ناداها.

كانت أمي تردد لو أنه يشرب أقل من ذلك لزوّجته إياها بسهولة.

شعرت بأخي ذات مرة يمد رأسه وينظر من باب حجرتي وسمعته بينما يهبط الدرج المفروش بسجادة أمي الحمراء حديثة الطراز:

«حمى الله المسكينة!».

لا يوجد شيء يحميني الله منه. قلت لهجران في درس قراءة القرآن الذي تلقيناه في طفولتنا: «أنا لا أصدق!»، وذهبت هي الأخرى فأبلغت فاطمة، وهكذا أكلت علقتي الأولى.

فاطمة التي كانت تتحد مع أمي في كل فرصة وفقًا لطبيعتها؛ غمغمت وهي تقف بجوار بدرية كالفا التي تسقيني حساء اللحم ملعقة ملعقة:

«غبية! وكأنما لم يكف حرقك لنفسك؛ كنت ستطبعين نصيبنا بالشؤم وتخيبين آمالنا المجتمعية. واأسفاه عليك، ياللخزي! أين كان عقلك وأنت تقترفين الفاحشة؟ ألم تفكري في هجران التي ستتزوج من الباشا؟! يالك من فاسقة، ساقطة، عاهرة، شيطانة مشؤومة!».

أو كان كل شيء لأجل حمايتهن؟!

لم تكن هجران مثل فاطمة وأمي ولأجل أن نفهم كيف كانت؛ يجب أن نفهم كيف كانت أمي وفاطمة.

كانت أمي تخاف من أبي أكثر من خوفها من الرعد. أو لديكم علم عن شعور العيش بخوف طوال الحياة؟ وعن ماذا يفعل العيش بهذه الطريقة في إنسانة مثل أمي؟ كانت خائفة، قلقة، مترددة، يائسة، تعيسة، ومتهورة نتيجة لكل هذا، ومريضة نفسية إلى حد ما ومضطربة الأعصاب؛ وإن أردنا التحديد علميًّا حسب تسمية الفرنسيين؛ مجنونة! ثمة شيء واحد فقط يمكن أن يوصلك إلى هذا الوضع في الحياة: الزوج والحياة الزوجية.

كانت أمي تعيسة؛ امرأة غير راضية بعيدة مغمومة ككل النساء اللاتي تحطمت قلوبهن من قبل أزواجهن وتجمدت. ومن لا يجعلها عدم الحب والإذلال؛ جزوعًا؟! امرأة تواسي نفسها وترشيها بالماسات ومجموعات النساء وساعات الشاي والأمتعة الأوروبية والأثواب وأماكن التنزه والحنطور ذي الحصان المنفرد عوضًا عن عمرها الذي استهلكه أبي. فاطمة كانت حادة الطباع بسبب كونها الطفلة الأولى لوالدتي المرأة التي لم تجد أمامها حلًّا غير أن تصبح مريضة نفسية، ولأنهم يقولون إن أبي تغير عندما أصبح لديه طفلة، انتقمت أمي لتحطم حلمها من فاطمة؛ أما أخي فظل طائشًا؛ لكن حماهُ كونه الطفل الذكر الأول للعائلة، وعلى الرغم من هذا كان أبي سيقتله؛ ذلك شأن آخر.

كما ترون؛ انطلق القوس من سهمه قبل مجيء هجران ومجيئي، فكبرنا دون رعاية أمي، وبفضل هذا فلت كلانا، والشيء الذي فلتنا منه هو كارثة البقاء تحت حطام امرأة تعيسة، هذه الكارثة التي

تعرضت لها فاطمة وصارت قاسية، تزوجت لكنها لم تنل مرادها، مرضت في قيصري التي وصلتها عروسًا ووقعت طريحة الفراش، ولم يستطع أحد إبقاءها هناك لا سيما عندما أصيب ابنها الأول بالحمى ولم يلبث أن توفي مرتجفًا؛ فعادت أدراجها. لم يوافق أبي على طلاقها، كما لم يقبل حضرة الصهر بأن يقيم معها وهكذا أجبرت فاطمة على عيش حياة زوجية عجيبة مع زوجها الذي يأتي لرؤيتها مرة كل ستة أشهر.

وبالمجيء إلى هجران... فلم يكن أمامها خيار سوى الخضوع لفاطمة وأمي. عاجزة، لا تستطيع فعل شيء. تسألني جالسة عند رأسي وهي تبكي بدموع عينيها اللامعة الكبيرة المتبلورة المنهمرة:

«من فعل هذا السوء لكِ يا أختي؟ قولي لأجل خاطري!».

لم يمكنني القول.

«أكان هذا برضاكِ؟ أخبريني!».

لم أستطع الرد.

«أحدث بالإكراه؛ أم كان اغتصابًا، قولي!».

لم أستطع القول، ولمَ سأقول؟ لا يُقال كل شيء.

لم تلبث أمي التي انقطع أملها في معرفة ممن الطفل غير الشرعي وكيف وقع الأمر؛ أن دونت مصيري بخربشة ملأت دفتر المؤن:

«تذهب للجزيرة وتلد، ثم نرى حلًّا للوضع...».

وهكذا رحلت مع بدرية كالفا.

2

ارتديت برقعي السميك، وأحنيت رأسي الذي لففته مثل امرأة عجوز انقطع أملها في الحياة. كم كانت الفتيات اللاتي في مثل سني اللاتي ملأن العبارة سعداء بالذهاب إلى المصيف. الهوتوز[1] ذو الدبابيس، والعباءات الحريرية آخر صيحات الخياطة التي كنست أذيالها الأرض، والتنانير ذات الإطار الدانتيل، واليشمك[2] ذو اللآلئ الذي صنعت أمي لكل واحدة منا منه، والحقائب المكشكشة التي اقتبسناها من السيدات الفرنسيات، والأحذية التي حاول الجميع إظهارها بعضهم لبعض بشكل ما. كان السياح الغربيون محقين في قولهم: «لم تعد وجوه النساء التركيات سرًّا!». ليس عليها إلا نصف برقع فحسب من التُّل يغطي أفواههن الجميلة. كانت النساء جميلات بقدر البحر المائج والنسيم الهائم على ظهر السفينة، والنوارس المشاغبة، والبريق الفضي المتلألئ على البحر؛ لكن لماذا لا يطلبن لأنفسهن شيئًا أجمل بكثير من الملابس: حريتهن؟!».

1- هوتوز: كوارة أو طربوش معوج ترتديه نساء الروم والترك على رؤوسهن.

2- يشمك: نوع من الحجاب مصنوع من الشاش مكون من قطعتين لتغطية الرأس والوجه كانت ترتديه السيدات التركيات.

قالت فاطمة ذات مرة: «سُود وجه من تطلبها. إن طلبتِها فأنت إذًا حمقاء!». ليت الحرية والاستقلال شيء يُباع بالذراع ويمكننا خياطته وارتداؤه.

«ليأخذها زوجك عندما تتزوجين، أيتها النهمة الجشعة التي تطلب المستحيل!» كانت بيني وبين فاطمة ست سنوات، واستفدت أنا وهجران مما لم تحُزه: التعليم المنزلي.

«إذا كنت تريد تزويج بناتك للرجال الذين سيصبحون باشوات في المستقبل، فعليك تعليمهن جيدًا». أذعنت أمي لنصائح محيطها وأقنعت والدي بتوظيف معلمة من أجلنا، وطبعًا حتى تحقق هذا وبسبب اعتقادها أني بلهاء وإقناعها أمي بهذا؛ اندهشت من قدرتي على تعلم القراءة والكتابة والحياكة والعزف على البيانو بسهولة.

وقبل مُضي الكثير قال والدي: «التعليم يجعلهن أحرارًا»، ومزق كتبنا:

«الحرة تضل الطريق. فهي تريد كل شيء».

أُعيد البيانو أيضًا. على الرغم من أن أبي سيجد راحته على البيانو الذي تعزفه امرأته الثانية، بعد مرور خمس سنوات لا أكثر؛ أما والدتي فكانت جاهلة بما يكفي لتسأل عن لوحة زيتية رأتها بالصدفة داخل عارضة مكتبة زاليتش وأعجبتها إن كانت للبيع أم لا، وعندما علمت أنها للبيع، أرادت شراءها.

كانت أمي قد أحبت جزيرة الأميرات لأول مرة في عمل رسام إيطالي. كان الرسام هناك بالصدفة وتابع بيع عمله باهتمام، فأتى إلى جوارنا وقال بلسان معوج: «كنت سأجعلها هدية للسلطان. نصيب!».

قالت أمي «ماذا! هل يعني هذا أننا اشترينا الآن اللوحة التي أراد السلطان اقتناءها؟!».

رد الرسام: «الأمر ليس كذلك بالضبط سيدتي». ولأنه اعتقد أنها خافت؛ مع أنها قد وجدت في هذا شيئًا يرضي غرورها وكانت على وشك الصراخ من الفرحة. استمر الرسام حسن النية في التصويب الذي رآه ضروريًّا:

«طلب مني شخص كريم وكيل وزارة المالية رسم هذه اللوحة، وكان يريد إهداءها للسلطان؛ فبالنسبة للتعرض لغضب السلطان.. فالسلطان ليس الشاري، أي إنه لا يعد تعديًا منك على حقه».

ما لبثت عينا أمي أن اغرورقت بالدموع مثل فوهة مضخة الحديقة. أي شجون أثارتها الشجرتان الوحيدتان المنحنيتان تجاه زرقة البحر وأديم السماء؟ شعر الرسام بالأسى لأجل المرأة التي لا يعرفها فأخرج على الفور منديلًا من جيبه ومده إليها. وشعر بالخجل مقابل بكائها. كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها ما يعنيه الاهتمام بمشاعر شخص آخر وقلبه وروحه.

سألت أمي وهي تمسح دمع عينيها: «أين هذا المكان؟».

«في الجزيرة يا سيدتي. في كل مرة أعبر فيها على متن العبارة، أنظر بحب إلى هاتين الشجرتين المهيبتين اللتين عاش في ظلهما شخص بروح شاعر محب للجمال».

تم شراء اللوحة الزيتية وتغليفها ورحلت تحت ذراع أمي. سألتُ الرسام بينما أتابع خروج ذوينا من المتجر:

«أتوجد أي رسمة أردت رسمها ولم تستطع؟».

رد الرسام: «سؤال جميل».

وبينما كان على وشك الرد، استدارت فاطمة وعندما رأتني أتحدث إلى الرسام نكزت أمي وشكتني. آه يا فاطمة، على الدوام هكذا، هي في كل مرة! ليس هناك سواها يوقظني من أجمل أحلامي. انفرجت شفتا الرسام وهمّ بالإجابة على سؤالي، حتى إنه ربما لن يجيب فحسب بل سيفصح عن سر. كان هذا السؤال يداهمني بفضول كلما نظرت إلى الرسمة، سألت هجران أمي عن شيء آخر تمامًا بينما وقفت أمام اللوحة أحدق فيها. خطر ببالي هذا الآن:

«أمي؛ ما الشيء الذي أبكاك في هذه الصورة؟».

أحسنت يا هجران. كانت تحاول فهم ما في قلوب الآخرين. نظرت أمي بعينين دامعتين إلى اللوحة مرة أخرى. صحيح أن رؤيتها تشعر من أعماقها كان شيئًا نادرًا لأنها كانت إحدى النساء اللاتي دفن مشاعرهن وأخمدنها:

«بعثت في هذه اللوحة آخر ذكرى لي مع أمي وأبي».

«أي أم وأب؟!».

كنت مُحقة في سؤالي من الأرض إلى السماء؛ لكنني أغضبت أمي. وعندما تغضب أمي ترفع حاجبها. لا أحد منا يستطيع فعل ذلك، ولا حتى فاطمة! تجاهلت أمي سؤالي الذي أغضبها؛ لأنها هي الأخرى اختلط عندها الأمر حيال هوية والديها الحقيقيين: هل هو مُربي الطيور المنفي من القصر؟ أم أحد قبله ممن لم يُباعوا كعبيد؟ أيهما؟

«بينما كان تاجر الجواري يأخذني بعيدًا عن أمي وأبي، التفت ورائي ونظرت. كانا يلوحان لي. كانا مجبرين على إعطائي لتاجر الجواري الذي قال إنه سيأخذني إلى إسطنبول ويبيعني. كانا يريدانني أن أعيش أفضل من الجميع. اختاراني لأنني كنت ذكية وجميلة أيضًا. كانت يداي وقدماي صغيرة، وأظافري لامعة مثل عرق اللؤلؤ. عرض أمي وأبي الموضوع عليّ. احتضنت أمي مبدية رضاي عن قرارهما. ظلا يرويان لي أني سأعيش حياة مثل القصص ويُحليانها لي حتى جاء تاجر الجواري إلى القرية.

تغير رأيي فجأة حين كنت ألوح لأمي وأبي اللذين تركتهما وراء حصان التاجر. لا أريد الذهاب! لا أريد ترك عائلتي! أردت الهرب والعودة؛ لكن ذلك كان مستحيلًا، فعندما نظرت إلى الوراء مرة أخرى، لم يكن والداي هناك يلوحان. حل محلهما شجرتان

كاللتين في هذه اللوحة».

ها هما شجرتان في اللوحة!

كانا هناك مثلما تردد أمي في كل مرة ترى فيها الرسمة، كانا هناك مرة أخرى! خطرت ببالي لوهلة الأيام التي سافرت فيها مع أمي وفاطمة وهجران وانتابني الحزن. جلست أمي بالتأكيد في مكان بجوار زوجة الباشا حتى يتسنى لها إعلان أن اللوحة الزيتية لهاتين الشجرتين أصبحت لها في نهاية الرحلة وتقول: «رُسمت لأجل السلطان؛ لكن الرسام لم يمكنه التفريط بدموعي وباعها لي». وبالطبع يمكنها تقديمنا بعد هذا: «فتاتَاي العازبتان. تتحدثان الفرنسية، وتعزفان على البيانو ببراعة».

امتلأت عيناي الآن بالدموع، كمضخة تسحب الماء من أعماق الأرض؛ وعلى الرغم من ذلك، فإن حديثي عن نفسي، وتذكري الماضي، وابتهاجي بالنساء اللائي ملأن عبارة الجزيرة المسماة بغداد يمكن اعتباره إشارة إلى أنني سأعيش. لا أريد أن أقتل نفسي مرة أخرى. أرغب بشدة في أن يسير الأمر كذلك. يجب أن أعيش أنا والأشجار؛ لكنني لم أكن أريد الطفل في رحمي، وأيضًا لم يعجبني احتمال تسليمه إلى أحدٍ ما بعد ولادته. كنت مغمومة؛ وإلا فإنني أريد أن أكون سعيدة. كانت عمتي على حق عندما أخبرتني: «ستجدين لنفسك فرعًا تتمسكين به». كنت أبحث حولي عن بهجة الشباب التي فقدتها، وعن محاولتي التكيف مع أمي وأختَيّ، وأشاهد النساء الأخريات وأقراني في العمر بهذه الحماسة.

أما هن فكن يتطلعن إليَّ وكأنهن يقلن «واها على سيئة الحظ!». لا أظن أنهن يعرفن سري المخفي عن رجال المنزل. لا بد أنه ما شعرن به من خلال حدسهن الأنثوي اليقظ لا غير، أي إنهن شعرن بسوء حظي بعد سقوطي على الدرج، ونشوب النار فيّ فجأة ذات ليلة واحتراقي واحتراق شعري إثر ذلك.

«هل هي صلعاء الآن؟».

«صلعاء، لا شعر لها مثل المهاجرين الذين غزوا إسطنبول، رأسها محترق تغطيه القشور».

«يقولون إن شعرها لن ينمو مرة أخرى؛ أذلك صحيح؟».

أردت القول لهن: «ليكن همكن الوحيد شعري أيتها السيدات! يكفي ألا تعرفن شيئًا عن الطفل غير الشرعي في رحمي!».

مهما عرفت المرأة من أمور ثمة أمور تخفى عنها كذلك. فالكل في قلبه أمر لا يتحدث عنه، يوجد هذا وتوجد أيضًا حقيقة أننا جميعًا نرى أنفسنا في ظلمة الآخرين. لا بد أن هذا كان سبب وقوفهن بعيدًا، ونظراتهن المشفقة، وإعراضهن، وتحويل أنظارهن، وإلقاء بعض منهن سلامًا مكسورًا لأجل خاطر أمي وأختَيَّ. كن يَخفن في أعماقهن من أن يصبحن مثلي. كن خائفات؛ على الرغم من عدم معرفتهن بحالي. لا أحد يريد الاقتراب من سيئي الحظ. ينظر الناس إلى المحنة على أنها مرض معدٍ. لا يكتفون من سرد قصص سيئي الحظ؛ لكنهم لا يستديرون ويصافحونهم ولا يحيونهم.

يشفقون عليهم فقط.

شاهدتهن طوال الطريق يفتحن مظلاتهن تحت شمس الربيع الواحدة تلو الأخرى ويدرهن بأطراف أصابعهن، أما هن فراقبن سوء حظي. وعلى هذا النحو مضت رحلتنا على العبارة التي انتهت بتقيؤي في الطرف، ثم وطأت قدماي أرض المنفى التي سألد فيها سرًّا طفلي غير الشرعي. كم من السيئ عيش الإنسان وسيره دون معرفة شيء عن مستقبله. ليتنا كنا نستطيع بشكل ما رؤية مستقبلنا كما نرى صورنا في المرايا. لو كان الأمر كذلك، لعرفت أن هناك قصة حب كبيرة تنتظرني على الجزيرة. فالحب هو جوهر الحياة. أولئك الذين لم يحبوا، ولم يعرفوا معنى الحب؛ لم يعيشوا قط.

3

جئت إلى الجزيرة كالآتية للمجهول، غير مدركة للحب الذي سيقابلني. استقررت ببطني الذي بدأ ينتفخ مثل عجين الخبز؛ في برج القصر الذي أشرفت أمي على بنائه بدقة. كان كبار السن والمقعدون من العائلة الذين يريدون الابتعاد عن الأعين يقيمون هنا. يصعد الخادم صباحًا وظهرًا ومساءً متأففًا إلى الغرفة الصغيرة ذات السلم المنتصب على سطح القصر، ويقدم للمقيم هنا الماء والخبز لا غير.

بضعة أمتعة بسيطة كافية، بل إنها كثيرة حتى على من تستغني عنه العائلة!

كان من الواضح استغناؤهم عني عندما كانت أمي توسعني ضربًا يحطم كبريائي وفاطمة تنكزني نكزًا يؤلم قلبي أكثر من بدني. وتحاول هجران إيقافهما فاتحة ذراعيها كالأجنحة؛ لكن دون جدوى. البعض قوته كافية لفعل كل شيء. والبعض لا تكفي قوته لأي شيء. هذه إحدى قواعد قدرنا.

«لا تفعلي ذلك، لا تتصرفي كذلك! أنتِ أيضًا كنت أمًّا، أنتِ أيضًا امرأة! كما أنه من دمنا وروحنا! أعليكِ القيام بذلك، أخبريني!».

«لا يوجد تفاهم مع الفاسقة، يجب ضربها! فماذا سيقول العالم؟».

ماذا يقول؟

سيسأل أولاً؛ ممن حملت باعتباري فتاة شابة عزباء، وسيلومونني حتى لو عرفوا القصة كاملة.

«لأن المرأة عاجزة وضعيفة مثل لهب الشمعة، ألا تعرفين أيتها السيدة الصغيرة؟».

أفسدت بدرية كالفا ذات الوجهين الصمت.

كنت أبكي بصمت منطرحة وسط الغرفة رأسي مضعضع ووجهي ممزق بسبب ضرب أمي وفاطمة، فوضعت بدرية يديها المتشققتين من العمل على كتفي، والحال أننا لم نستطع أن نعرف كلما نظرنا إليهما كم هما ناعمتان ورحيمتان هاتان اليدان اللتان كنا نخافها ونشمئز منهما ربما بسبب أصابعها الناقصة:

«المرأة هي الأضعف في هذا المجتمع. إنها تنشر الدفء والضوء في محيطها؛ لكنها لا تستطيع مقاومة الرياح الهابة، ولا القوة التي تطغى عليها، ولا حتى قطرة المياه التي تطفئ نورها. تريد أن تكون مثل الرجل، لكن الطبيعة لا تسمح بهذا. ولأنها لا تسمح بذلك جازتها كما جازت وصلات أمينة خاصتنا».

ليقع على رأسك حجر بحجم وصلات أمينة!

حسنًا يا ابنتي الصغيرة! لو صرت حجرًا ووقعت على رأسك حتى فلن أؤذيك.

حين ذكرت نفسي بـ «الفتاة» مرة أخرى كما اعتدت، احمر خَدّا أمي بشدة من الغضب: «وتدعو نفسها بالفتاة أيضًا؟!».

رددت «وماذا أنا؟»، فتلقيت صفعة هائلة أخرى أطاحت برأسي مثل درفة نافذة رفيعة تقاوم عاصفة.

«لا تفعلي يا سيدتي. كفى عذابًا. المرأة هي الأضعف في هذا المجتمع. إنها تنشر الدفء...».

التفتت والدتي إلى بدرية صائحة: «اخرسي!».

حفظت كلام عمتي مثل ببغاء. وهكذا عندما يحين وقت الكلمات الحكيمة ترددها كأنها ثمينة مثل الذهب، كان حفظها لها مهمًّا بقدر حفظ الحِكم؛ لهذا السبب كانت بدرية معجبة بالببغاوات، كان لدى زوجة القنصل الإيطالي ببغاء، وتركته لنا عند مغادرتها إسطنبول، وبينما كنت آكل هذه العلقة كان يردد في قفصه «ماشالله، ماشالله!». يولوق!

كنا نمر، نروح ونجيء إلى قصر السفيرة الإيطالية التي لم يستطع حتى الببغاء يولوق هذا تسليتها، وكانت أمي سعيدة للغاية بالصداقة رفيعة المستوى التي عقدتها عن طريق الصدفة. تضحك مقهقهة كلما نظرت المرأة لوجهها، وتبتسم برضا لاتخاذها موضعًا في محيطها. وبفضل هذا كانت هجران ستحصل على زواج

جيد، ثم سيأتي دوري أنا الأخرى. كان هذا سبب تحمل أمي التي تقول «كلما رأيت الحيوان المسكين ينتفض في قفصه؛ أمسك نفسي بصعوبة كيلا أصرخ وأفر ذاهبة!» للببغاء. ثم أخذها وعنايتها به بعد ذلك متعلق بهذا أيضًا كي تتباهى حين يأتون لطلب هجران بقولها: «إنه هدية السفيرة الإيطالية».

ربما كانت أمي تتقزز من الببغاء لكنها فُتنت بطيور الفلامنجو التي كانت في حديقة السفيرة. أعجبت أولًا بأسمائها:

فلامنجو.

فَـ-لا-منـ-جو

فلامنجو.

على الرغم من أنها فتاة أسيرة لمربي طيور السرايا؛ إلا أنها لم ترَ طائرًا كهذا ولم تسمع بالأصوات المدهشة الصادرة عن منقاره المعقوف. فلامنجو!

كانت أمي تقول: «إنها طيور الجنة الوردية!».

كانت تحلم بأعناق الفلامنجو الطويلة المنحنية وبانتصابها برشاقة على ساق واحدة، وبلغ ولعها بها أن قالت «أريد زوجًا في حديقة القصر على الجزيرة!»، وتخطت الواقع: «نصنع لأعناقها وسيقانها أطواقًا من لآلئ وردية، يصنعها مسيو ياقوب!».

ضحكت السفيرة الإيطالية مقهقهة على رغبة أمي: «ليس كل

شيء ممكنًا يا سيدتي! ربما أهديه لكِ ذات يوم؛ لأنه ليس حيوان الفقراء كاللقلق. إنه حيوان أصيل ولا يمكن أن يبقى في غير حدائق الأرستقراطيين. اللقلق يقترب منكم في المقاهي الشعبية فيسرق فتاتكم ويفر. الفلامنجو أصيل مثلنا، واللقلق مثلكم».

لا يُقال هذا الكلام في العراك! لا سيما لكوكونا[1] مسلمة تسعى للعيش مثل الغربيين بأمل الوصول للحرية. يقولون «هوووست!» أو حتى «تشوش[2]!» كما تقول فاطمة لفرسنا المشاغب.

ففي النهاية أمي كذلك لها كبرياؤها:

«سأعثر على زوج فلامنجو لحديقتنا».

«زوج وليس فردًا؟!».

عقبت السفيرة الإيطالية بهذا مبتسمة، ومن ثم تحققت لأمي غايتاها: تشييد القصر في الجزيرة وشراء زوج فلامنجو لحديقتنا؛ بل غايتها الوحيدة: وجود زوج فلامنجو في حديقتنا.

كانت الحقيقة المؤلمة أنه يجب العثور عليه أولًا، وهكذا علمت أن الحصول على الفلامنجو ليس سهلًا بالفعل. لا أحد يعلم اسمه حتى، يقولون: «لنعطيكم قردًا إن أردتم!» فترد أمي: «لا يمكن! يلزمنا قبل الصيف زوج فلامنجو!».

1- كوكونا: لقب أطلقه الأتراك على النساء المسيحيات وعلى النساء المغاليات في زينتهن.

2- على مهلك! على رسلك!

هل أمي فحسب؟ تعلقت فاطمة وهجران كثيرًا به كذلك. اتحد ثلاثتهن وأردن فلامنجو من الذي يتجول في حديقة السفيرة الإيطالية.

كم كانت أيامًا جميلة. كلما خطرت ببالك الأيام الماضية وكلما تذكرتها ازدادت جمالًا. وعندئذٍ تكون الحياة التي تعيشها مملة.

لا يوجد هنا فلامنجو لكن توجد شتى أنواع الطيور، بنت عائلة سنونو على سبيل المثال عش تحت طنف بيتنا، توجد عصافير ويمام وغربان. الغربان أكثر ما يوجد. كانت هجران يمكنها مشاهدتها لساعات. ياللحماقة!

طار غراب!

أنا هنا بمفردي، حتى لو تجول عقلي بين الذكريات مثل الطيور التي تحط من فرع لفرع؛ فأنا وحيدة. مهما حاولت مواساة نفسي فبلا جدوى.

تنهدت بأسى.

أتى غراب وحط على إفريز النافذة.

ربما حسبني هجران.

قلت: «لستُ هي! إنهم جميعًا معًا في إسطنبول، أنا هنا بمفردي».

واستدركت بألم: «علاوة على أني حامل!».

لا أحد يعلم أني كنت أرى نفسي في أبشع أحلامي حاملًا من شخص لم أعرفه ولم أتعرف عليه ودون أن تقع بيننا أي علاقة. أتتحقق الأحلام السيئة التي نراها في الحياة الواقعية؟ رأيناها، تتحقق إذًا!

4

أذن الظهر عندما وصلنا. أعدت بدرية الطعام بسرعة. شوربة طحين مع أرز لأني تقيأت في الطريق. قالت: «إنه جيد لمعدتك»، كان النعناع الذي وضعته فيها طازجًا ومفرومًا بعناية. توجد أيضًا تفاحة الجنة على حافة الصينية، وهي من الحديقة مثل النعناع. «لم تؤتِ ثمارها العام الماضي. وفروعها ممتلئة هذا العام». قطعت شريحة رقيقة من رغيف خبز أحضرته من إسطنبول وأضافته على طرف الطبق، وصلت متعلقاتنا الكافية لشخصين قبلنا، وركبنا الحنطور دون التجول أكثر في ساحة الجزيرة، وإلا لرأيت من يشربون عصير الليمون في المقهى المفتوح، وغبطتهم، قالت بدرية: «الحمد لله أن بطنك ليس كبيرًا؛ لكن مع ذلك دعينا لا نخرج في الأماكن العامة»، نظرت إلي وتنهدت بينما كانت تستقل العربة، وجربت حظها مرة أخرى: «بالله عليك، متى حملت؟ انظري أنا لا أسأل حتى ممن. أسأل بنية أن أعرف إلى متى سنبقى منفيين هنا؟».

أفكنت سأقول لبدرية عما لم أجب به قط أمي التي سألتني: «حسنًا! متى ستكون الولادة عليك اللعنة؟» هكذا هي بدرية. ماكرة. كانت أمي جالسة على طقم الأرائك الإفرنجي الموضوع في

الصالون، تستند برأسها الذي كاد أن ينفجر من الألم -على حد تعبيرها- على يدها المزينة بالخاتم ذي الياقوتة وقطع الألماس الذي أخذته من مسيو ياقوب. الغنيمة الكاذبة الوحيدة التي بقيت في يدها: كانت ستضع الخاتم ذا الياقوتة القابع في إصبعها الأوسط لهجران عندما تتزوج. تسابقت جميع هوانم الطبقة العليا في إسطنبول للحصول على هذا الخاتم، وحازت أمي الصدارة. وما المدهش في هذا؟! ألا يطلق الصافرة من يدفع المال؟! ومع هذا اندهش الجميع بشدة. كما تندهش مني أمي الآن، كانت هناك رائحة تثير العطاس في الجو.

ثم أطلقت فجأة صفيرًا مثل النسر من مقعدها الجالسة عليه وتشبثت بشعري:

«ممن حملتِ بابن الحرام! أخبريني بذلك على الأقل مِمَن؟».

حدث كل هذا قبل الليلة التي قررت فيها إشعال النار في نفسي.

انتصبت أمامي مثل كائن له مخالب مفتوحة على جانبيه وشعري متكتل في راحتيها. كانت شعراتي المهتزة بين الأصابع وقبضتي اليدين المعتصرتين بغضب؛ رفيعة وهشة، كما لو لم تكن جزءًا من شعري الذي يشبه المياه المتدفقة بغزارة. كأنني لست ابنتها ولا أخت فاطمة. حتى هجران كانت مترددة تجاهي. شكلت خيبة أمل لهن جميعًا، ليس أكثر من ذلك.

أتذكر بكائي بحرقة مرددة: «أأنا من أردت حدوث هذا؟!» كنت

منهارة للحالة التي قيل إنها لازمت السلطان عبد العزيز الذي لم يكن يأكل غير البيض المخفوق خوفًا من تسميمه.

«أتنكر من أمومتك! وأبيعك كالجارية!».

خفت من تهديدات أمي هذه؛ لكنها لم تكن تستطيع فعل هذا، لأنه سيسبب ضررًا أكبر للعائلة:

«أفعلها! والله بالله أفعلها! أقول ماتت! أفعلها! أقيم قبر فارغًا وأذهب فأبيعك في سوق الجواري!».

تستطيع أمي فعل ما قالته؛ لأنها امرأة لا تعطي مجالًا للشفقة.

كان حساء الأرز جيدًا، دفأ أعماقي.

جال بخاطري: «سأضمد هنا جراحي وأعالج نفسي».

لاحظت بعد أذان العصر، أن عش السنونو لم يكن في مكانه.

قالت بدرية: «نزعته وألقيته!»، كانت فاطمة تقول عندما تأتي لأخذ الطبق الفارغ، والصينية المليئة بفتات الخبز: «إذا أسقطتِ هذا القدر من الخبز وأنتِ تأكلين، ستبقين في البيت[1] مثل عمتي! كانت أمك تقول علقت كالقذارة بطنف قصري اللامع مثل قطرة الدمع؛ المزخرف المنقوش مثل الدانتيل الأبيض من الزبد، جعلتني أفعل هذا بالفعل، فعلته دون أن تأمر به؛ أكان سيئًا؟!».

1- لن تتزوجي.

كان الخيار الوحيد أمام بدرية للبقاء على قيد الحياة هو: القيام بالأعمال المكلفة بها. الخير عند الضرورة، والشر إذا طُلب منها.

«أوقع الأمر عليك يا بدرية أن تُجلي السنونو؟».

أخذت الصينية التي أمامي دون إجابة.

قالت في وقت لاحق: «إن الجيران رأوني». من الواضح أنها كانت تريد إشعال النيران بيننا. أصبحت توهمني بخوف آخر أيضًا.

«كاد الجيران أن يمسكوا بي وأنا أجمع تفاح الجنة».

«وماذا فعلت إذًا؟».

«لا شيء. ماذا سأفعل؟ سألوني، وأجبت».

«ماذا سألوا؟».

«ماذا أفعل هنا؟».

«حسنًا؛ وماذا قلت؟».

قلت: «أنا مريضة، أرسلوني لأن الهواء النقي سيكون جيدًا لي، ومن ناحية أخرى لأنظف البيت وأستقر به، أكنت أقول إني بخير».

كانت بدرية كالفا راضية عن حياتها وتستغل أول فرصة تحصل عليها في حياتها: يكفيها أن تصبح سيدة، وبسبب وضعي لم يكن بوسعي شكايتها ولا إلزامها حدها، بدأت تخاطبني

بــ«أنتِ» بدلًا من «حضرتك»، لا؛ لا يمكن التغلب عليها، ربما كان السبيل الوحيد للخروج هو الاتحاد، والإذعان، والسماح لها بأن تكون سيدتي. حاولت جعلها تشعر بأن استفسار الجيران لم يُقلقني بمقدار ذرة؛ لكن بلا جدوى، أدركت بدرية الماكرة مدى توتري.

كان القصر المجاور يرتفع ببطء على الأعمدة. بدا شبح هيكله.

«سيصبح أكبر وأكثر زخرفة من قصرنا».

قلت: «لا تخبري أمي بذلك، ستشعر بالغيرة وتحزن».

بدا جواب بدرية الذي أخفته تحت الابتسامة الساخرة التي ظهرت على طرف شفتها:

«حمقاء! ما زلت تفكرين بهم».

كم كان عمر بدرية؟ أكانت في الثلاثين؟ أم أقل قليلًا؟ أم أكثر قليلًا؟ كانت تحسب عمرها بدقة وتقول: «من لا يعرف عمره لا يعرف طريقه!».

لا تنسى عمرها كي لا تضل طريقها. علاوة على أنها تحب أن تُسأل. تذكره في كل فرصة، لم تكن أمي تسمح لها بالتحدث. إن كانت في مزاج جيد؛ فستأخذ رأيها، وإن كانت في مزاج جيد للغاية فستسمح لها بالنميمة.

«لا يحب الإنسان من يشبهه»؛ هذا ما كان والدي يقوله عندما

يرى أمي توبخ بدرية كالفا وتضطهدها مميلًا طبقه حتى يتمكن من شرب حسائه بسهولة أكبر دون أن يغفل سؤاله «أهذا كذب؟!»، وكاشفًا عن الطبقة التي أتى منها. كان أبي ابنًا غشيمًا لمالك أرض ليس غنيًّا ولا فقيرًا، وحتى عمتي كانت فتاة تربت كالرجال بارعة في استخدام الياتاغان فوق الفرس. أتمنى أن تكونوا قد عرفتم ما هو الياتاغان؟ السيف. لم يظهر لها طالب في بورصة الكبيرة خوفًا من ألا تطيع كلامه. رحل الشقيقان إلى إسطنبول مع قالب من الذهب عندما فقدا والدهما في وقت مبكر. وعندما استقرا في إسطنبول، أعدت عمتي أبي ليصبح تاجرًا. تعلما الحساب، وفعلت ما باستطاعتها ليتعلم أخوها، ويتهذب ويتعقل. «هذه حالة أبيك العاقلة!» كانت عمتي تقول هذا. اشترت مضايف وحمامات وامتلكت حريتها في العيش بداخلها دون زواج. فالحرية إما أن تُشترى بالمال أو بالوحدة المفروضة على أرض لا يطير بها طائر ولا تمر بها قافلة، ما من وسيلة أخرى على ما أظن.

سألت فاطمة عن هذا ذات مرة: ياللعجب ألم يجذبها أي رجل؟ ورددت أنا: «لو جذبها، لاشترته، ولعقته، وابتلعته مثل السلطانة أسماء». ضحكت هجران، وقرصتني فاطمة بغلظة.

وإذا أتينا لأمي: فقصتها معقدة بعض الشيء، لقد كانت جارية اشتراها مربي طيور عبد المجيد في عمر الخامسة، (لا يحب الإنسان من يشبهه!) وعندما اعتلى عبد العزيز العرش نُفي مربي الطيور إلى المدينة وذهبت هي أيضًا معه، وعندما وافته المنية هناك، أرسلت

إلى جوار ابنه بإسطنبول مرة أخرى، وحين غارت زوجته منها وقالت: «لا أريد هذه الجارية»، تم بيعها. واشترت عمتي جارية السرايا ذات الثلاث عشرة عامًا، ورأى والدي والدتي في قصر عمتي وأحبها، فقالت عمتي أستجد أفضل من هذه؟ اعقد عليها قرانك!»، وهكذا وجد أبي وأمي بعضهما بعضًا وتزوجا.

أما بالنسبة للسمة المشتركة بينهما: الشبع بعد جوع. قضم فأر الصرف الصحي إصبع أبي الخنصر وابتلعه بينما كانا ينامان في مستودع محاطين بالقوالب المليئة بالذهب عندما أتيا من بورصة إلى إسطنبول، وأمي أيضًا صار إصبع قدمها الخنصر غير الموجود طعامًا لفأر جائع على متن السفينة التي استقلوها للذهاب إلى المدينة. عندما اختليا ببعضهما ليلة الدخلة ورقدا على الفراش على ظهريهما رأيا إصبعيهما غير الموجودين: إصبع الخنصر للقدم اليمنى لأحدهما وإصبع الخنصر للقدم اليسرى للآخر. قالت والدتي: «أخبرني الآن لنرى!، أهو ذنب أن نرغب في تغيير قدرنا وخنصرينا اللذين قضمتهما الفئران؟! أهو ذنب أن نصبح حديثي نعمة ونغتر بالأشياء التي نشتريها بالقرش الأبيض؟».

كانت بدرية الجارية الشركسية التي اشتراها أبي وأمي في السنة الأولى من زواجهما أحد هذه الأشياء المماثلة للخنصر الذي أكله وابتلعه الفأر، كان حظها سيصبح جميلًا لو لم تكن عرجاء. ولم يكن اسمها حتى سيكون بدرية. بل يمكن أن يصبح جولبهار، كناريا، بُلبل، نيشيدل، سرقتسِزا. البيع ليس كارثة؛ بل هو فرصة

للدخول إلى عالم أكثر ازدهارًا وإبهارًا.

«ألم تكن خُرم وصفية وكوسم جواري مثلي؟».

«أتساوين نفسك معهن؟».

بغض النظر عما يقوله أي شخص، فإن عمتي بقيت سيدة أمي كما ستظل دائمًا. أمي وأبي أرادا عيش حياتهما بالأشياء الجميلة التي شروها بالمال عوضًا عن خنصريهما المفقودين، وكان يتعين على بدرية التي تسير جارة قدمها ألا تنسيهما نفسيهما من خلال التأرجح بين الماضي والحاضر، وإلا لصارا شخصين آخرين، ولأرادا أن يكونا سعداء دون أن ينسيا ماضيهما، وأن يتحدثا عن ذلك الماضي كما يشاؤون.

كانت أمي التي تردد «أتينا من الشعب وسنذهب إلى الحق!» تقبل أنها من الشعب؛ لكنها أرادت بعد ذلك أن تكون من النخبة.

ولقد ذكَّر حملي غير الشرعي أمي بأيام طفولتها، يمكن للإنسان أن يخسر ما أنجزه في لحظة، الحياة ظالمة وقاسية، ترون أنتم الحرائق، بالنسبة لأمي وفاطمة، فإن وضعي أسوأ من النار التي لا تترك على الإنسان شيئًا سوى خيشة محترقة. يطلقون عليها «نار العفة، يمكنها أن تأخذ كل ما لدينا، وتجعلنا نعيش مثل الموبوئين في هذا المجتمع».

فيمَ كنتُ أفكر هكذا؟

عادت السنونو أدراجها وبحثت بلا حيلة عن أعشاشها المتناثرة. كنت مثلهم، أدور داخل ذهني وذكرياتي وماضيّ باحثة عن عزاء يواسيني.

أغلقت بدرية كالفا الباب عليّ.

لفت انتباهي المقعد الذي شغل زاوية الغرفة التي تعد فارغة مثل العرش، أي إنه المطلوب مني البقاء هنا وحدي مع خطيئتي. هكذا بدأت الأيام التي مُنعت فيها من الخروج للخارج حتى ولادتي.

5

«ماذا تفعلين أنت إذًا بمفردك في الأسفل يا بدرية كالفا؟ كيف تقضين الوقت؟ ألا تخافين؟».

«أنا أخاف من الله وحده».

«كفى يا بدرية كالفا، لا تتصرفي كالسيدة أمامي».

فكرت؛ ماذا بقي لي لأخسره؟ الشجاعة سلاحك الوحيد الذي يخيف أعداءك. حتى عمتي احترمت موقفي. على ما يبدو.

عندما بقيت معي بمفردنا في القصر الكائن في بيازيد حاولت جر الكلام من فمي، فالتزمت الصمت. تحدثت للمرة الأخيرة «تكلمي الآن، أخبريني، قولي حالاً!» مسندة على حلقي الخنجر الذي حملته معها تحت جرة في اليوم الذي جاءت فيه من بورصة إلى إسطنبول، ثم رصعت قبضته بعد ذلك بالزمرد والماس والياقوت. واصلت الصمت. ولم يبق لديها هي الأخرى خيار سوى قول «الصامت يربح!»، «ما الذي سيتغير إذا عرفنا من فعل بك هذا السوء؟ أسنعثر على والد ابن الحرام ونعلقه على خطاف؟ لنفترض أننا شنقناه. ماذا سيتغير؟ سيأتي هذا الطفل غير الشرعي إلى الدنيا لا محالة». قالت هذا ثم صمتت هي الأخرى. وظلت صامتة حتى

هبط الظلام على قاعة الاستقبال في القصر في بيازيد، ووصلت العربة ذات الفرس التي أرسلتها أمي إلى الباب.

كانت عمتي تحكي عن صمتها لأنه لم يكن لديها من تتحدث معه بينما تتجول بالحصان هدية والدها، وأنه لهذا السبب كان الاستماع طبيعتها، وأنها هكذا تعلمت الاستماع أولًا وليس الكلام، وأنها بفضل هذه الخصلة صمدت في إسطنبول التي أتت إليها مع قالب ذهب بأخيها ممسكًا بتنورتها، وأنها بفضلها تغلبت على مدينة الفحش هذه. لقد فزت بصمتي أمام عمتي؛ بل إنني بقيت على قيد الحياة بسببه؛ لأنه في وقت من الأوقات ادعت فاطمة أنني ربما حملت من جن من العالم السفلي. ألم أكن معهن دائمًا، متى حملت إذًا؟! كان هناك روحاني في إسطنبول وكان يفصل أمثالي على الفور عن أبناء الحرام من الجن. بالطبع لم يخطر ببال ذوينا أن يسألن كيف يحدث هذا. نساء وفتيات أحشاؤهن خارجة على ضفاف الجدول، كان هذا عمل الروحاني، يخرج ملطخًا بالدماء من الغرف التي أُغلقت عليه مع الفتيات الحوامل ويقول: «لم يترك الجني ابنه». كان معروفًا أن جثث النساء التي تم العثور عليها في أماكن مهجورة على جانب الطريق تم اختطافها من قبل قطاع الطرق وتركها على هذا النحو لأن عائلاتهن لم تستطع قول الحقيقة. قالت عمتي بينما كنت أضع قدمي على الدرجة المطلية بالفضة للعربة التي جهزتها أمي: «قفي! لن تذهبن إلى الروحاني!».

وإلا لذهبنا، كنا على وشك الذهاب. والله بالله كنا ذاهبات!

ثم رأيت حُلمًا.

كنت منكبة على وجهي بجوار جدول. كان كل ما في أعماقي مختلطًا بيدي (ما تفهمونه أن أحشائي وقعت بين ذراعي)، تلطخ فمي الذي انفرج بصرخة ألم بالتراب والحجر، وعبر النمل والحشرات من زاوية عيني. أتى نمل وحشرات العالم كله ليأكلوني وقد خرج ما بجوفي. استيقظت صارخة مصبوبة عرقًا، وهكذا تم إعداد كل التجهيزات لإبعادي عن البيت لمدة. حتى هنا كان كل شيء مغامرة. تعبت.

كانت بدرية تقبض على مفتاح الغرفة كخنجر منزوع من غمده كما لو كانِ السلاح الوحيد الذي تمتلكه ضدي، ثم وضعته في منتصف راحتها وأغلقت كفها بإحكام:

«سامحك الله يا صغيرتي. ما حدي لأمارس عليكم السيادة؟ ذهنك مشوش بسبب العزلة. لقد ولدت على يدي. وسيولد من في بطنك هكذا أيضًا إن شاء الله».

لم يفلت من ملاحظتي ترددها قبل أن تقول من في بطنك. ربما كانت ستقول «ابن الحرام» بدلًا من ذلك.

«خطأ يا كالفا. أتت القابلة لولادتي».

«بالطبع. لم تجعلني عمتكن أشاهد ولادة فاطمة، أما أنتِ

وهجران فلم تمانع في وقوفي بجانب الملاءة. ووضعتك أنتِ، وليس هجران في حضني قائلة: اذهبي واغسلي هذه».

صمتت بغتة لمدة وجيزة. فأحضرت المياه لمسح جسدي. نحت الصينية جانبًا وأخذت الوعاء الممتلئ بالمياه. فأنا هنا منذ عدة أيام. كانت سعادتي الوحيدة هي رؤية الغرفة مغمورة بالضوء الأحمر مع غروب الشمس. كنت أبكي من قهري كلما تحرك الطفل في بطني، ورقدت طريحة الفراش لأيام.

«نظفتك كل يوم يا سيدتي الصغيرة».

«لم لا أتذكر؟».

«القهر والحزن يخدر الإنسان هكذا. يخرج ألم ما مررتم به. فتنامون كالميت. تسللت إلى غرفتكم خلسة لأرى إن كنتِ حية حفظك الله».

«وهل كنت حية؟!».

كانت طيور السنونو تبحث بيأس عن أعشاشها. ربما كانوا يسألون نفس السؤال الذي طرحته. لم أستطع إدراك ما إن كانت بدرية فهمت النكتة التي ألقيتها أم لا؛ لهذا كانت فاطمة تطلق عليها «خبيثة».

«هل تعرفين ما الشيء الذي أحبه فيكِ؟».

لم أجبها. صمتُّ. خطرت على بالي فجأة نصيحة أمي بأنه يجب

ألا نجعل من نساء مثل كالفا صديقة أو زوجة أو حبيبة حتى لو أصبحن كاتمات أسرارنا. فأجابت بنفسها ثانية عن سؤالها:

«سعادتكم بالعيش. داخلكم الذي تحيطونه كالأعشاب البرية، ولا يمكن لأي كان نزعه وإلقاءه».

«كم يومًا مر علينا هنا؟».

تركت بدرية عملها ولمست بإبهامها أصابعها واحدًا واحدًا وعدتهم داخلها مغلقةً شفتيها:

«ستة».

«ليس كثيرًا!».

«لا تقولي هذا. كُتب في القرآن أن الدنيا خُلقت في ستة أيام».

اصطدمت أحد طيور السنونو التي لا تزال تبحث عن عشها بأمل على حين غرة بالنافذة. فزعنا عبثًا:

«كل هذا بسببك يا بدرية!».

«لا تقولي هذا! لست بلا قلب».

شعرت وكأنني أشعل النار بنفسي. كانت بدرية مدركة للشر الذي اقترفته. وتخاف كثيرًا من ارتكاب ذنب. ولكنها كانت تهتم أيضًا بمصالحها:

«طافت أمي من بعدي أنا وأخي على جميع مقابر إسطنبول. تمامًا مثل هذا السنونو الذي يبحث عن عشه وأفراخه. قالوا إنها ماتت لأجلنا. لم يتحدثوا عن بيعنا في سوق الجواري».

«بعثرتِ أعشاشهن!».

«قمن بعمل المستحيل لأنهن مثلك».

«تناثرت أفراخهن مع أعشاشهن المختلطة بالطين، آمل أن تكون كلاب وقطط الجزيرة الجائعة قد أكلتهم، ومن يدري، ربما اختطفهن نورس في الهواء».

واصلت بدرية عملها بوجه متجهم. انتابني في تلك اللحظة خوف من أني أعيش مع جلادتي. لا حياة لغير المتمردين في قبضة الظلم.

قلت: «أعطيني هذا المفتاح! سأخرج وأستنشق الهواء».

مدت بدرية المفتاح لي، فوجئت بسرعة قبولها، وفي الواقع لم يكن يجب أن أندهش من كل هذا. كانت تلعب معي كما يلعب القط بالفأر، كانت هي من تعرف قواعد اللعبة؛ وليس أنا.

قرأت السيدة المعلمة التي أتت للبيت مقالاتي بقهقهة: «هذه الفتاة بليغة حقًّا!».

كانت أمي تقول: «ما فائدة ذلك؟ ليت الخالق يعطي خصال بناتي الجميلات لابني عديم النفع!».

نزعت من يدي واجب التعبير ذا الدرجة المرتفعة لأجل أخي وشعور أبي بالفخر:

«الولد الذي سيصبح باشا. انظروا إلى ضرورة قول كم هو جميل!».

سماعي التوبيخ بعد سؤالي: «وهل تصبح الفتيات باشا؟» كان لهذا السبب.

فتحت باب الغرفة بالمفتاح التي أعطتني إياه بدرية، ليتني كنت أستطيع إغلاق أبواب ذهني بنفس المفتاح، وقلبي حتى! فلا يمكنني التفكير ولا التذكر ولا الشعور ولا الحب أيضًا؛ هكذا تكون الحياة أسهل.

6

نسير الآن أنا في المقدمة وبدرية خلفي.

يتصاعد لوم بدرية تدريجيًّا مع قولها «لو رآنا أحد؟!» مع تنهيدة عميقة.

«من سيرانا؟ كما أن بطني بحجم جوزة، من سيعلم حتى لو رآها؟».

بسطت ذراعي على وسعيهما للجانبين وعرضت عباءتي مثل الفزاعات المنصوبة في الحقول:

«انظري أيضًا إلى ما فوقنا؟».

«طبقة مفروشة فوق طبقة، من لا يعرفها حمار[1]».

بدا كما لو أن بدرية قد نسيت لوهلة حقدها وتحطم قلبها الذي تحملته وراكمته ضدنا سنة تلو الأخرى مثل غيمة عاصفة، أو أن لها حسابًا آخر؛ لا أعرف. ضحكت أنا أيضًا على مقولتها الأخيرة. كانت المرة الأولى التي أضحك فيها منذ أيام.

1- لغز يرد في الكلمات المتقاطعة جوابه: الكرنب.

كنت قد ارتديت أسوأ عباياتي حقيقةً وأتيت، أو بالأحرى ارتديت ما أعطتني إياه أمي، فقد قطعت فاطمة ومزقت ما وضع في صرتي وأنا آتية للجزيرة وخرقت فساتيني كأنما ترغب في تقطيعي وتمزيقي، قضت على التنانير التي أخطناها ضاحكات ولاهيات، وأعملت فيها برمتها المقص عشوائيًّا فثقبتها ونقبتها كأنها جسدي.

حدقت بحزن في جروح المقص في ملابسي، وبينما كنت أنظر بغم لبلوزتي الحريرية الأخف من المحرمة قالت بدرية واضعةً الشرشف الحلبي على ظهري «ثلاثتهن اتحدن وفعلن ذلك»، حينئذٍ أصبت بجرح قاتل.

«نرفها بالإبرة ونصلحها كلها، تشغلنا هنا».

«لم يفعلن ذلك لشغلنا على أي حال. فعلنه بدافع كرههن وعداوتهن».

نظرت بدرية كما لو أنها تقول لا بد أن الأمر كذلك. كان حزني سيخف قليلًا لو زمت شفتها بمعنى «من يدري؟!»؛ لكنها لم تزمها. وافقت على كلامي.

وصلنا إلى آخر الجزيرة. أعرف هذا المكان مثل كف يدي حيث إننا منذ طفولتنا نأتي إلى فندق جياكومو، تحدثت بدرية من ورائي: «واحسرتاه! إلى أين يا سيدتي الصغيرة؟».

كنت أسير الممر الهابط إلى الشاطئ بخطوات راكضة. لم أبالِ

أبدًا بالسقوط والدحرجة حتى البحر لأني لا أريد ما في بطني، ولا أشعر بذرة من الدفء أو القرب تجاهه، ولأني أنميه داخلي بمفردي، ولأن أمي وأخواتي اتفقن فيما بينهن واستبعدنني، ولأنهن مزقن ملابسي كأنما يردن أن يرينني العقوبة التي قد ألحقنها بجسدي. من الواضح أن بدرية لم تكن تبالي أيضًا، كيف اعتنت بفاطمة وهي حامل، وكيف أحاطتها برعايتها.

ما لبثت أن هبطت إلى الشاطئ. كانت هناك بضعة أذرع من الحصى والأحجار الضخمة من حيث تنتهي أرض الجزيرة ذات اللون النحاسي، ومن بعدها البحر. لم أستطع منع نفسي واقتحمت البحر بحذائي. لم أكن أبالي إن اخترقتها المياه المالحة أو فلقتها. كنت أنقم أساسًا على استمرار وبقاء الأشياء التي صنعتها أيدينا نحن البشر الفانين بعد موتنا. يموت الناس وتبقى المنازل والكراسي والطاولات والفساتين التي صنعتها أيديهم في الحياة. أليس هذا ظلمًا؟

مر بعقلي كل هذا وأنا أخلع حذائي وأرميه على حصى الشاطئ حتى تلامس قدمي الماء. لم يكن صمت بدرية وانقطاعها لهذا الحد علامة خير؛ لكنني في تلك اللحظة أردت الاستمتاع بالحياة. نظرت إلى الزرقة الشاسعة المصطبغة بها المياه الآتية حتى كاحلي. في الأمام قليلًا، وسط البحر، كان هناك كوخ عائم مرتفع على أربعة أعمدة. كنت أرغب منذ طفولتي في أن يكون لي كوخ عائم على البحر؛ وليس قصر أو سراي. لأبسط الشبكة على البحر وأنام في

كوخي، تطلعت إلى الكوخ العائم كأنني أرى حلمًا. لم يكن موجودًا من قبل. إنه جديدٌ هنا. التفت إلى بدرية، أردت أن أذكرها برغبتي هذه؛ لكني عندما شعرت بفتورها تراجعت، وأدرت وجهي للبحر ثانية. كانت السماء تدنو منه. كأنها سحابة منفردة مثل ريشة تحوم فوق رؤوسنا. كانت تلك لحظة السعادة التي انتهت مع تذكري للطفل في بطني الذي لا أريد إنجابه. آه يالي من عنيدة! خطر ببالي حين أردت دعوة بدرية إلى لحظة السعادة القصيرة هذه «كم سيكون جميلًا؛ أليس كذلك؟!»، وعندما استدرت ونظرت رأيت بدرية واقفة ورائي بحجر كبير لسحق رأسي.

7

قلت: «ماذا تفعلين يا بدرية؟» خرج صوتي مرتبكًا للغاية.

«سأقتلك يا سيدتي الصغيرة».

صدقت أنها ستسحق رأسي بحجر وتأخذ روحي. لا بد أنها صدقت أنها تستطيع فعل ذلك أيضًا، وقالت دون أن أسألها:

«سأقول 'خرجنا لاستنشاق الهواء'، هربت وذهبت من أمامي، بحثت ومشطت وفحصت وصرخت وناديت ولم أستطع العثور عليها. سأعود إلى البيت وأنتظر، وسأخبر من في البيت عندما لا تأتين ليلًا. وأقول هذا أيضًا للشرطة. عندما يستجوبونني سأخبرهم بما قلته، سأشير بإصبعي إلى الأفق المجهول على أنه المكان الذي فقدتك فيه. ولن يستطيعوا هم أيضًا العثور عليك؛ لأن البحر سيكون قد أخذ جثتك وسحبها منذ وقت طويل، ومن يدري أين ستظهر مرة أخرى؟».

كان هناك بريق في عيني بدرية لم أره حتى ذلك اليوم. كانت واثقة من أنها ستقتلني. لو لم تكن كذلك لشكت في احتمال وجود شخص داخل الكوخ المنصوب أمامنا مثل الفزاعة، لم تشك، أو أن حواسها كانت مشحوذة كالسيف، وأنفها متحفز للرائحة

كالحيوان، وعينيها عمياء. كانت متأكدة من أنها تستطيع قتلي. خفت، لم أشعر بالخوف هكذا من قبل، لم أكن أخاف من الموت. لم أخف حتى عندما أحرقت نفسي؛ لكنني الآن خائفة، قلت بضعف من تأكد أنه سيموت ويخاف من الموت: «لا يمكنك فعل ذلك!». كان فكي يرتجف وشفتاي. كانت المرة الأولى التي يرتجف فيها جسدي خوفًا من الموت. تراجعت خطوة للوراء رجاء حماية نفسي، ففقدت توازني وسقطت في الماء، لم أستطع التفكير في الإمساك بحجر وإلقائه، أنا لا أستطيع إيذاء أي شخص، ولا يمكنني جرح إنسان لا باللسان ولا باليد.

يظن الشرير كل الناس أشرارًا. رفعت بدرية الحجر الذي كانت تحمله. رأيتها تصر على أسنانها. فرفعت يدي مستسلمة. كنت أنظر في عيني قاتلي الآن.

الموت شاق. من الصعب مغادرة هذا العالم. فالحياة جميلة. شمس دافئة، بحر مثل اللؤلؤ. هذا في حد ذاته سعادة. وها أنا أتركها كلها وأذهب.

قلت لها: «اقتليني!»، فقالت بدرية شارعة في البكاء: «فعلتها من قبل».

من قتلتِ من قبل يا تُرى؟

«إذا قتلتك، فسوف يدعونني حرة».

من أبرم معها هذه الصفقة يا تُرى؟ أم أن رجال البيت كانوا

على علم بكل شيء؟ ربما تكون عمتي حتى، كان أول من فكرت به أمي بالطبع. وفاطمة كذلك! يمكن أن يكون هذا عمل هجران الغبية أيضًا؛ كي يرتاح الجميع، و نعود إلى الأيام الخوالي كأن شيئًا لم يحدث.

كانت قد قالت لي: «لن أستطيع أن أتزوج هذا الصيف بسببك»، قامت بفتح باب غرفتي ثم أغلقته كالعاصفة لقول هذا على وجه التحديد.

كانت بدرية ستقتلني. ظهرت على وجهها أمارات يقينها من قدرتها على فعل ذلك؛ لكنها كانت تستمتع بهذا لمدة وجيزة فقط، كانت تصف حولي من يحولون الحي إلى ميت واحدًا واحدًا.

كانت تتجول من فراش لفراش وعيناها مغمضتان، وذات ليلة شتاء على سبيل المثال:

أتت بالخطأ إلى فراش أخي الذي بلغ الرجولة حديثًا قائلة: «ظننت أنك ناديتني»، ثم إلى حضن أبي الذي سمعت تعنيفه «أين بقيت يا فتاة؟» لم تستطع القبول بأنها جارية. فبينما كانت الفتيات الأخريات يسلمن عصا التوت البري إلى سيدهن حين يرتكبن خطأ، لم تستطع هي أن تتحمل كلمة سيئة حتى. ثنت أصابع يدها اليمنى الثلاثة. تتساءلون لماذا؟ كانت تمسك الحجر وترفعه بيدها اليسرى. باليد التي تُحسن استخدامها. لم يعد لدي شك. أدرت رأسي إلى الجانب الآخر لرغبتي في رؤية جمال العالم

الذي سأغادره للمرة الأخيرة، ضربت حرارة الشمس وجهي.

«اقتليني!».

ثم نظرت إلى وجه بدرية قاتلتي بجرأة حتى لا تقتل أحدًا آخر وحتى لا تنساني، وأغمضت عيني. كأن ما نطلق عليه الحياة ليس سوى فتح عين وإغلاقها. عندما أغمض عيني، تنهار الدنيا وتفنى. وعندما أفتحها تولد من جديد، لكنني هذه المرة حسبت أني أغلقها على الموت.

8

لكن هذا لم يحدث.

تمايلت واهتزت شجيرات اللونسيرا التي تسد مدخل الممر الهابط إلى الشاطئ.

كان هناك شخص ما.

وبينما كان الحجر في يد بدرية الممدودة مثل القوس على وشك سحق رأسي، أتى صوت:

«من هناك؟» صاحت تجاه الشجيرات التي كانت تتمايل بشدة.

سيظهر الحب ويأتي بعد قليل من ذلك الطريق المنحدر إلى البحر، بين شجيرات اللونسيرا ذات الأطراف الخضراء.

ثم ظهر من يصارع الشجيرات:

كان حمارًا!

لكن لا تقلقوا، لم أقع في حب حمار؛ بل في حب محمد الذي أتى في إثره، بسيجارته المحشورة في طرف شفته، وطربوشه المائل قليلاً فوق رأسه الجميل ذلك، وقميصه المفتوح الأبيض مثل زبد البحر، والسترة القماشية التي يرتديها، وسرواله المطوي داخل حذائه،

وعينيه المشتعلتين، وذقنه الأشبه بصخرة قوية ترتفع وسط بحر هائج. أحببت محمد ما إن رأيته، أعجبني، وصرت عاشقة. الحب في الأساس هو شيء يقع بمجرد الرؤية. القلب يعرف طريقه. لا يستطيع العقل توجيهه. وهكذا صار الزواج بالباشا.

اعتقد أنه باغتنا ونحن نسبح في البحر فأدار ظهره وقال:

«آسف يا هوانم!».

لو كانت أمي لزمت شفتيها من قبيل الدهشة بمعنى «شاب فتي ما شاء الله!».

تشجعت بدرية من سلوك محمد اللطيف.

تنهدت: «دستور!».

أدار محمد حينئذٍ رأسه قليلًا وقابل سوء فهم بدرية:

«قلت عذرًا عندما رأيتك يا هانم!» أدار وجهه نحونا حين أدرك للوهلة الأولى أنه لا يوجد شيء خاص:

«اعتقدت أنكما تستحمان في البحر».

«ما ظنك بنا؟! نسوة منحلات؟».

تجهم وجه محمد جراء شجار بدرية.

قال: «يوووو». أخذ السيجارة التي بطرف شفته ونفث دخانها.

انتصبت واقفة حيث كنت واقعة على الأرض، فتعثرت بينما أقوم بذلك؛ وعلى الرغم من وجود أكثر من عشر أذرع بيننا تحرك محمد كما لو أنه يريد مساعدتي، خجلت من النظر لوجهه، يصعب على المرء النظر في عيني من يحب، إنه مثل النظر إلى الشمس. كان من دواعي سروري النظر إليه حد الشبع بينما كنا نسير إثر حماره دون أن يلاحظنا.

كان رأسي وأعلاي مبتلًّا. رفعت قليلًا ذيل عباءتي المبللة وسرت نحو الشاطئ.

بقيت بدرية منتصبة حيث كانت.

قال محمد: «إذًا ستسمحن لي أيتها الهوانم». كان يفرغ الحمولة المربوطة على ظهر حماره بينما يقول هذا، فعل ذلك بسرعة لدرجة أن فم بدرية ظل فاغرًا أكثر حين بسط لنا على المائدة ما في داخل أجولة الزاد التي أنزلها بسرعة. ظهره الآن مدار لي، شاهدته، منكباه واسعان، قوامه متناسق. خطر ببالي من يدري رجل من هو أو زوج من أو خطيب من؟ أفسينظر لي أنا؟ فلينظر الآن لو أراد؛ لم يعد ظهره مدارًا. من يدري كم أنا قبيحة داخل العباءة الأشبه بالجوال.

«أترون ذاك الكوخ العائم؟».

ألديك علم ببروقة الموت التي مثلناها قبل قليل؟

«أعيش داخل ذلك الكوخ، فأنا صياد سمك. لو في نيتكما

الاستحمام في البحر بعيدًا عن الأعين فيمكنكما السير والعبور إلى الطرف الآخر للسان».

«لتأت أنت أيضًا وتختلس النظر؛ أليس كذلك؟».

كم أنت ماكرة يا بدرية..

«استغفر الله. لا أنظر للمحارم، ولا أقترب من المحرمات، وحتى إن أردتن يمكنني حمايتكن كالكلب الحارس».

«لا نريد!».

غرقت خطة بدرية الغادرة في المياه.

سرنا نحو الممر الصاعد من الشاطئ للأعلى، وكانت وقاحة بدرية تتزايد كلما تذمرت حتى تكون أكثر إقناعًا بمكانتها:

«لا يوجد أمان ولا راحة حتى في الجزيرة الفسيحة. قلنا سنستمتع كهانمين بالبحر، وانظر لما حل بنا. كل الدنيا للرجال».

«الحق معكما. أصبحت كما لو أني اعتديت على حريتكما. تفضلا ليكن الشاطئ والبحر أيضًا لكما! وأنا سأذهب في وقت آخر إلى كوخي».

أفرغ محمد المياه من القارب الذي لو لمستوه سيتبعثر، فكرت في القارب كيف كان وكيف رأيته حديثًا. أسهل هذا؟! كنت أمد رقبتي بصمت قبل قليل لجلادتي. أغمضت عيني على هذه الفكرة فقط.

وفي اللحظة الأخيرة قبل أن تنزل على رأسي الضربة التي ستقتلني تمنيت كوخه العائم المعزول وسط البحر وأن أكون وردة، طائرًا، موجة في البحر، ابتسامة. بعدها بقليل أصبح كل شيء كنت أقول إنه بعيد عني لي للأبد.

كنت أنا القلقة هذه المرة.

فلو بقينا بمفردنا على الشاطئ لاستأنفت بدرية عملها غير المكتمل بشجاعة غشيمة.

«لم نكن نستحم في البحر أو ما شابه؛ على العكس كنا نتناقش».

لو رأيتم خروج بدرية من المياه.. لفهمتم أنها لن تحاول قتلي مرة أخرى؛ مع هذا لم يكن القادم جميلًا. خرج السهم من القوس لمرة، وانفضح الشر.

بدأت مع دفعة بدرية -قائلة «سيري!»- صعود الممر في قلق، وتابعنا محمد واقفًا على الشاطئ كأنما كان يريد التأكد من ذهابنا. ألقيت نظرة خاطفة للوراء من فوق كتفي، كان محمد يقف كما لو كان مدفونًا في الزرقة الغامقة، الاثنان الأحب إلى قلبي: البحر المتوهج ببريق فضي تحت الشمس، والرجل الذي وقعت في حبه من النظرة الأولى.

«خالتي! نسيت حذاءك». قالت بدرية «حذائي في قدمي، يقول لك».

كنت أعرف بالطبع أنه كان يقول لي. خُسفت بي الأرض.

هممت بالقول: «الخالة هي أمك!» لكني صمت.

ثمة مجاملات ظاهرية لهؤلاء الفتيات، مثل الأوراق المغلفة للأشياء عديمة القيمة؛ كتبت السيدة المعلمة التي أتت إلى المنزل هذه الأشياء عنا. وعندما دخلت المرحاض تم الإمساك بها، كانت والدتي منتبهة، أمرت بفتح حقيبة السيدة المعلمة، ووجدت خطاب التوصية الذي ستقدمه للمعلم الآخر الذي سوف يحضر دروسنا بعد ذلك، وجعلتهم يقرؤونها علينا، وعندما خرجت السيدة المعلمة من المرحاض؛ لوحت والدتي بالرسالة في يدها التي مسكتها مثل حمامة مخنوقة:

«من هم غير المهذبين أصحاب المجاملات الظاهرية أيتها المعلمة، أهو نحن؟».

تخضبت المعلمة هانم بالحمرة مثل الفراولة.

«سأريكِ كيف توسخين الوعاء الذي تأكلين منه الخبز! سترين هل لطفنا مثل ورقة شجر أم قضيب؟».

طردت السيدة المعلمة التي قالت إننا غير لطفاء، ثم قدمت لنا النصيحة التالية:

«لتدور ألسنتكن بالسيئ بينكم في المنزل؛ لكن في الخارج إياكن! لأنني أريد أن أزوجكن لباشوات».

على الرغم من أن الذي أمامي لم يكن يشبه الباشا؛ لكنه لم يكن شخصًا وقحًا، راق ظني خالة لبدرية، استدرت ونظرت عابسة. نكست هي الأخرى رأسها كأنها تذكرت كونها جارية، وكأنها ليست نفسها من أرادت قتلي قبل قليل. متلونة!

«أليس الحذاء الذي تمسكه في يدك أنيقًا وجميلًا جدًّا بقدر ألا يكون لقدمي خالة؟ يا كالح الوجه! يا غبي!». لو كانت فاطمة لزمجرت هكذا. بينما كانت والدتي توبخ المعلمة؛ كانت فاطمة تقوم بتلك الإشارة اليدوية غير المناسبة قابضة يدها وطارقة بها راحة يدها الأخرى. رغبت فاطمة في أن أتذكرها.

ظل محمد يمسك حذائي.

عندما مشيت لأخذه، اقتربت منه. لنقل إنك لم تفهم من الحذاء الذي تمسكه في يدك.. يعرف الرجل إن كان يرى أمامه خالة عندما ينظر إلي؟! ربما كان على حق من يدري: كنت خالة محشوة في جوال! الطفل القابع في بطني الذي لا أريده؛ وصمة عار لعائلتي، وفضيحة لها، ومنفيها، وضحيتها! لقد أرادوا فقط قتلي. لم يكن هذا الحجر في يد بدرية فقط. كانت والدتي وفاطمة وهجران وتلك العمة الماكرة الخبيثة تدعم أيضًا عاملتنا كالفا المسكينة، وحتى المجتمع الضخم. الرجال الذين يتحولون إلى عفاريت ويحبسون النساء في أقفاص! كان هذا الحجر الذي أراد أن يسحق رأسي في

أيديهم جميعًا! على الرغم من كل شيء كنت أجد دائمًا المواساة في تلك الحياة، حتى لو أن الأعباء التي على كتفي تدفعني للانهيار.

كان محمد رجلًا نبيلًا. مد الحذاء، وقال بينما يمده: «عذرًا! أدركت أنك شابة عندما رأيت عينيك. سامحيني!».

قلت لنفسي: «هو أيضًا سيحبني»؛ لأن الحب، والعشق، والغرام، مثل وميض البرق. يحدث فجأة.

وبالنسبة لمحمد فقد كانت ابتسامتي في تلك اللحظة مثل بريق وامض على البحر. ميز فمي المرسوم من وراء بيشتي السميكة حتى.

قلت لأشجع نفسي: «إنه يحبني أيضًا»، ومع أنه مد حذائي فقط، وليس قلبه؛ إلا أنني شعرت بما سيحدث بيننا، فمددت يدي الاثنتين وأخذت حذائي من يده كأنما يمد لي أكثر شيء قيمة. لم أفرط ولو للحظة بلبس حذائي الذي لامسته يداه والخطو به على الأرض. تركت رجاءه «سامحيني!» دون إجابة فأومأت برأسي وابتعدت بصمت. لم يلاحظ حملي. هو أيضًا كان موجودًا مثل شيء محشور داخل الجوال الذي أرتديه فوقي.

يمكنني القول إني ربحت حريتي بامتحاني بالموت، أو أني ولدت من جديد في اليوم الأجمل ذاك من العام 1876. فتحت حصن الجرأة والشجاعة بالخوف، وأهم من هذا كله أنني وقعت في الحب! اقتربت من رجل ونظرت له بدافع الحب وليس الفضول.

كان العثور على الحب بالنسبة لي أكثر أهمية من إنقاذ روحي. ربما سأرى محمد مرة أخرى، وربما لن أستطيع رؤيته، صدقني ليس لهذا أي أهمية، المهم هو ما شعرت به في تلك اللحظة.

9

«والموت قريب.. بماذا فكرت؟».

أيمكن السؤال عن هذا بحق الله؟ أتت بدرية إلى جواري وبيدها صينية الطعام، كان عقلي في مكان آخر، وضعت حذائي المبلل من البحر أمام النافذة حتى يجف، وظللت أنظر له كأني أنظر إلى محمد. فرغم أنه لم تكن لدي الشجاعة حتى أنظر إلى محمد جيدًا؛ إلا أنني ألقيت نظرة خاطفة. كنت أنظر الآن؛ أنظر إلى محمد في خيالي. أنظر إلى حذائي الذي مده بيديه إلي وعيناه مثبتتان علي.

كان علي ألا أجعل بدرية تشعر بأي شيء؛ لهذا كان يجب الإجابة عن سؤالها على الفور.

«فكرت أني أنظر إلى البحر، وإلى السماء لآخر مرة، وعندما أموت لن يوجد بحر أيضًا؛ على الأقل بالنسبة لي».

لم تهتم بدرية بالإجابة عن سؤالها حتى.

«ياله من رجل عجيب؛ أليس كذلك؟ من يعيش في الكوخ العائم؟ من ظن أنكِ خالة».

قلت: «لكنه اعتذر عن ذلك». ندمت على قولي ذلك في لحظتها.

«عرفتِ كيف تظهرين نفسك على الفور، عينك على حبيب. كانوا سيزوجونك من الباشا ذاك طريح الفراش».

«إن كنت ترغبين فيه إلى ذلك الحد ليتك تزوجتِه أنتِ!».

«لو أني استطعت قتلك؛ كان سيطلق سراحي في المقابل، وأتزوج بعد ذلك بمن يشتهيه قلبي».

«لقد نطقت بهذا في وقته. أصحيح ما قلتِه؟ هل وعدوك بالحرية مقابل قتلي؟ أم أن قتلي شيء خطر على عقلك في لحظتها؟».

لم تجب بدرية، استدارت ومشت نحو الباب، فقفزت ممسكة بالصينية وألقيتها وراءها. فأنا لست مسالمة مثل هجران؛ بل حادة، مشاكسة.

«لا يمكنك إغلاق هذه الغرفة علي من الآن فصاعدًا!».

اندهشت بدرية.

كانوا يقولون عني «طبيعة هذه الفتاة أشبه بمرآة البندقية ذات الوجهين». لا يتوافق لي قول مع الآخر، وأفعالي إما تكون أقل أو أكثر. أظل صامتة لمدة طويلة، ثم لا ألبث أن أنفجر بغتة؛ كأنما ألقي كل شيء بداخلي، وعندما لا يتبقى مكان حتى لدبوس أنفجر، تبعثر الطعام الموجود على الصينية التي رميتها وعلق بالحائط المقابل. وبقيت بعض شرائح الخيار على كتف بدرية مثل فضلات الطيور.

تمردت!

تمردت وقاومت بشعور انتابني بكلمة واحدة كنت سأسمعها من محمد بعد أشهر: لا يجب أن تشتكي عند الانسحاق تحت قدم شخص يعاملك كحشرة. لم يكن كافيًا! كان محمد أيضًا على الجزيرة لأنه تمرد وقاوم مثلي؛ لكنه كان رجلًا. عمله أسهل من المرأة دائمًا.

أما أنا.. فشابة عاجزة في بطنها طفل غير شرعي؛ إما أن أُزوج قسرًا أو أُقتل أو أصبح ميتة على قيد الحياة، كلهم يقودون إلى نفس الباب؛ لكن العتبة التي كان علي عبورها في تلك اللحظة كانت المقاومة، والتمرد.

«أذهب وأشكوكِ للشرطة! أقول: أرادت قتلي».

«ألن يسألوك لماذا؟».

ليس من الصعب سرد بقية القصة: يدفع والدي رشوة، ويأخذني من يد الشرطة ويؤجر شخصًا لقتلي.

«أيجب عليك قتلي يا بدرية؟».

«هل فكرت يومًا كيف ستستمر حياتك من الآن فصاعدًا؟».

قلتُ «كثيرًا! فكرت كثيرًا».

تفاجأت بدرية من طبيعتي الباردة.

«ستتحقق كل الشرور التي تخيلتها لي، لا مفر من هذا. هذه التجارب سيصبح كل منها شقًّا في حياتي؛ أعلم، لا مفر من هذا».

«إذًا لماذا تصعبين الأمور؟».

«دعيني أعيش حياتي قبل الأيام القاتمة التي تدنو كالعاصفة!».

نظرت بدرية إلى وجهي كأنما تنتظر اتفاقًا واضحًا.

«لا تحبسيني بعد الآن، اتركي باب قفصي مفتوحًا! لن يعرف أحد بحملي؛ لا تقلقي! اسمحي لي بالتجول في الأماكن الخاوية الهادئة. أيًّا كان ما سيحدث سيحدث بعد الولادة على أي حال».

«بغض النظر عما يقوله أي شخص أنا أحبك يا سيدتي الصغيرة؛ تعرفين ذلك؟!».

«أحقًّا هذا؟ أي إنكِ أردت قتلي لأنك تحبينني!».

«نعم!».

كانت بدرية على حق، كانت تحبني؛ بطريقتها الخاصة. تابعت حديثها هامسة: «ستنجين أنتِ وسينجو من في بطنك!».

لا أستطيع ألا أعطيها الحق.

قالت وهي تغادر الغرفة: «كما يحلو لك!».

«من الآن فصاعدًا، لن أبقيك تحت الحبس، تجولي كما شئتِ!

ولو استطعت الإمساك بحبلك مثلما تتحكم الرياح بطائرة ورقية حرة، فطيري واذهبي؛ لكن تذكري يا سيدتي الصغيرة ألا أنتِ ولا أنا تنتظرنا نهاية سعيدة. ستغضب والدتك مني بشدة لعدم استطاعتي إحكام الخناق عليكِ».

«ستغضب أكثر لأنكِ لم تستطيعي قتلي».

«لقد كذبت عليك، لم يطلب أحدٌ مني قتلك، كنت سأفعل هذا لإنقاذك أنتِ ومن في بطنك؛ لكن الصياد الآتي مع حماره منع ذلك».

الصياد الآتي مع حماره. أهذا ما حدث حقًّا؟

كنت أفكر في محمد بينما كانت بدرية تمسح الأرضية والجدار اللذين اتسخا بالطعام بدلو من الماء، ها هو قلب الفتاة الشابة يحلق من كارثة نحو أمل الحب، ماذا أنتم فاعلون؟

أخذت بدرية تتحدث بينما كانت تقوم بعملها: «ستلاحظ والدتك هذه البقعة في لحظتها، وستسأل على الفور. ليتكِ لم تتسرعي وتلقي بصينية الطعام».

انظروا إلى ما تقوله كما لو أنها لم تكن الشخص الذي أراد تحطيم رأسي بحجر! استغربت كثيرًا ما قالته في الواقع، وفكرت كم أنها تخاف من أمي، فابتسمت دون إرادتي: «لا تهتمي بأمي يا بدرية! يكفي أن نقضي وقتنا القصير هنا براحة؛ لأنه لا يمكن استعادة شيء في هذه الحياة إلا الذكريات».

10

رأيت محمدًا في حلمي في تلك الليلة. كنا على الشاطئ حيث رأيته ووقعت في حبه، وكان بجوارنا الحمار. كنت متحمسة لوجودي بمفردي معه. أطلقت على الحمار اسمًا في حلمي؛ سميته باسم والدي، وعندما كنت أدعوه به كان ينهق باستمرار.

قال محمد: «له اسم آخر».

والحال أنه قد سمى الحمار باسم أحد الباشوات البارزين في الجزيرة أخذ منحدر الجزيرة هذا من يوناني غصبًا كرشوة، ثم نقله إلى أولاده حتى لا ينكشف أمره.

كنت غاضبة من نفسي عندما استيقظت إذ «لماذا رأيت في حلم كهذا؛ محمد؟!» ومن أين أتت تسمية الحمار في الحلم بينما تلاقيت مع محمد وجهًا لوجه؟! ويكأن الأحلام شيء بيدنا. الحياة مثل الحلم في الأساس؛ أتعلم؟ ليس بيدنا شيء. سيحدث ما سيحدث.

استلقيت على الفراش بلا حراك لفترة من الوقت، لم يكن على نافذة برج القصر ستارة ولا تُل، وكان ضوء النجوم والقمر يملأ الغرفة؛ حيث أحضر النجار غير الكفؤ الستائر المعدنية ولم يعلقها، كان القمر أمامي مباشرة، وخطر ببالي إن كان محمد يتطلع إلى

السماء، فهو يرى نفس الشيء معي، إسطنبول مظلمة، والجزيرة أكثر ظلمة؛ فكرت أنه لهذا السبب لا يمكن لأحد رسم الليل. تحرك الطفل في بطني ولم يجعلني أنسى نفسي؛ وإلا فإنني كنت لا أعده موجودًا، فكرت قليلًا في الحلم.

ضحكت قائلة: «ليته لم يكن هناك حمار في الحلم!»، ضحكت أكثر لتسميتي الحمار باسم والدي.

اعتدلت، كانت المرتبة القطنية متموجة وقد اتخذت شكل جسدي مثل الأرض، نظرت إليها لمدة قصيرة. بطأني تجعد الشرشف الكتاني الأبيض، ووجود الطفل ببطني؛ لا عجب أن محمد حسبني خالة، هل بدا خصري سميكًا مثل جذع شجرة تحت عباءتي؟! لم تكن هناك مرآة في القصر، حاولت في طريق العودة رؤية نفسي في زجاج النوافذ، كنت أنظر إلى انعكاسي وأتساءل كيف رآني محمد يا تُرى؟

كانت حديقة القصر التي لم يتم تجهيزها بعد؛ تقع على رأس المنحدر القريب من البحر، وكانت والدتي ستبدأ بتجهيزها بقطع الأشجار، كانت تردد أن الأشجار تذكرها بالناس، وأرادت هذه الحديقة دون أشجار، كانت تحلم بها، فتدخل تحت ذراع والدي وتحتضنها بشدة، وتقول «تلف ظلالها البيت ليلًا، فنخاف». قال أبي: «افعلي ما يحلو لك!»، كأنما يعيش في دنيا أخرى غيرنا، عجبًا! كيف كان يبدو العالم في نظر والدي؟ كيف كانت الحياة تسير؟ كان هناك منحدر إلى الشاطئ من نهاية الحديقة التي ستصبح

جرداء بقطع الأشجار، ستشيد والدتي مرفأ للقوارب هناك، كانت تتوق بشدة للتجول مع عدم وضع قدمها على الأرض، إذا كان على البحر؛ فقارب، وإن كانت على البر فعربة يجرها حصان واحد، أنا أيضًا أحببت لهونا على شاطئ البحر؛ لا سيما عندما نخرج في ليالي البدر، كان لدى السفير الإيطالي قارب، ثم الباشا خطيب هجران، كان الباشا أكبر منها في السن؛ لكنه كان وسيمًا للغاية، ماتت زوجته، لم يكن سيتزوج بأخرى بعد أن يتزوج هجران، كان يقطن في كانديلي، وكان هناك زوجان من الفلامنجو في حديقته، وبما أنه هو من أعطى أحدهما للسفير الإيطالي، كانت والدتي تقول: «ربما سيعطيها لي أيضًا»، حتى إن وجهها احمر عندما طلبت هذا من صهرها الباشا الأكبر منها سنًّا وأجابها: «هذا صعب!»، فقد رأى بائع الطيور الذي أحضرهم في الحلم، وتراجع الآن عن بيعهم، لم تستطع والدتي المتفائلة لما لا نهاية الحفاظ على ثباتها هذه المرة بشكل مذهل، ولم يعزِّها أن ابنتها سترى الفلامنجو في حديقة قصرها، وأصيبت بالحزام الناري جراء حزنها، وبينما كانت والدتي المسكينة مستلقية على فراش المرض، لِم لم يقل أخي مثل أحمق «ليت السفيرة الإيطالية وهي عائدة لدولتها تركت لكِ الفلامنجو مثل الببغاء يولوق!»، حقًّا لماذا لم تتركه؟

على أي حال.

كانوا يخرجون للسياحة في قوارب منفصلة لمنع الكلام، كان قارب الباشا أكثر فخامة وجمالًا، وكان لديه دستة مجدفين، أوه؛

كم كانوا يمضون بسرعة شاقين مياه البوسفور العميقة، حدث ذات مرة هرج بسيط فوضعوني في قارب منفصل عن قاربنا، كان الباشا مريضًا تلك الليلة؛ هكذا قالوا؛ لكن ماذا رأيت؟ ألم يكن الباشا يجلس أمامي مباشرة في القارب الذي أركبوني فيه هيلا بيلا؟ كان يدخن النرجيلة التي كانت مائلة في قمرة قاربه المفروشة بالسجاد والمغطاة بالستائر. سحب خرطوم النرجيلة من فمه المغطى بشاربه وقال لي «اخرسي!» ضاغطًا بأصابعه الممتلئة على شفتيه، ثم أشار إليّ لاويًا نفس الإصبع أن «تعالي!». جذبني إليه كأنه يسحب صنارة معلقًا في طرفها طعم. مررنا بجانب القارب الموجود فيه أمي وفاطمة وهجران وبدرية كالفا والذي انزلق فوق المياه ومضى كأنما يرتفع نحو السماء ويذهب نحو القمر، حتى إنني سمعت أمى تقول: «سيعزف عازفو الساز ويغنون في قارب الباشا، يتواجد الأمراء والنبلاء». وسمعت أيضًا فاطمة تتساءل: «ما خطب الباشا؟» ورد هجران بتنهيدة: «ارتفعت حرارته»، وضحكتهن جميعًا عندما تجرأت بدرية وقالت «احترق بنارك» كن في مزاج جيد، حتى أنهن لم يتساءلن أين كنت؟ أي قارب ركبته بالخطأ؟ هل سقطت في الماء وغرقت في أعماقه خلال هذا الهرج أثناء ركوبي؟

فوجئت بالطبع من دعوة الباشا لي نحو زاوية قاربه: «هل حسبوكِ خطيبتي واستضافوكِ في قاربي؟»، «اقترب من القارب الآخر لأعبر إليه، ولتأت هجران إلى جواركم إن سمحت أمي».

تصبح الفتيات اللائي لا يحبهن آباؤهن فريسة للرجال. في تلك الليلة، خدعني الباشا؛ لكنني أريد أن يعرف كل المعتدين والرجال هذا: لا تعتبروا ما لم يمكنكم الاعتراض عليه شيئًا مقبولًا.

قال لي: «سأتزوجك بدلًا من هجران»، ومن يريد الزواج به؟! مع هذا وضع يده على ركبتي، ومد خرطوم النرجيلة، بعد رشفة واحدة سقط رأسي على كتفه مثل الحمامة. لقد أدرك أني مُبعدة ومذلولة على الدوام، وأني بحاجة لأكون محبوبة. أحبني بطريقته الخاصة، ثم جعلهم يوصِلوني إلى الشاطئ على التو: «هيا! لقد أتيت وركبت قاربي خطأ، أكان عليك إغوائي؟».

لم أستطع أن أعرف من المذنب، ومن البريء! تشوش عقلي، لم أستطع منع الباشا من تقبيلي ولمسي؛ لكنني لست من أغواه؛ إلا أنني في تلك اللحظة اعتقدت أنني المذنبة والخاطئة.

سألت والدتي عمن كان في قارب الباشا الذي استقللته بالخطأ:

«أرأيت الأمير، والنبلاء، ومن يدري، ربما الوالدة سلطان أيضًا؟».

«لقد أجلسوني مع العازفين، انتفخ رأسي!» قلتها وذهبت إلى غرفتي.

انتشرت البقع الحمراء على جسدي، شعرت بالخجل.

لم ينظر الباشا إلي وجهي بعد ذلك؛ غير أنه أرسل ما طلبته منه، أهدى أمي زوج الفلامنجو، كانت والدتي سعيدة بقدر ما لم

تكن عليه في حياتها، لكنها كانت مستاءة أكثر مني بسبب تجاهل صهري المستقبلي لي أنا أخت زوجته:

«أنت أذكى من أختيكِ الكبيرتين، أظهري نفسك! أليس لديك قضايا فكرية تتناقشين فيها مثل الرجال... تحدثي عن هذه المواضيع مع صهرك الباشا!».

أغمي علي بينما كنت أنظر إلى وجه أمي.

القيء، والدوخة، وفقدان الوزن أولاً، ثم تورم اليدين والقدمين وتوقف الحيض، كانت فاطمة أول من شكت أنني لا أمس فوط الحيض الصحية، دخلت حجرتي ذات ليلة من الليالي وأوصدت الباب وعرتني ممزقة ملابسي، ظهر بطني.

قالت: «أنت حامل!».

ثم انعقد لسانها.

لم ترغب أمي في رؤيتي بهذه الحال، لذا اصطحبتني إلى القابلة، قامت القابلة بفحصي في حجرة صغيرة في منزلها البارد القذر في بيري باشا التي لم نر أحدًا في شوارعها سوى عدد قليل من الشيوخ المتسولين والكلاب، كنت مستلقية على ظهري وساقاي متباعدتان، داهمني شعور غريب في تلك اللحظة، ارتفع جذع شجرة غار سميك أملس أمام النافذة، وكان هناك يمام يصدح أمام النوافذ ذات القضبان، كأن العيون الفضولية التي تعرف عن فحص القابلة للنساء قد احتشدت وراء القضبان التي تغطي النافذة، أو

أن من تتحرك هي أجساد الخنافس الرطبة ذات القشرة السميكة، شعرت أن حياتي ستتغير تمامًا، زفرت القابلة وهي ترفع يديها الكبيرتين عني، فجففت يديها وغادرت الغرفة، ثم سمعت شيئًا يتهاوى ويسقط في الداخل؛ كانت أمي، أغمى عليها.

هكذا اندلع الضجيج.

كان باشا مستمرًّا في تجهيزات الزواج من هجران من ناحية، ومن ناحية أخرى كان يراقبني، كان كل منا يقوم بدوره بشكل جيد، كنت مغرمة بالمسرح والسيرك على أي حال، وكانوا يقولون «تعيش فنانة داخل هذه الفتاة»، محكوم عليها بالموت مع كل أحلام النساء؛ كنت أعلم هذا، وأعيش وفقًا له، كان الرجال قادرين على أن يكونوا كل شيء. كنت أغني في أحلامي وأرسم وأتحدث في مواجهة الجمع دون بيشة وأكتب وأقرأ كتاباتي. كنت أسافر مثل الرجال، وأذهب إلى المدرسة وأتعلم الجغرافيا. كنت سأدفن مع أحلامي مثل كل امرأة.

في يوم من الأيام طلبت مني أمي إحضار قهوة لصهري الباشا. «لتتحدثا سويًّا!»

هدأت بدرية كالفا أمي بقولها: «أخت الزوجة أحلى من العسل يا سيدتي الهانم، لا تقلقي!»، وكانت ابتسامتها ملء شدقيها عندما أحضر لها الباشا راحة الحلقوم.

لم يشك أحد.

أصبح بالإمكان إقامة هجران لزواجها السعيد.

فمن سيعرف؟

من سيجد دفاتري تلك التي سكبت فيها ما بأعماقي وسجلته دون توقف، من سيراها؛ أليس ذلك؟!

11

جافاني النوم في عتمة الليل بينما كنت أفكر، كان هناك شيء أخير عالق داخل حلقة نارية في ذهني: عرضت والدتي الفلامنجو الذي في حديقتها على الناس لمدة أربعين يومًا وليلة، ولم يفهم أحد أي شيء، وفي النهاية كشفت عمتي ما كان الجميع يتغاضى عنه بتعبير ساخر، كانت هي آخر من رأى الفلامنجو بعد عودتها من رحلة حج طويلة:

«أين هي طيور الجنة العجيبة طويلة الساق والعنق ذات الريش الوردي؟!» قالت والدتي «ڤويلا[1]!». التقطت بيدها مروحة ذات ريش مثل الفرنسيات، بدت المروحة وكأنها جزء من ذراعها، فتحت ذراعها كالستار، وأشارت لأخت زوجها الهانم القديمة على طيورها التي تشعرها بالفخر: «ها هي! هناك!».

نظرت العمة طويلًا:

«إنها أبو منجل الوردي! تقيم في بحيرات المياه العذبة عندنا في بورصة، لكن عاقبة الإمساك بهم وخيمة».

1- أداة تعجب فرنسية: ها هي!

تدلت شفة أمي السفلية بخيبة أمل، وأدركت، حقيقة مهمة في تلك اللحظة، وأضاء عقلها كالنهار:

«أي إنه لهذا السبب لم يجلب مربي طيور السرايا من هذه الطيور لسيدي السلطان، ولم يوجد منها في مكان الطيور في السرايا؛ لهذا كانت هذه هي الطيور الوحيدة التي لم أرها أو أعرف عنها. الفلامنجو».

أحيانًا لا نعرف أن الجميع يعلم، كل العالم يعرف، ونحن فقط لا نعرف، ما تلبث صناديقنا النادرة أن تتحول إلى أشياء عادية، يجب على المرء أن يعرف من صميم قلبه ما سيرتبط به، فقدت والدتي فجأة الشغف بطيور الفلامنجو، والغريب أن الطائرين الصغيرين المسكينين لم يكونا يستطيعان مغادرة الحديقة وإيجاد الماء والطعام، كان المطلوب الآن طرد الفلامنجو التي كانت تُنقل أحيانًا إلى البيت في الأجواء العاصفة والممطرة والباردة، كانت ثمة كراهية في نظرة أمي إليهما، في الأيام التي كانت فيها هذه الطيور ثمينة؛ اعتادت هذه الطيور النادرة التي كان يتم الاعتناء بها على أخذها من الحديقة للبيت عندما كان تهب رياح لودوس[1] ويعصف الجو، وفي تلك الليلة عندما اكتشفوا أني حامل وأوسعت ضربًا، وبينما كنت أبكي من الألم مكورة فوق سجادة الجارية (التي كانت ملك يمين السلطان عبد العزيز)، كانا يحاولان الصيد

1-هي رياح تهب على ساحل بحر إيجه ومرمرة وشرق البحر المتوسط جنوب غرب تركيا على مدار السنة.

بعجز ظانين تصاميم السجادة التي انحنت عليها رقبتاهما طحالب وأسماكًا وحشرات، وكان قِطّنا مستان يظل متوترًا ومختبئًا في زاوية بسبب ضيفينا الجديدين اللذين لم يرهما.

ليت الماضي، والمستقبل؛ باختصار الحياة، وما نعيشه، وحياتنا مثل دفتر، ليتنا نستطيع التقليب إلى صفحة بيضاء لم يكتب فيها والاستمرار في طريقنا كأن شيئًا لم يحدث ولم نعشه مطلقًا، أو ليت بإمكاننا تمزيق الصفحات المخطوطة وحرقها ومحوها والحصول على السعادة بفتح صفحة جديدة في المغامرة التي تدعى الحياة.

تطلعت بهذا الحلم إلى حذائي الذي جففته شمس النهار وتناثر عليه الآن ضوء القمر، ثم أمسكت به، أمسكت به كأنما أمسك بيد محمد وداعبته، حتى إنني تدليت بيأس من نافذة برج القصر لأرى هل يمكنني رؤية الكوخ الذي يعيش فيه، سمعت نهيق الحمار الذي ربطه على الشاطئ، فابتسمت. ما أدراكِ أن الحمار الناهق هو نفس الحمار؟! بيد أني كنت آمل أن يكون هو، قلت ما عشته اليوم ليس حلمًا إن شاء الله، كنت بحاجة إلى مواساة نفسي، وظهر هذا الحل أمامي كالمعجزة.

ما إن أذن الفجر حتى ألقيت بنفسي للخارج، انبلج الصباح ببطء، كما لو كان غطاء حريريًّا ينزلق ويسقط عن العالم، ثم ظهر كل شيء بوضوح مرة أخرى؛ غير أن ما يميز ضوء الصباح كونه الوقت الأكثر اعتدالًا وهدوءًا وبراءة في العالم.

اعتقدت أن الباب سيغلق لكن هذا لم يحدث؛ مما يعني أن تهديداتي نجحت، كنت ذاهبةً إلى الشاطئ، المكان الذي قابلت فيه محمد.

12

كان هناك شيء لم أتوقعه أبدًا على رأس الطريق الهابط إلى الشاطئ؛ جرو منهك يرقد ملتويًا في فم الطريق، وهو يئن، بدا شكله غريبًا وكأنه من جلد وعظم، كان جائعًا، مريضًا، مضروبًا من قبل كلاب أخرى، من يدري ماذا حدث له؟ كان يتطلع بعينين زائغتين منطفئتين كأنه يقول «ساعديني!»، تمزق قلبي، وحزنت بشدة، واندهشت جدًّا في الوقت ذاته، لم أر قط كلبًا بهذه الحالة؛ لأن الجميع يحب الكلاب، إسطنبول مكان تكثر فيه الكلاب، وتشكل الكلاب المجتمع الثاني للمدينة والجزيرة، هذا لأنه تتم حمايتهم والاعتناء بهم.

عندما رحلهم السلطان عبد العزيز إلى الجزيرة اليابسة، تذمرت المدينة بأكملها وعندما عادت الكلاب كان عيدًا، كنت في السادسة من عمري حينها، وكانت هجران في السابعة، وصل صوت عواء الكلاب التي تم نقلها إلى جزيرة هايرسيز[1] حتى إسطنبول، كنا نبلل أسفلنا ليلًا من الخوف، ما أريد قوله إنه بينما الكلاب وصلت لدرجة أنها تصبح رفيقة طريق؛ يثير فضولي ما أوصل هذا الجرو لهذه الحالة؟ كان شيئًا مدهشًا حقًّا، كانت أمي تقول

1- تعرف بجزيرة (سيفري) أيضًا: وهي أحد جزر الأمراء القريبة من إسطنبول في بحر مرمرة.

«إذا تعرضت الكلاب للأذى في مجتمع؛ فاعلمي أن هذا المجتمع خرج عن طوره!» هبطت إلى الشاطئ محتضنة الكلب، لمحت وعاء صفيحيًّا مختبئًا بين الأشجار القصيرة يشرب منه حمار محمد الماء العذب، فجذبته وأخرجته وبدأت أسقي الكلب وبمجرد أن رآنا الحمار المربوط في الجانب حتى بدأ ينهق.

نهرته: «اصمت!» باسم أبي الذي أطلقته عليه في حلمي، ثم ابتسمت؛ لأن الحلم خطر على ذهني ولأنه عندما دعوته بالاسم الذي أعطيته له بدأ الحمار في النهيق أكثر. كان يقف في الركن أسفل الكوخ العائم المرتفع فوق أربعة أعمدة وسط البحر، سمعت صرير باب خشبي ينفتح، ثم ينغلق. وتناهى إلى مسامعي صوت تلاطم خفيف في المياه. ثم رأيت القارب الذي أتى شاقًّا الشفق ومحمد؛ أتى قابضًا على المجدافين. أتى لإنقاذي وليكن مرهمًا لجراحي، كانت ذراعاه الممسكتان بالمجدافين تلمعان مثل قطعة رخام تحت أشعة الشمس التي ترتفع ببطء؛ وكان البحر ساكنًا، كان له لون أزرق هادئ لم أره من قبل، وكأنه ليس مياهًا وإنما ذراعان رحيمان تضمنا وتدفئنا، قلت لا بد أن السعادة شيء كهذا: رذاذ لسان الكلب الذي استرد روحه بشربة مياه، صوت تجديف المجاديف في المياه، صوت احتكاك القارب على الحصى واستقراره على الأرض.

أود البقاء في تلك اللحظة على الدوام إن كان باستطاعتي، أود البقاء هناك على هذا النحو، الطفل في بطني، والكلب يشرب المياه

بجواري، ومحمد النعسان الذي يتطلع إلي بفضول، قفز مرة واحدة إلى الشاطئ من قاربه الذي يبدو عتيقًا، قدماه حافيتان، ويرتدي قميصًا بأكمام مقطوعة، تحته سروال قديم، من يعرف ما قصته وكيف كان؟ تساءلت عن ذلك حينها، كان شعره ينساب برفق على جانبي جبهته، عرفني، أنزلت بيشتي وابتسمت له. في وقت لاحق؛ سيصف ابتسامتي هذه بقوله «اعتقدت أن الشمس تشرق مرة أخرى، من جديد».

13

«خيرًا! ما عملك هنا في هذا الوقت من الصباح؟».

«هناك خير في كل عمل، جافاني النوم، فقلت سأمشي، انظر ماذا وجدت على الطريق؟».

لاحظ الكلب في تلك اللحظة، فجثا على ركبتيه جانبه بحنو عجيب، وداعب رأسه الخالي من الشعر، خاف الكلب المنكمش المتكور على نفسه جراء الضرب الذي تلقاه قبل قليل؛ لكن المسكين لم تكن لديه قوة للهرب.

قال له: «لا تخف! لن أؤذيك أبدًا».

استقبلت هذه الكلمات كأنما قيلت لي.

غير أنه باغتني بسؤاله بعد ذلك: «أليس الوقت غير مناسب لسيدة؟».

تمتمت: «لم؟ أشرق اليوم، أنا أخاف من الليل فقط؛ على الرغم من أن الليل يحوي جمالًا أكثر من النهار، النجوم والزهور التي تتفتح في الليل والحيوانات التي تظهر ليلًا... لكنني أخاف من الليل، ربما لأن الليل محرم علينا نحن النساء، لأنه كي تخرج ليلًا

يجب أن تكون رجلًا أو جانًا...».

«اندهشت بشدة في الحقيقة لمصادفتك ليلًا، فبالنسبة لي لا يوجد فرق بين الساعات الأولى من النهار والليل».

«أم أنك تعتقد أن الجن الذي يخرج ليلًا مثل النساء الشمطاوات يظهر الآن عند بزوغ ضوء الصباح ويعيث في الأرض فسادًا؟!»

«لا، لا أؤمن بمثل هذه الخرافات، أنا فقط أعرف من والدتي وأختي أن هناك أوقاتًا موحشة خلال اليوم بالنسبة للنساء؛ هذا كل شيء، لا يمكن للسيدات المحترمات التجول بمفردها في أماكن مقفرة وهادئة في مثل هذه الساعات».

جال بخاطري أنه يهينني، فأحنيت رأسي بضيق. شعر بحزني.

«أنتن النساء لديكن الحق في التجول في الجزيرة مثلنا نحن الرجال؛ هذا صحيح لكن...».

«أنا آتي إلى هنا منذ طفولتي، حتى لو طاردك سوء أو بلية هنا فلن يستطيعوا اللحاق بك، هنا جزيرة، لا أحد يمكنه الهروب لأي مكان».

«أنت على حق».

«أنت لا تبدو كصياد سمك؛ خاصة مع كلامك هذا، ومع الحذلقة التي تشرح بها؛ لا تبدو أبدًا...».

لوى شفته بمعنى: «لا أعرف!»، ثم قدم نفسه كأنما يغير الموضوع، وقال اسمه، كانت أول مرة يذكر اسمه، وكان تعليقي «حتى اسمك لا يبدو مثل اسم صياد!» سببًا في ابتسامته.

«اكتشفت في حلمي أن حمارك له اسم».

«لكنه ليس لديه اسم...».

«لقد منحته اسم أبي» ثم ضحكت كثيرًا على فعلتي هذه.

ضحك هو أيضًا، واتفقنا.

«لم أقم بتسمية الحمار، لكن قاربي له اسم».

«ما هو؟».

«كاليبسو».

«أوه! أليس هذا اسم أحد الفنادق الموجودة في مركز الجزيرة؟ كنا نقيم في الفندق المجاور له مباشرة، تراساتهم مشتركة؛ لكن أمي كانت تريد البقاء في فندق كاليبسو؛ توجد رسمة حورية تجلس مديرة ظهرها لنا على الجدار في مدخل الفندق، أمي تحبها كثيرًا».

«تلك الحورية هي كاليبسو إذًا، تعيش وحدها على جزيرة، اسمها يعني الاختفاء، أحبت أوديسيوس الذي أتى إلى جزيرتها في يوم من الأيام، وعرضت عليه الخلود ليقبل بالبقاء معها».

استمعت لما يرويه كأنها حكاية، كان ممتنًّا من هذا على الأغلب، أما كانت فاطمة تقول على الدوام يحب الرجال النساء اللاتي تنصت لهم:

«لا تمثل كاليبسو النظام الذي يكون فيه الرجل صاحب القوة، وإنما النظام الذي تكون فيه المرأة صاحبة الكلمة».

«أيوجد نظام كهذا؟! أتوجد حياة تحيا فيها النساء كما يردن حقًّا؟!».

سألت محمد بدهشة جعلته يبتسم، كان شعره وعيناه حالكي السواد، ورموشه كثيفة وطويلة، رائحته مثل المريمية، أو مثل الرائحة الجميلة هذه المنبعثة من الأدغال خلفنا. عندما هممت بالوقوف مدّ يده إليّ، ومددت يدي إليه، أمسك بيدي. نظرت في عينيه للحظة، ثم شعرت بالحرج فصرفت نظري. كانت يده دافئة وقوية، ومعلقة بيدي كما لو كان يريد سحبي وإنقاذي، كان قويًّا، ربما كانت قوته كافية لسحبي وإنقاذي من كل أزماتي؛ من يدري.. هكذا خنت مرة أخرى نفسي وأنوثتي والقوة التي منحتها لي؛ على أمل الحصول على مساعدة من رجل.

«دعني آخذ الكلب إلى القصر، سأعتني به جيدًا مع بدرية».

«يمكنني الاعتناء به هنا أيضًا، سآخذه إلى الكوخ، وأنظف جروحه وأطعمه».

حملت الكلب بين ذراعي، فقال محمد: «أعطني إياه!».

كان الصغير المسكين يتأوه بين ذراعي، شعرت بالدفء المنبعث من جسد محمد، واختلطت برائحة المريمية روائح أخرى الآن، رائحة البحر تفوح منه أكثر من السمك، وقليل من التبغ أيضًا، يبدو أنه أيضًا تنسم رائحتي؛ سيعترف مستقبلًا بهذا. كانت تنبعث من جلدي رائحة خفيفة حولي، ومن الحرملة التي أرتديها فوق كتفي، لم أكن ألحظ، لم تشبه الرائحة التي تجلبها الرياح ولا البحر، فعلى الرغم من وجودي بين سيدات تنبعث منهن الروائح العطرة؛ كانت لي رائحتي المميزة.

ذهب إلى القارب وفي حضنه الجرو، انتابني الحزن لوهلة، شعرت كأنهما تركاني وذهبا، بدأ الحمار في النهيق مرة أخرى.

«إنه لا يتوقف عن النهيق هكذا عندما يكون غاضبًا»، قالها محمد وظهره مدار، ثم وضع الكلب في القارب، بلطف وحنان؛ وبرغم ذلك لم يتوقف أنين الحيوان المسكين.

تحركت ذراعاه العاريتان بشكل جميل للغاية، فعلى الرغم من كوني حاملًا، إلا أنني لم أر جسد رجل عاريًا قط، أحزنني هذا، هذا يعني أنني خدعت تمامًا، ويكأن رغباتي الأنثوية؛ جبن في فم غراب، لقد أغرمت برجولة ثعلب ماكر.

بم كنت أفكر وأنا واقفة هناك؟ استمر عقلي في التحليق مثل طير، هكذا الحال على الدوام.

لم آتِ إلى هناك عبثًا، فكما قلت؛ أعرف هذا الممر الهابط إلى

الشاطئ منذ طفولتي، اعتدنا القدوم إلى هنا لنزول البحر مع والدتي وإخوتي، كانت أمي تمنح الرجل الساعي على أعمالنا بقشيشًا لأجل البقاء على التل والمراقبة، وكان لا يسمح بأن تطير ذبابة في الأرجاء، غمرنا الحماس عندما أحضرتنا والدتي إلى البحر هنا لأول مرة قائلة:

«سأقطع ألسنتكن إن أخبرتن شيئًا لوالدكن!».

لم نحضر حتى بدرية لإبقاء الأمر سرًّا بيننا نحن الأربعة، كانت أمي تختلق لها عملًا يبقيها في الفندق أو تُرسلها إلى إسطنبول.

تعرف أمي السباحة.

«كيف تعلمتها؟».

لِم يقع الأمر على عاتق هجران في طرح الأسئلة التي تُحزن أمي؟ يا تُرى من أي أرض ساحلية أتت الطفلة الجميلة التي بيعت في سوق الجواري في سن الخامسة؟ من شاطئ البحر؟ أم من جزيرة؟ امتزجت دموع أمي بالبحر وهي تروي حكايتها هذه؛ لكنني نسيتها؛ لأنني كنت مشغولة بالغوص في المياه الصافية، كنت أصعد على كتفي فاطمة وهجران على كتفي أمي، ونلعب مصارعة الإبل، هذه اللعبة علمتها لنا أمي، لو خسرنا، ستغرقني فاطمة بحرص ثم ستخرجني، كانت تطلق على قبضاتها الطائحة بغضب الخسارة «مشبك الغسيل»، وتدعكني كأنها تدعك غسيلًا.

كانت والدتي تتدخل على الفور، ولكن بعد أن أكون قد ابتلعت

كمية كبيرة من المياه في فترة وجيزة، ولم أعد أستطيع فتح عيني، وبدأت في البكاء، لم نعتُّ أمي بالقسوة؟ ربما لأنها أجبرتني على العيش هنا مع بدرية، وفرقتني عنهن، كنا جميعًا بعيدين عن تلك الأيام الجميلة السعيدة؛ وإلا لما افترقنا عن بعضنا أبدًا، ليتهن لم يطفئنني تلك الليلة التي أردت فيها حرق نفسي، لقد خيبت آمالهن، وقضيت على سعادتنا.

لقد فكرن في الأفضل والأحسن بالنسبة لي، وأرسلنني سرًّا إلى الجزيرة، أنا أسامحهن، لقد فعلن كل ما أعتبره عقابًا، وسوءًا بغضب دون رغبة منهن، بغضب من فقدانهن لي، وبخوفهن من تدميري لحياتهن، بقدر ما تحب العائلة بعضها بعضًا بقدر ما تكره، لأن الحب يحوي الكراهية، حتى إن جوهر الحب هو الكراهية، لكن لا أحد منا يعي هذا، نعتقد أننا نحب كثيرًا، نحب دون قيد أو شرط، لا؛ ليس الأمر كذلك، أكنت سأستسلم لرغباتي قط لو كنت أحب أختَي وأمي كثيرًا؟

انتهى محمد من وضع بطانية تحت الجرو بعناية لإبقائه مرتاحًا في رحلته البحرية القصيرة من الشاطئ إلى الكوخ، ثم قفز الآن في قاربه وابتعد عني؛ مثل والدتي وفاطمة وهجران.

جال ببالي أنه ليس هناك ذكرى ولا عشق ولا حبيب.. هذه كلها فخاخ.

سيقول محمد لاحقًا: «لقد بقيت على الشاطئ عاجزة ويائسة هكذا لدرجة أن تركك هناك بمفردك سيكون مثل ترك الكلب

الجريح الذي أخذته لمساعدته لمصيره».

توقف بينما كان على وشك الإمساك بالمجدافين، وقال: «إذا لم تفهمي الأمر بشكل خاطئ، تعالي أنت أيضًا إلى الكوخ العائم، لدي شاي ساخن».

«ابتسمت لي بدفء مثل الشمس». هكذا سيصف التعبير الذي ظهر على وجهي في تلك اللحظة، ركضت إلى القارب الذي كان ينتظرني على الشاطئ، وبدأ الحمار في النهيق مرة أخرى، كم كان عصبيًّا مثل أبي! ورغم أن طفلي كان ثقيلًا في بطني مثل الحجر؛ إلا أنني شعرت بخفة الفرحة، وقدوم السعادة والحب، وبهذه الخفة صعدت إلى القارب في قفزة واحدة، أمسك محمد بذراعي، ثم بأسفل صدري تمامًا، ثم بخصري على التوالي، تيقنت في تلك اللحظة مرة أخرى بأن ما فعله الباشا كان شيئًا غير لائق، قلت لنفسي «الحب شيء كهذا».

نظرت إلى جانب الكلب، مقابل محمد.

قال محمد: «لنذهب!».

فقلت: «لنذهب!».

تطلعت إلى البحر، والسماء، والجزيرة، والحمار على الشاطئ الذي توقف نهيقه، ثم مرة أخرى إلى الجزيرة التي بدت ملتوية في حضن نوم بريء، شعرت كأنني أبتعد عن ذكرياتي السيئة وعن هجراني وخطاياي، كما لو أن محمد يأخذني إلى عالم آخر، عالم يسود فيه الحب.

14

«لا تبدين كامرأة منحلة».

يعني أنه فكر في كوني كذلك.

مسح جسد الكلب الجريح ونظفه، فاسترخى الحيوان المسكين قليلًا، ثم وضع أمامه قصعة مليئة بفضلات السمك، كان الكلب جائعًا لدرجة أنه أكلها كلها، ومن يدري؛ ربما كان فمه أيضًا مصابًا، فقد أكل ما أمامه ببطء، كان الحيوان عبارة عن كيس من العظم، عظام وركه خارجة، وجسده مليء بالثقوب، وساقه اليسرى مصابة، فلا يستطع الوقوف.

قلت: «ليكن اسمه ليلة!».

كان محمد واقفًا عند رأس موقد الغاز؛ ينظف جروح الكلب ويطعمه.

توقف لوهلة واعتقدت أنه سيسألني بعدها «لماذا؟» فقلت قبل سؤاله: «من يدري كم ليلة انتظر الموت هذا المسكين، كما أنه سيذكرنا بالليلة الفائتة؛ لذا ليكن اسمه ليلة!».

امتزج الشاي بالهواء في هدوء، وكان كل ما في الأرجاء هادئًا ورقيقًا مثله، تفحصت ما حولي بفضول مفكرة إذًا الكوخ العائم

هو مكان كهذا. لا أهمية لأفكاره حولي، ربما اعتقد أني امرأة طائشة لتصرفي براحة هكذا، شعرت بالارتياح لأنه لم يكن لدي ما أخسره، عندما يفقد الإنسان كل شيء يجد سلامًا غريبًا.

صعدنا إلى الكوخ العائم بواسطة السلم الخشبي، وظل القارب مربوطًا تحته، كان باب الكوخ مفتوحًا على مصراعه، ومطلًّا على البحر وليس الجزيرة، أزرق شاسع لا نهاية له؛ رائع الجمال، كان للكوخ العائم خمس نوافذ صغيرة، وسرير ظهره مستند إلى الحائط وكومودينو غير مرتب، ومسامير مثبتة على الجدران الخشبية معلق بها طاقيتان، ومئزر، وأكياس من الشاش، وطاولة صغيرة عليها مقلاة مُسودة، وقِدرة، وصحن، وكوب، وإبريق قاعدته مثبتة بالجص.

أحضر محمد الشاي، شعرت بالكوخ يهتز قليلًا، يمكن رؤية البحر من خلال أغطية الأرضية، وتلاطم المياه وزرقتها.

قال محمد: «تفضلي اجلسي!»، جلست على حافة السرير مضطرةً لعدم وجود مكان آخر للجلوس، وهو كذلك جلس بجواري، كانت هذه المرة الأولى التي أقترب فيها بهذا القدر من رجل بعد الباشا؛ لم أضع في حسباني الرجال الذين يقومون على شؤوننا، والبستاني، والسائق، والحمال، والمراكبي، والتجار الذين نشتري منهم، ذهبنا مرة واحدة لحفلة السفيرة الإيطالية الراقصة، كان الرجال يقفون أمامنا بقليل وكان من دواعي سرورنا النظر إليهم مطولًا، قالت والدتي لوالدي: «إنها حفلة شاي؛ وليست حفلة راقصة، كما أنها

للبنات». لكن أبي استفسر وتحرى وعلم أننا كنا فتيانًا وفتيات فزجرنا ووبخنا بقوله: «كلاب! غير عفيفات!»، لم نتمكن من الخروج من المنزل لأسبوع، انفجرت أمي فينا: «أنا أحاول جاهدة من أجلكن، لكن أنتن! وجدت هجران باشا مُسنًّا بعد عناء، وأنتِ لا تتحرك ورقة من أجلك، ابذلي المزيد من الجهد، قومي بزواج جيد وانقذي نفسك، لا تقعي على عاتقي مثل فاطمة!».

عندما تثور أمي تصبح مثل الشربات، تتحدث وهي تضرب الأرض بقدمها، وتعقد يديها قبضتين صغيرتين.

قال محمد: «شردتِ!».

رددت: «شردت نعم، أنا هكذا أشرد وأذهب».

بدت ابتسامة على وجهي ربما، كانت عيناي على المياه المتلاطمة المرئية من فتحات الأرضية، احتسيت رشفة من شايي، كان الشاي موضوعًا في كأسة بمقبض من الزنك، وسخنت حرارته المقبض.

قلت: «اشتقت كثيرًا لأمي وأختَي! غادرتهن، ويجب علي البقاء بعيدة عنهن».

«لماذا؟».

ما زالت علي ملحفتي، يشمكي على رأسي، حللت فقط بيشتي، وقدمي بلا جورب في حذائي، من يدري كم مرة قلتها، بطني ليس كبيرًا وأنا سعيدة بهذا.

ظل محمد يحدق بنظرات خاوية في بطني الذي بدا أسفل ملحفتي التي انفتحت كموجة منقلبة، لم يستطع أن يدرك ما الذي أردت إظهاره، بدا في حيرة، ربما ظن في تلك اللحظة حقيقة أنني امرأة منحلة، وربما فكر لماذا فعلت هذا.

«سوف أنجب قريبًا جدًّا طفلًا غير شرعي».

قال بدهشة: «حقًّا؟» انتابته خيبة أمل.

«سألده سرًّا في الجزيرة».

«ثم بعد ذلك؟».

«لا أعرف بعد ذلك».

«من الواضح أنه لا يزال هناك متسع من الوقت على الولادة».

«على العكس من ذلك، اقتربت كثيرًا؛ لكن بطني غير ظاهر تمامًا، كأن الموجود فيه يريد الاختباء مثلي».

«أبسبب حبك للطفل أم أنك عاشقة؟».

«لا، لم أقاومه فقط، استسلمت بسهولة، غرر بي، خُدعت».

صمت محمد، كان الموقف كله غريبًا.

«ألديكِ أطفال؟ أأنتِ متزوجة؟».

«لا، عزباء، وأنا مثلك لدي سر»، «تبدو كشخص يختبئ هنا،

مثل الهاربين الذين يعدون خونة للوطن».

«برافو! كيف عرفت؟».

«قلت لك، أنت لا تبدو كصياد، ولا تشبه البحارة».

«اعرفي قصتي، لأفاجئك أنا على الأقل».

«لا يمكن لعقلي الوصول لهذا الحد».

«أستغفر الله! من الواضح جدًّا أنك نشأت جيدًا وتلقيت تعليمًا حسنًا».

«يمكنني القراءة والكتابة، وقليلًا من عزف البيانو، وفرنسية مكسرة، إذا كنت تعتبر ذلك تعليمًا، فهذا كل شيء».

«وما المطلوب أكثر من ذلك في زمن كهذا لفتاة شابة؟».

«في الأساس أنت من تبدو كشخص تلقى تعليمًا جيدًا».

«نعم، لقد حصلت على قدر كافٍ من التعليم أفضى بي للعيش مختبئًا».

«لست قاتلًا ولا ما شابه، أليس كذلك؟ أي إنك لم تقتل أحدًا».

«هل أبدو لك شخصًا كهذا؟».

«لا، على العكس؛ تبدو شخصًا طيبًا، لكن الجميع يبدون طيبين، الجميع طيب في رأيي، لهذا أصلًا يقع المرء في الفخ».

كان محمد يشاهدني بدقة، والضوء يتسلل من جميع جوانب الكوخ العائم وعبر الباب الخشبي المفتوح على مصراعيه، مشبع باللون الأزرق، والأخضر من الجانب المطل على الجزيرة، والأحمر من الأراضي المليئة بمعدن النحاس؛ كما قال والدي، تطلعت مرة أخرى من الباب المفتوح على مصرعه إلى الزرقة الشاسعة، كان سرب من الطيور يحلق على ارتفاع منخفض، كانت تطير على ارتفاع منخفض لدرجة أن صدورها كأنما تمس المياه، بدا الأمر كما لو أن محمد أراد أن يخفف عني أو يمازحني، لأجل هذا قال هامسًا:

«السلطان ينتظر رأسي».

وبينما يقول هذا، قام بإشارة كأنه يذبح حلقه بيده، وأخرج لسانه من زاوية شفتيه، وأدار عينيه، فأصبح مضحكًا بشدة مثل الأقزام التي في مسرح الخيمة، ضحكت.

ذات يوم ضحكت أنا وأمي وفاطمة وهجران وبدرية كثيرًا لدرجة أن الدموع طفرت من أعيننا من الضحك فقالت أمي:

«ضحكنا كثيرًا وسنبكي كثيرًا».

قالت بدرية: «الله لا يبكيك يا سيدتي!».

قلنا «آمين!».

على المرء أن يعلم وهو يضحك أن ضحكته ستكون قصيرة مثل

طرفة عين.

نصبت عيني على الكأسة المملوءة بالشاي في يدي، وتأملت تفل الشاي السابح في الشاي الأحمر قليلًا.

قال محمد: «خذي راحتك!»، تنهد الكلب الجريح متكورًا في زاوية الكوخ، وبينما كنت أريد مد الكأسة التي في يدي إلى الكومودينو، أخذه محمد من يدي، فشعرت بغتة كما لو أن كل قواي قد خارت.

قال محمد: «استلقي واستريحي إذا أردت! سأجلس على السلم، وأسحب الشبكة، سأبقى بالخارج، استريحي أنتِ».

«لا يزعجني وجودك هنا، يمكنك البقاء».

ثم سألني إن كان لدي مكان أقيم فيه أم لا، قلت بين الكلام منذ قليل (دعني آخذ الكلب إلى القصر، سأعتني به جيدًا مع بدرية) يبدو أنه لم يكن يستمع لي.

قلت له نصف ناعسة: «لدي قصر ضخم، إنه قصر ضخم قريب يكاد يكون سرايا!» قلتها وانقلب نصف جسدي على السرير من تلقاء نفسه، كانت ملاءات السرير والوسادة تفوح منها رائحة البحر، هبط منتصف الوسادة تحت وطأة الرأس المتأرجح في أعماق النوم المضطرب كل ليلة، لا بد أن نومه مضطرب، كيف يمكن لهارب أن يجد الأمان في نومه وكيف ينام بلا خوف؟

قلت: «لو كنت امرأة فقيرة ولدي طفل غير شرعي في بطني،

لكان كل شيء أسوأ، على الأقل توجد كالفا تحت إمرتي».

«أهذه التي رأيتها معك ذلك اليوم؟».

«نعم، من رأيتها معي ذلك اليوم، ومن أرادت سحق رأسي بحجر لولا مجيئك».

«هل تريد قتلك؟».

سأل هذا بقلق، كنت مغمضة عيني فأجبته داخل عتمتي بهز رأسي، كنت أبكي لسبب ما، لأنني انفصلت عن أحبائي بالإضافة إلى أنني رأيتني مكروهة للغاية لدرجة أن يُراد قتلي.

لم أخلع الحجاب الذي غطى رأسي ولا الملحفة الكتان التي كنت أرتديها، حتى حذائي كان على قدمي، داهمني النوم بشدة. أتُراه كان يخاف من عدم وجود مكان أذهب إليه؟ كنت أحاول تشغيل ذهني وإبقائه منفتحًا حتى لا أستسلم للنوم لكن عبثًا! سحبت قدمي إلى بطني، ودسست يدي بين ساقي، فخرج حذائي تلقائيًّا، وسقط على الأرض بدويّ، يا له من شعور غريب أن يغمرك نوم؛ مثل الموت، لا يمكن مقاومته.

15

عندما استيقظت لم يمكنني معرفة أين كنت في البداية، لأني رأيت حلمًا، لقد نمت نومًا عميقًا عذبًا حتى إن فمي بقى مفتوحًا وسال القليل من لعابي على الوسادة، أدركت من هذا أني نمت نومًا عميقًا عذبًا؛ لكن ما لم يمكنني معرفته هل ما زلت نائمة؟ حسبت أني في مكان آخر، في مكان أراه في حلمي، كان الكوخ من الداخل زاخرًا بانعكاسات الأضواء، والطقس دافئًا، وأنا مغرورقة عرقًا.

ذهبنا في حلمي إلى الرحلة التي حلمت بها أمي، كنا في بلدة بعيدة يمكننا فيها الاستحمام في البحر، نقضي يومنا في أكواخ خشبية كهذه، أكواخ صغيرة في البحر ترتفع على الشاطئ مباشرة ويمكننا الخروج منها إلى البحر والدخول إليها وتغيير ثيابنا، كانت فاطمة التي خرجت لتوها من الماء تمشط شعرها، ووالدتي وهجران جالستان تتبادلتان المزاح مثل حوريات البحر على المقاعد الخشبية في الكوخ الذي يطل على البحر.

لا بد أن أمي تتذكر هذه العطلة التي حلمت بها من طفولتها، ساحل المياه لبلدة لا تعرف أين هي أو لم تخبرنا بمكانها، هذا ما حكته لنا، ذكريات الطفولة، حكت أنها إحدى البلدان البعيدة

التي يستحم فيها النساء على وجه الخصوص في البحر، لم يكتمل حلمي، واستيقظت من نومي، أدركت أين أنا، اعتدلت، كنت أتفصد عرقًا.

دلف محمد للداخل وليلة بين ذراعيه، لا بد أنه أدخلها البحر:

«ماء البحر يشفي جراحها».

توقف أنين ليلة، نظرت حولها بعيون أكثر إشراقًا؛ غير أنه لم يتم شفاؤها على الفور، عرفت فقط أنها في مأمن.

«لا بد أنك تعرقتِ، لأنك رقدت بحجابك»، لم يمكنني كشف رأسي حتى لو أردت، فلا أريد أن يراني محمد بشعري القصير مثل الرجل:

«هل تريدين أنتِ أيضًا النزول في المياه؟ لا أحد هنا».

لا أجرؤ على هذا، لقد خرجت من المنزل وذهبت، أخشى أن تكون بدرية قد أقامت الدنيا وأقعدتها في غيابي، ومع هذا أريد البقاء هنا، أريد أن أكون معه، قلت لنفسي: «في أسوأ احتمال، ستنتظر حتى غروب الشمس».

كان محمد يقف في منتصف الكوخ، كما لو كنت سألد طفله، اعترتنا حالة ويكأننا نعيش بسعادة في هذا العالم الصغير، كم هي غريبة الحياة البشرية، حتى عندما لا يكون لديكم أي أمل، يمكن أن يتحول كل شيء في لحظة.

نزلت المياه.

خرج محمد وجلس في قاربه حتى أتمكن من خلع ملابسي براحة.

حتى لو كانت شباك الكوخ مشدودة فهذه للعرض، التقاط بعض الأسماك المعلقة في الشباك وتنظيفها وأكلها، هكذا وُجد الكوخ، لإخفائه وخلق عذر له للبقاء هنا، كان يقوم الآن بفرز الأسماك التي تم صيدها في الشباك، عدد قليل من الجمبري، والشاخورة والحبار. ربما كان وجودي جيدًا له أيضًا من يدري؟ لأن الوحدة مؤلمة وصعبة على الجميع؛ لهذا السبب لا يوجد شيء حزين بقدر إيجاد شخص وحيد شخصًا للتحدث معه، دائمًا ما يتحدث وحده، يريد أن يحكي، وأن يستمع، وأنا أيضًا لم يكن لدي أحد سوى والدتي وفاطمة وهجران وبدرية، ليس لدي أصدقاء، كانت والدتي تقول: «نحن نكفي بعضنا»، لا أعرف ماذا أفعل من دونهن، ها هن لم يعدن موجودات، أنا وحيدة، أُلقيت وسط البحر تمامًا مع طفل في بطني لا أريده.

لم أنس فأنا من قلت «لا صديق، ولا مفاجأة، ولا حب، هذه كلها أفخاخ»، هكذا فقط كنت أواسي نفسي، وأتشفع لوحدتي، لا يوجد من يبحث أو يسأل عن وحيد أو يقلق عليه أو يتذكره.

كانت والدتي تقول: «لسنا وحدنا، لن ننسى نحن الأربعة بعضنا بعضًا أبدًا».

دخلت الماء.

قلت: «إياك أن تلتفت وتنظر! ليس من خجلي؛ بل لأنني قبيحة للغاية».

كان محمد يجلس صامتًا في القارب، يستمع إلى كلامي وظهره مدار لي، كان ظهره العريض المحروق من الشمس ساكنًا لدرجة جعلتني أشعر بأنه ينصت لي من كل قلبه؛ لكنه استدار ونظر كما لو أنني لم أقل ذلك! غطست في الماء حينئذٍ مثل البطة، كنت ألعب هذه اللعبة بحب مع أخواتي؛ لكن حتى متى يمكنني البقاء تحت الماء دون أن أتنفس؟ كانت أمي وبدرية تقولان «لا تبقي تحت الماء مدة طويلة! يدوسك الجني!»؛ خاصة في سواحل مضيق إسطنبول وجزيرة الأميرات، هناك العديد من الجن الذين يعيشون هناك، وبسبب أنه لسنوات متتالية دُفن الناس أحياء في هذه المياه، وخصوصًا في هذه الشواطئ التي باتت قبورًا لأمراء وأميرات بيزنطيين، ظلوا يرددون: «إنهم يريدون استدراجك إلى عالمهم الخاص، إياكِ أن تبقي تحت الماء لفترة طويلة، لا تغوصي في قاع البحر!».

أخرجت رأسي من المياه، لقد سقطت جروحي التي كانت مغطاة بالقشر ونما شعري مثل السابق والحمد لله، بدا رأسي الآن مثل رأس صبي أصلع.

قال محمد: «عيناك، وفمك الجميل، وبشرتك الوردية الناعمة

مثل الوردة، ويداك التي كالرخام، ولسانك العذب، وقلبك المصنوع من ذهب يكفيني»، نظرت إليه وابتسمت، وظل قلبي يخفق بلذة الحب كالموج الناعم فوق البحر.

16

هبط الليل بهدوء على المياه، وبزغ البدر، لا شك أن كل العشاق والأحباب ومن ينتظرون الحب ومن يأملون في اللقاء يتأملون البدر، وأنه يُرى من إسطنبول كذلك، كان البدر يظهر أولًا من غرفنا في الطابق العلوي من منزلنا، فكانت والدتي التي كانت تفتخر بأنها تعيش مثل كوكونا لا تهبط لطعام العشاء قبل توضيب نفسها وشعرها، وأحيانًا كان يعتريها السأم فلا تمس شعرة من شعراتها، حتى إنه اعتراها الملل ذات مرة من الحياة فكانت تنام وتقوم بالملابس نفسها، قالت عمتي: «تسلط عليها جن»؛ لكن الأمر لم يكن كذلك، ذرفت فاطمة الدموع وبكت على أنها حسدت لكن لا، مرضت روحها تمامًا مثل أنف شخص يسيل في البرد، رأسها مستند إلى يدها ووجنتاها وشفتاها الورديتان تتدليان في يأس، لم نكن بالغين بما يكفي في ذلك الوقت لإعادة والدتي إلى الحياة، صار البيت مجمدًا، صامتًا، وأصبحت أمي مثل الأزهار الجافة في مزهريتها عديمة الرائحة، انتهزت بدرية كالفا الفرصة فأغلقت عليها غرفتها ونامت، حتى الطاهية كانت تطبخ نفس الأطباق دائمًا، واستمرت الجواري في التظاهر بمسح درجات السلالم غارقين في أحلامهن ليبدين وكأنهن يقمن بأعمالهن، كانت أنسجة العنكبوت في زوايا بعض الغرف تتدلى على الأرض، وكنت

أنا وهجران مولعتين بحلها، وكانت فاطمة تنهرنا: «ستحترقن في جهنم!»، ثم تقول «نبينا» فتضع يدها على قلبها في خشوع وتقول: «صلى الله عليه وسلم، عندما فر من أعدائه وتخفى في الغار أنقذ حياته عنكبوت وحمامة».

«كيف أنقذاها؟».

«لقد غزل فوهة الغار بشباكه. فقال الذين تبعوه: لو أن شخصًا في الداخل، لفسدت شبكة العنكبوت، ولما بنت الحمامة عشها هنا!».

كانت القصة مؤثرة بشدة لدرجة أنها دخلت أحلامي:

في حلمي، كان العنكبوت قد أقام عشه كما حكت فاطمة على باب منزلنا، بقينا على الباب ولم نستطع الدخول، كانت أمي في الداخل، هذا هو الحلم، لقد تعجبنا جميعًا كيف دخلت وبقيت في الداخل.

«أمك بين براثن أزمة نفسية».

فسرت عمتي حلمي هكذا، سألنا في الوقت نفسه مع هجران:

«لماذا؟».

لم يجب أحد. إلى أي مدى تستطيع المرأة التي تتأذى باستمرار تحمل عبء الحياة؟ اكتشفت بالصدفة سبب وصف أمي للسأم الذي اعتراها في الشتاء والربيع الذي تلاه وذلك الصيف الذي قضيناه في الجزيرة؛ بأنها شعرت كما لو أن روحها بين رحى

منجلة، وسأحكيه.

الحمد لله، أيامنا الجيدة أكثر من أيامنا السيئة.

كان النزول إلى الجزيرة على سبيل المثال؛ أمرًا غير عادي بالنسبة لأمي على الدوام. تبدأ تجهيزاته من الشتاء، حتى إنها توددت من الفرنسيات خلال صيف وطلبت منهن صنع قبعة لها واسعة المحيط، وكانت ترتديها سرًّا على الجزيرة. كانت حواف القبعة الزرقاء السماوية متسعة للغاية لدرجة أنها كانت تتراءى لعيني مثل سماء ثانية، لقد أضافتنا إلى ألعابها المضحكة ولبست كل واحد منا مثل الأطفال الأجانب.

قلنا لبدرية كالفا التي قالت: «لا، لن أرتكب ذنبًا!»، «ابقي أنتِ إذًا، لا تأتي معنا!»، وتركناها في الفندق، لم يتعرف علينا أحد في هيئتنا الجديدة. نبهتنا أثناء مغادرة الفندق: «حذارِ أن يراكن أحد، اختبئن تحت مظلاتكن حين ترين أحدًا تعرفنه».

كانت ترتدي الكورسيه، وتساعدها بدرية على ارتدائه، وبينما كانت تفعل هذا شدت حباله لدرجة جعلت طرف لسانها يخرج من فمها.

كان حذاء أمي الرياضي متناسقًا مع زيها المنقوش باللون الوردي الفاتح والأزرق السماوي، وكانت ترتدي تنورة طويلة من قماش التفتا وعليها سترة قصيرة تحتها قميص مزركش وقد جمعت شعرها مثل النساء الفرنسيات، ووضعت فوقه على

رأسها القبعة بحرفية، نظرنا إليها جميعًا فضحكنا، وسألناها: «كيف ستحملين هذه القبعة الضخمة على رأسك؛ يا أمي؟» كانت شعيراتها المنسابة على طرف القبعة ذات المحيط الواسع تتطاير كلما سارت، وكانت لديها شمسية من الدانتيل في يدها وفي يدها الأخرى مروحة، ويجب أن تخفي وجهها.

تظاهرنا بأننا نغادر الفندق ليظن من يرانا أننا كنا نزور أصدقاءنا:

«بونچور!».

تكاثرت الأسئلة من ورائنا «من هؤلاء؟» بينما كنا نخرج من الفندق، و»متى وصلن؟» على رأس السلالم الهابطة إلى الحديقة، ثم «أيقمن في فندقنا؟» ضحكنا مقهقهين أمام باب الفندق المفتوح على شارع نظام، ظنوا في الفندق الذي نأتي إليه كل صيف والذي ولدت فيه هجران (هكذا حكوا لنا) أننا فرنسيات، من الجيد أن تكون شخصًا آخر، بدأنا السير كأننا أشخاص آخرون، كنا نحيي الغرباء بابتسامة، وننظر في وجوه الرجال وعيونهم ونضحك؛ أما هم فكانوا يتوقفون ويفسحون لنا الطريق ويرفعون قبعاتهم وطرابيشهم، ثم يعيدون وضعها على رؤوسهم. قالت والدتي:

«لنذهب إلى رأس اللسان!».

فذهبنا إليه.

قالت: «من المريح للغاية التجول بهذه الملابس، لقد أصبحت

خفيفة كالطير».

كانت تضع القليل من المكياج. وجنتانورديتان، وحاجبان مصبوغان. لو كشف أمرنا، لأمسك أبي بفكها وقال وهو يعتصره: «ما هذه الألوان مثل الطيور!».

سرنا على رصيف عند رأس اللسان، فغمسنا أقدامنا في الماء، أخذت والدتي نفسًا عميقًا وبسطت ذراعيها على الجانبين مثل جناحين قويين، ووقفت منتصبة عند أبعد طرف للرصيف كأنها تريد احتضان العالم بأسره، ربما بسبب حماسها أو بسبب تعريها قليلًا وتماسها مع الهواء والعالم، ثم ضاق صدرها بغتة، ضغطت يدها على وسط صدرها بالضبط مثل مخلب، تحشرجت أنفاسها وهي تأخذ نفسًا عميقًا، الطفلة الصغيرة التي تم جلبها للبيع في سوق الجواري في سن الخامسة؛ مرضت في الطريق وأصيب صدرها بداء الربو. ثم تمالكت نفسها، كان هذا أسعد يوم لها، يوم سيلمع ببريق في ذكرياتها ولن تسمح لنفسها بنسيانه أبدًا، شاهدنا الحناطير والفرسان يمرون عبر غابة الصنوبر على شارع نظام لفترة من الوقت، كم كان مشهدًا ساحرًا.. مشينا حتى نهاية الجزيرة في هيئاتنا الجديدة كما لو كنا أناسًا آخرين تمامًا، بدا كأنه مكان لم نعرفه من قبل، نظرنا إلى البحر أسفلنا مباشرة خائفين، دحرجت هجران قطعة حجر من الجرف، الغبية؛ كادت أن تتدحرج هي الأخرى، أطلقت والدتي صرخة شديدة وعقدت حاجبيها مثل المرأة الفرنسية، لو كانت أمًّا تركية لقرصت

مؤخرتها ولوت أذنها، لم تفعل شيئًا من هذا، الملابس التي نرتديها مثل خيوط الدمى، تُظهر لنا كيف نتصرف.

عشنا البهجة الحقيقية عندما نزلنا إلى السوق، جلسنا في أحد المقاهي، أكلنا وشربنا ونحن ننظر حولنا بعيون نهمة، وعندما كان سيحضر الشاي مقدمًا لأمي في فنجان كنا سنسمعها تقول «ميرسي!»، ونشاهد شفتيها تقترب من الفنجان وتحتسيه في رشفات قليلة.

«بإمكان الرياح أن تلتف حولنا ويحيطنا العالم بأسره حين لا يوجد شيء علينا، يمكنها أن تلمسنا، أترى الحرية شيئًا كهذا؟!».

“!Il ñ ‘a pas Turque” [1]

لم يسمعنا أحد، ولم يتعرف أحد على أمي:

“(merci) ،bien “[2]

حكت أمي أن أكبر رغبة تمنتها في تلك اللحظة كانت أن ترى أبي ينزل من العبارة، ربما إن رأته بعين امرأة أخرى تشمئز منه ولا تقترب منه ثانية، انسكب شاي على تنورتها ذلك اليوم، وبقيت هذه البقعة.

عدنا أدراجنا إلى الفندق كما خرجنا منه، ولأنني كنت أكثر دهاءً ويقظة من أختَي أرسلتني أمي لرصد الوضع بالداخل، وعندما

1- الجملة فرنسية: إنها ليست تركية!

2- حسنًا، شكرًا!

خرج الصبي في الاستقبال لتدخين التبغ ناديتهن، فصعدنا إلى غرفتنا ضاحكين.

«ما رقم الغرفة التي يقيم فيها هؤلاء الفرنسيات؟».

«أم أنهن يأتين لزيارة أشخاص مقيمين في الفندق؟».

كانت هناك مفاجأة تنتظرنا في غرفتنا؛ أبي وأخي، نكست بدرية كالفا رأسها:

لماذا أتوا مبكرين هكذا؟

«لا أريد أن تمر هذه الفضيحة دون عقاب، لا ينبغي أن تمر أي فضيحة دون عقاب».

قال والدي هذا واستدرك:

«لكني لا أود سماع أن هذه الفضيحة وقعت لزوجتي».

إذًا؟

وجراء شكوى والدي والرشوة الكبيرة التي قدمها عقب ذلك، حل الحاكم هذه المشكلة بشكل جميل، فعدنا أولًا إلى إسطنبول على عجلة، وأحضرت أمي ليلة نفس اليوم إلى المنزل وهي غير قادرة على الوقوف على الأرض، كانت تستند إلى أكتاف بدرية وإحدى الجواري وتتأرجح قدماها اللتان لا تصلان الأرض في الفراغ بعجز، وعندما رأت فاطمة والدتي في تلك الحالة فقدت وعيها،

لقد ضربوا المرأة المسكينة بشدة لدرجة أن كاحلها الأيمن تعرض للكسر، ثم التأم بشكل خاطئ، مما أدى إلى سيرها تجر قدمها نتيجة هذا، صارت والدتي عرجاء، تحدثت كل إسطنبول عن المرأة المسلمة التي أمسك بها زوجها وهي تتجول بثياب وشعر مكشوف مثل النساء الفرنسيات؛ لكن لم يعرف أحد أبدًا أنها اختلقت كذبة لمحيطها أنها أصبحت على هذا النحو نتيجة حادث سيارة، تسابق المعارف والأصدقاء على تمني الشفاء العاجل لها، والتقت بهم أمي جميعًا على فراش المرض بقدمها المغطاة بالجبس، وبينما كانت تتلوى من الألم؛ كانت تستمع إلى حكايتها «الشائنة» التي تبدأ بـ«أسمعت؟!» ماذا يمكن أن يكون في هذا العالم أكثر حزنًا من سماع قصة الشخص نفسه من شخص آخر؟ عدنا من الجزيرة مبكرًا جراء الواقعة المعروفة لكن الصيف لم يكن قد انتهى بعد، استمرت أمي تستمع لقصتها بعينين حزينتين بين الملاءات الكتانية البيضاء كالثلج في غرفتها التي امتلأت بالضيوف واكتست بالخضرة الناضرة من النوافذ المفتوحة على مصراعيها.

فلماذا فعل هذا إذًا؟

وقعت والدتي في الحب عندما كانت متزوجة، وما لبثت أن حطمها الحزن كالبلورات بسبب افتراق طرفي حكاية الحب هذه، لقد قامت بحيلة بينها وبين نفسها بينما هي تحلق بأجنحة السعادة في ذروة الحب ذلك الصيف: إنها امرأة أخرى، أجنبية، امرأة حرة، متحررة، طليقة؛ شعرها مكشوف، وما حدث بعد ذلك

أنتم تعلمونه؛ لكن كانت هناك بعض الأمور التي لم نكن نعرفها، وعندما علمناها ظللنا صامتين:

لقد كانت السنة التي نُقلت فيها الكلاب إلى جزيرة هايرسيز، والتي ذهب فيها أبي في رحلة طويلة للحج، وبدأت أمي تسمن، وظهر الخاتم ذو الياقوتة الذي أخذته من مسيو ياقوب في إصبعها، أنجبت أمي طفلًا غير شرعي من عشيقها، تولت بدرية (فعلتها من قبل، من قتلتِ من قبل يا تُرى؟) أمر هذا الطفل، السر نار في المنزل، ذات يوم من الأيام بالتأكيد سيحرق الأسرة بأكملها ويُحولها إلى رماد.

17

أمسك محمد بمجدافي القارب الذي يعرف طريقه في المياه التي غمرها ضوء البدر، كان سيدعني عند ساحل القصر بعد يوم طويل، كان جسده الجميل يتمايل ذهابًا وإيابًا بقوة ولياقة الرجولة تحت سنا القمر.

«لم تأكلي في الظهيرة أيضًا أي شيء، أنتِ روحان، لتأكلي ذاك السمك الذي طهوته»؛ قالها وأعد لي مائدة صغيرة، قلاه فوق الطاولة الصغيرة التي سحبها إلى أسفل النافذة، كان هناك سمك بوري لحمه الوردي ظاهر، والقليل من العنب، ورغيف خبز لم يفسد بعد. تناولت ألذ وجبة في حياتي على طاولتنا التي أضاءتها شعلة الشمعة، واستمر الحمار المربوط على الشاطئ في النهيق من جديد، فضحكنا.

قال محمد: «إما أن هناك من يتجول بجانبه في المنطقة أو أنه يحاول إزعاجنا مرة أخرى».

«هذا الحمار ذو قلب سيئ! لا يريد أن يكون أحدٌ سعيد».

كنت الآن في القارب مثل امرأة أخرى؛ لذلك تذكرت قصة والدتي الحزينة، إمكانية أن يصبح الإنسان شخصًا آخر، والرغبة،

والخيال. ليتني امرأة حاملًا يُخرجها زوجها الصياد في جولة ليلية؛ لكنني مذنبة عائدة إلى بيتها.

ميزت القصر على الساحل بصعوبة شديدة، تعرفت عليه وعرفته من هيكل القصر الآخر الذي يرتفع بجواره مثل الشبح.

قال محمد: «مرفأ للقوارب».

قلت: «أقامته أمي».

أمي.. هذا يعني أنه بالرغم من كل شيء؛ يظل الإنسان مرتبطًا بالحياة وتبقى داخله دائمًا الفرحة بالعيش.

نزلت من القارب بصمت.

تبللت أذيال ملحفتي.

لبست على الصخرة حذائي الذي يبسه الماء المالح كالحجر.

كدت أن أتعثر وأسقط على الدرج المؤدي إلى الحديقة، أطلقت صرخة، ثم تعودت عيناي على الظلام ودرجات السلم التي تناثر عليها ضوء القمر، وتمكنت من الصعود إلى الأرض المستوية المرتفعة حتى حديقة القصر.

كانت بدرية تقف في التراس تنتظرني، وكان أصحاب القصر الذي بجانبنا قد أتوا حديثًا من إسطنبول، أصبحت نوافذ قصرهم التي كانت مغلقة بإحكام في الصباح، تضيء الآن مثل المصباح،

وتأتي الأصوات من حديقتهم، كان القصر بحالته هذه أشبه بصناديق الموسيقى التي تعمل بالزنبرك، كنت أرى الأشخاص الذين أراهم مبتهجين في ساحة الجزيرة بعد ذلك في حدائق بيوتهم وشرفاتها وتعاريشها وابتسم.

«إذًا هذا هو منزل تلك السيدة السمينة، وذاك الرجل المرتجف يقيم في هذه الشرفة، لذلك هذا جميل ومنزل تلك الفتاة الجميلة جميل مثلها، وحديقة تلك المرأة القبيحة مهملة مثلها تمامًا».

لعبة طفولتي، هذه التي أحبتها هجران على وجه الخصوص، كل هذا واليوم المليء بوعود الحب الذي قضيته جعلني أشعر أني بخير؛ لكن بدرية وقفت أمامي مثل جدار في المنزل الذي كان مظلمًا تمامًا، وأرعبتني:

«أين كنتِ طوال اليوم؟».

قلت في نفسي: «لا تتحدثي معي!».

لكن بدرية كيف تجرؤ على جذبي من ذراعي، لسبب ما كان وقع هذا علي أصعب من إرادتها قتلي، وكأنه رغم أني أستحق الموت كوني سوء الحظ الذي سيسود نصيب نساء عائلتي كلهن، إلا أنني لن أسمح لجارية أن تسحق كبريائي بإمساكها بذراعي ومحاسبتي، لم أستطع أن أفهم كيف آلمتني ذراعي هكذا على الرغم من أنها كانت تمسك بها بيدها ناقصة الأصابع، فقدت أصابعها أمام أعيننا، كنت أنا وهجران صغيرتين، حتى إن هجران لم تكن

قد توقفت عن الرضاعة، ووالدتي تجول مخرجة ثديها في المنزل، لم تكن الأيام التي كانت تتفاخر فيها بقولها «أنا أعيش مثل كوكونا!» قد بدأت بعد، كنا نعيش في منزل أصغر مؤثث على غرار قصر عمتي في بيازيد، كان المنزل مظلمًا وباردًا، نتناول وجباتنا على الأرض بدلًا من المائدة، وكانت هناك على الجدران مناظر طبيعية منحوتة على النحاس بدلًا من اللوحات الزيتية والألوان المائية التي أعجبت والدتي واشترتها؛ لكن الغريب أنه كان لا يزال هناك أشياء مزخرفة أيضًا معلقة على الجدران كرمز لذوق أمي الرفيع. كانت فاطمة تراقب هجران وهي تمتص ثدي أمي بنهم جالسة تحت ركبتها، وكان الشتاء قد حل والثلوج تُغطي كل مكان، فكنا نُدفئ غرفة صغيرة من المنزل، وتأتي بدرية إلى جوارنا قائلة «الثلج الذي في الحديقة بلغ خصري والله!»، كنا نعد الكستناء، فنجهز الشواية، ونشويه، ثم نأكل جميعًا بشهية، وظلت بدرية تذهب وتجيء من المطبخ لإحضار الماء لي ولفاطمة لأننا عطشنا، ولم تستطع أن تأكل الكستناءتين نصيبها، انكبت على ما وقع في نصيبها بنهم لكن عندما رأت طبقها فارغًا قالت «أين كستناءتي؟» فدعتها والدتي إلى جوارها قائلة: «ها هما ذا!»، ثم سحبت هجران عن ثديها، فأجلستها على الأريكة، وأخذت الملقط وانحنت فوق الشواية، انتظرت بدرية بفارغ الصبر خلف أمي وفي يدها طبقها، قالت أمي رانية بطرف نظرها إلى بدرية وظهار مدار لها «افتحي راحة يدك، افتحيها!»، فمررت بدرية الطبق إلى يدها الأخرى ومدت يدها.

وإذ بوالدتي تضع جمرتين من النار في راحة بدرية ثم تغلق يدها بإحكام، أطلقت بدرية صرخة شديدة لدرجة أن المنزل ارتج وارتجف، وسقطت كل سيوخ الجليد المتدلية من السقف على الأرض.

قالت والدتي لأبي مدارية الجرم الذي ارتكبته بالكذب «قالت «احترقت الكستناء يا سيدتي!» وهي تمسك بجمر النار، ولم أفهم والله!».

ربما لم تكن ترغب في إنزال عقوبة شديدة عليها لهذا الحد؛ لكن هذا ما حدث.

قال الطبيب إن أصابعها الثلاثة أصيبت بحروق شديدة ولم تعد قادرة على الحركة:

«إذا لم يتم قطعها، ستحدث غرغرينا، وسينتشر الالتهاب في جسمها كله، وستموت هذه الجارية».

هكذا فقدت بدرية ثلاثة أصابع من يدها اليمنى، وهذا ما يمكن أن نطلق عليه القصاص، فبعد سنوات أصيبت أمي بالعرج في ساقها.

نظرت إلى موضع أصابع بدرية المفقودة وإلى يدها التي تقول عليها «يدي العمياء»، كم قلقت عليها كثيرًا في ذلك الوقت، لكنها اليوم كانت شخصًا آخر، لقد حشدت بداخلها انتقامًا كبيرًا يكفي لخنقنا جميعًا بملعقة مياه، قلت لها بحزن لأني شعرت بهذا:

«ابتعدي عن طريقي!».

لكنها كررت سؤالها مرة أخرى:

«أين كنتِ طوال اليوم؟».

قلت: «وجدت لنفسي زوجًا»، «لقد وجدت شخصًا يأخذني مع اللقيط الذي ببطني، وقعنا في الحب بمجرد أن رأينا بعضنا بعضًا، وأصبحنا عاشقين؛ لكن من أين يمكنك معرفة مثل هذه الأمور!».

نهرتني قائلة: «أدخلي لسان الأفعى ذاك في فمك!»، وعاجلتني بصفعة في منتصف وجهي.

لأن بدرية كانت قد جربت الحب، فثقل عليها اتهامها بأنها لا تعرفه، وقعت في حب جميل أفندي سائق عربة خالتي، أفضت إلي في يوم سابق وهي نصف ثملة بكل أسرارها دون توقف. عرفنا بعد ذلك بكثير أنها لم تكن إلا لعبة أعدتها والدتي، مجرد قطعة علكة مغطاة بسائل عجيب هي ما أدت إلى إرخاء لسان بدرية، وهكذا حكت ما حكت ذلك الوقت.

«رأيته مرات عديدة قبل ذلك، لكن خُيل لي أني أراه لأول مرة داخل النيران وألسنة اللهيب، وأنا أيضًا احترقت ونشبت في النيران بسببه».

كانت قد صادفت جميل أفندي في الليلة التي ذهبت فيها لمشاهدة الحريق، كنت أعلم أنه سائق قديم لعمتي لكن حتى تلك الليلة لم تنظر له بعين الرغبة أبدًا؛ لكن في تلك الليلة رأت جميل أفندي يشاهد بشجاعة وهدوء كبيرين، وقليل من اللامبالاة حريق منزله

وحيّه بينما يدخن النرجيله التي وضعها على سجادة بسطها في الشارع، واستمراره في مشاهدة الحريق مع نهوضه كلما اقتربت ألسنة اللهيب وإزاحته سجادته قليلًا للوراء؛ وافتتنت به، وعندما رأت الرجل يُجمع الأطفال الضائعين وسط الحريق في مجموعات ويربطهم بعضهم ببعض من عمائمهم لتسليمهم لعائلاتهم أغرمت به بشدة، وقالت: «إن كان سيصبح لي زوج فيجب أن يكون هكذا، إن كان سيصبح فيجب أن يكون هو». هذا كل شيء.

فقالت أمي: «أهذا كل شيء؟».

ردت بدرية: «هكذا كل شيء».

كان هذا كل شيء بالفعل، كان هذا القدر كافيًا لإيلام بدرية، أظهرت لها الجرح المتقشر، كانت محقة في صفعتها:

«هل قاطع الطريق الهارب ذاك سيتزوجك؟!».

يعني هذا أنها كانت تدري وعلمت أنه محمد، كنت صاعدة إلى البرج، ولكنها جرتني من ذراعي كما لو أنه من الصعب عليها تحمل الأمر ووبختني بقولها:

«وكأن العثور على زوج أمر سهل!».

ظل ما عشناه ذلك اليوم كالحلم في الماضي، قلت لنفسي: «لكن لا؛ يجب أن يحدث أكثر من هذا!» لأنني لم أتذوق السعادة إلى الآن بعد.

18

يُظهر العشق نفسه ثم ما يلبث أن يختفي. يبدو مثل قارب ظاهر في الأقاصي أحيانًا، يتجول في المحيط بتردد كما لو كان يحاول معرفة القصر الذي تركني على ساحله ذات ليلة من الليالي، لم يقترب كثيرًا، كما لو أنه لا يريد أن يمسك بي أو يُحمسني أو يُرعبني أو يقحمني في المشاكل، أو أنني تخيلت ذلك، أن محمد ينتظرني ويبحث عني ويظل يطوف حول الشاطئ المظلم حيث تركني، ضربت بدرية مثالًا بببغاء السفير الإيطالي بينما كانت تُغلق عليَّ مرة أخرى:

«حتى هذا الببغاء المقمل الوفي ولى شطره ورحل ولم تستطع أمك العثور عليه».

هذا صحيح، حدث ذلك بينما كنت أرقد محترقة ومنهارة بعدما أشعلت في نفسي النار.

«ربما إذا لم تهربي لن تنفضحي أكثر؟ بالإضافة إلى أنني منوطة بمهمة».

«أأن تقتليني؟».

«دعكِ من هذا! أغلق هذا الدفتر».

«ماذا سيكتب في الدفتر الذي سيفتح الآن يا تُرى؟».

«ستحنين عنقك لمصيرك، لكنك عنيدة مثل المتمرد الذي يعيش في ذلك الكوخ، لو كنتِ رجلًا لثُرتِ على الدولة، ولو وجدت جبلًا لأصبحت من قطاع الطرق».

«أي إن لدينا دولة ظالمة وغير عادلة إلى هذه الدرجة».

هكذا انتهت المشادة الكلامية البالية بيننا، ثم أغلق باب الغرفة كأنها لن تُفتح مرة أخرى.

خدشت خدشًا على إطار النافذة من أجل كل يوم بقيت فيه محبوسة، وعندما رأت بدرية هذا، قالت: «ستستاء والدتك بشدة، لقد شوهتِ إطار النافذة».

كانت تدمدم كلما سنحت الفرصة: «بقي ألا تصبحي متاعًا لأي شخص»، من أين لها بهذه المعلومات الكثيرة حتى تستمر في التحقير من محمد، تساءلت قائلة: «ألا تعرفين؟! ألم يخبرك؟!»، «بقيت معه يومًا بطوله، ألم تتحدثي؟» لا تعرف بدرية أن الهموم إذا كانت خفيفة؛ تُحكى، وإذا ثقلت، يُسكت عنها.

أما أنا فكنت أعيش مع حلم اليوم الذي قضيته مع محمد، فأضحك عندما يخطر الحمار على بالي، وأقول: «من يدري على من يغضب مجددًا، وعلى من ينهق الآن؟».

اعتنت بدرية بي جيدًا لئلا يكون ذنبًا بحق من في بطني، لم

نستطع تناول طعام شهي كما في إسطنبول؛ لكنها كانت تقدم لي الأشياء التي تطبخها لنشبع بطنينا: أرز، سلطة خيار، بيض، عصيدة، زلابية بالسكر، عدس، أرز باللبن، شوربة حليب، كسكسي، باذنجان مقلي. لم يكن يوجد على طرف صينية طعامي سوى الملعقة، وحتى هي كانت أحيانًا تنسى وضعها: «أووف، لا يمكنني النزول والصعود من أجلها الآن»، تقولها ثم تخرج. كم من الوقت مضى وأنا آكل بيدي وأستخدم الملعقة في تقطيع الخبز مثل الهمج.

مر اللحم إلى معدتي مرة واحدة فقط عبر كباب مكون من لحم خروف مقدد محمر فوق رغيف بيده طري مدهون بالسمن والقرنفل والفلفل الأسود، أعتقد أن هذا تم إحضاره من إسطنبول لأن بدرية كالفا اشتهته، فأرسلته عمتي بواسطة جميل أفندي الذي ظلت بدرية تنتظره طوال اليوم على أحر من الجمر.

فهمت من وجه بدرية: كان مجيء الرجل وذهابه سيان، فقد تجاهل قول بدرية «تعال واسترح يا جميل أفندي، واشرب قهوتي السادة!»، كان هذا رحيلًا بالنسبة لبدرية التي ترقبت مجيئه لعدة أيام! رحيلًا دون النظر حتى لوجهها ينفي أي احتمال للحب ويمحوه.

وداعًا جميل أفندي!

تقتل خيبة الأمل الإنسان. تعتقدون بعدها أنكم تعيشون، وإذ بكم تعيشون كالموتى، دون أن تدروا بهذا.

19

ثم في يوم من الأيام سمعت أصوات أقدام كثيرة في الأسفل، وكان هناك آخرون غير بدرية، نساء أخريات، أخذ قلبي يخفق بعنف، كن يصعدن الدرج، ويتجولن في القصر ويتحدثن بحماسة فيما بينهن.

انتابني الخوف والحزن من أن أنسى أصوات والدتي وفاطمة وهجران مستقبلًا، ومن ناحية أخرى فرحت مع تصور أنهن القادمات، فهببت على قدمي من الحماس ولم تعد لدي أي نية للجلوس، ظللت أسير ذهابًا وإيابًا، وأحاول التعرف على الأصوات القادمة من الأسفل، ذهبت الأصوات كما أتت؛ تمامًا مثل الريح التي تقتحم البيت فتضرب الأبواب والنوافذ وأخيرًا المصاريع ثم تخرج ذاهبة.

شيءٌ ما وهي تختفي وتذهب جعلني أدرك أن الأصوات التي سمعتها لم تكن حلمًا بل حقيقة، بدأت بدرية كالفا بقولها: «تعرفين يا سيدتي؟!»، «يقولون إن السلطان عبد الحميد خان اعتلى العرش، فهل يا تُرى اسم امرأته الأولى بدري فَلَك؟ أتعرفين؟ يقولون إن عمر تلك يوافق عمره تقريبًا.. ولهذا السبب يُطلق عليها بين الناس 'كارت إقبال'؟».

لقد اكتشفت إلى من تنتمي الأصوات: كانوا سكان القصر الجانبي هؤلاء؛ الذين لا يزال قصرهم تحت الإنشاء:

«ألا يعلم خاصتكم هذا أفضل بكثير من بدرية كالفا؟! سمعتُ أنهم أقرضوا أموالًا للسرايا في عهد السلطان عبد العزيز، وأنهم طلبوها من السرايا، يقولون إن السلطان منحهم أرضًا فسيحة محل الديون التي اقترضوها، وإن رجب أفندي اعترض حتى قائلًا: 'الأرض لا تُشبع البطن!' وطلب ذهبًا؛ فهل هذا صحيح؟».

لقد أنصت للمتحدثات بشدة حتى إنني سمعت بدرية تقول بداخلها: «ماذا أقول أنا، وماذا تقلن أنتن؟!».

كانت بدرية تتعقب أثر أختها التوأم التي تم بيعها في سوق الجواري مثلها، وكانت أختها في السرايا:

«رغم كوننا توأمًا إلا أنها محظوظة؛ أما أنا فسيئة الحظ!».

هذا ما كان عليه الوضع!

بحثت عنها أختها التي أُخذت ونشأت في الحريم ووجدتها، فأرسلت رجلًا لدعوة خاصتنا إليها، تجادل أبي وأمي في هذا الأمر بينهما لأيام، وقالا: «إذا طلب أحد من السرايا جاريتنا، فعنقنا أدق من الشعرة»، أعدت بدرية صرتها من مدة وأخذت تترقب الخبر الآتي من السرايا؛ لكن البشرى لم ترد من السرايا: كيف ستخدم هذه الفتاة في السرايا مع فقدانها لثلاثة أصابع؟ قال والدي: «إنها تخدمنا!»، فردت والدتي: «لكن هذه سرايا»، «حتى المعيب يدخل

هناك بلا عيب».

لم تستطع بدرية دخول السرايا لأنها فقدت ثلاثة أصابع، ونسيتها توأمها أيضًا، فكانت والدتي تشفق عليها أحيانًا وتقول: «يمكنك اعتباري أختًا!»، فترد بدرية بقولها: «سلمتِ يا سيدتي! أدامك الله على رأسنا، أنا خادمتك وجاريتك»، ولا شك أنها كانت تقول شيئًا آخر في أعماقها، في الواقع لم تكن توأمة بدرية في السرايا بل بجوارها، كلاهما فقد أصابعه وكلاهما لديه قدم عرجاء، كانت والدتي وبدرية يدخران لبعضهما بعضًا ضغينة وكراهية كبيرة على مر السنين، والخطير في الأمر أنهما لم تُشعرا بذلك من حولهما، ولم تعترفا بذلك حتى لأنفسهما، لذا فإن حملتهما الأخيرة ستكون قاتلة.

يبتعد الناس عن أنفسهم بالاستماع إلى قصة شخص آخر، أو يقتربون، هذا يختلف من شخص لآخر، فإما أن تعرف نفسك عن طريق فهم الآخر أو تبقى أعمى عن نفسك، بسبب عيوبك التي يجب عليك رؤيتها، لا أحد يريد رؤية عيوبه، لا يمكنك رؤيتها على أي حال، إنها شيء مثل الرغبة في رؤية دمل بمؤخرتك، مع وجود شيء هناك في أعماقك يوجعك ويؤلم روحك، الإنسان نفسه؛ مجهول لنفسه، أكثر الناس لا يعرفون أنفسهم، لا يمكنهم رؤية ولا فهم أنفسهم دون النظر إلى الآخرين.

دلفت بدرية إلى الداخل مضطربة، حتى المفتاح الذي يدور في قفل الباب كان مضطربًا مثلها تمامًا، وفي يدها الأخرى كانت تحمل قارورة مليئة بالشربات:

«هل جاؤوا لينظروا إلى القصر؟».

«سامحكِ الله يا سيدتي الصغيرة! لم تتوقفي عن الدوارن فوقنا مثل العُجول المجنونة، أصابني الرعب من سماعهم خطاك؛ علاوة على أن والدة الفتيات لم تلبث أن نصبت عينيها على السقف لمدة، فأضاء الله ذهني، وقلت على الفور: 'حولت النوارس البرج إلى مأوى، وكما هو معلوم؛ فصغارها لم تتعلم الطيران بعد، وأصواتهم على السطح يتردد صداها في البرج الفارغ، وهذا ما تسمعونه'، أحسنًا هذا؟».

«لقد سمعتك يا بدرية، لا يهمك ولو بمقدار ذرة العار الذي تخفيه أمي في البرج».

«أكنت سأبقى هنا وأرافقك إن لم أكن أهتم؟».

«ماذا فعلت؟ هل ستذهبين إلى السرايا ركضًا؟ تهانيّ، ارتقت أختك التوأم من سُرية إلى سيدة».

تفتحت الورود في وجه بدرية، يعني هذا أنه كان لا يزال لديها أمل إلى الآن في إيوائها بالسرايا، أو أنها شعرت بالفخر جراء هذا:

«يا للأحداث التي وقعت ونحن هنا منفيون ومُغلق علينا.. ذهب

أحد السلاطين، فانتحر، ومن جاء لم يمكنه البقاء مكانه، فاعتلى السلطان عبد الحميد العرش، وماذا سنقول؟! تحيا سلطاني؛ تحيا!».

«نحن الذين يجب أن نحيا في الأساس، ليتركونا نحيا؛ نحيا في رخاء وصحة وسلام؛ لكنهم دومًا يجعلون هذه الدولة تحيا من أجلهم، لا أحد يريد الخير لنا!».

«التوبة! أنتِ تفكرين مثل الكافر تمامًا، لو سمعك أحدهم، والله يلقون بكِ في السجن، أذلك الهارب من وضع هذا في عقلك؟».

كانت بدرية تقف أمامي ضامة إليها قارورة الشربات التي بيدها، انتابتني السعادة لوهلة، ليس بسبب رؤيتها كذلك؛ بل بسبب تصديقها أن محمد ليس حلمًا، لأنه مع مرور الوقت؛ بدأت أفكر أن ذلك اليوم وكل ذكرياته عندي كانت أحلامًا، صمت بهدوء منحتني إياه الفرحة، ما الذي كنت أدافع عنه أمام شخص جاهل مثل بدرية؟ علاوة على أني لم أكن أعرف حتى قصة محمد؛ لكن بدرية لا بد أنها سألت وتحرت عن هذا الرجل الذي يقيم في الكوخ العائم خلف الجزيرة. أشارت إلى القارورة التي في يدها:

«أرسلتها أمك».

هذه المرة كان لا بد أن تتفتح الورود في وجهي.

«شربات الورد، لأنك تحبينه...».

لا شك أن الورود في حديقة القصر الذي في إسطنبول أزهرت، اعتادت أمي أن تصنع المربى بالزهور التي تتفتح أولًا ثم الشربات بما بعدها، إذًا فهذه القارورة لمست يد أمي، وربما هجران وفاطمة أيضًا، تطلعت إلى الشربات الذي يتأرجح ويرتج بلونه الزهري الفاقع في فراغ الغرفة كما لو أنه جزء منهن، وكأن في قارورة الشربات تلك سعادة وحب أمي وأخواتي.

وجدتني أقول: «وغير ذلك؟ هل أرسلن شيئًا آخر؟».

فوبختني بدرية: «هكذا تكونين طماعة جشعة، ترغبين دائمًا في المزيد، وعلى هذا المنوال لن يكفيكِ هذا العالم، كل ما أصابك بسبب هذا في الأصل، بسبب الفضول والجشع!».

خطر على بالي أن أتجاهلها؛ لكنني على العكس من ذلك أمرتها كأنني أريد تذكيرها بمن تكون:

«ضعي الشربات أمام النافذة، واتركي فوهته مفتوحة، ثم اذهبي!».

فعلت بدرية ما قلته لها دون أن تتخلى عن قُبحها:

«ستخمرينه مثل الشراب وتشربينه هكذا؛ أليس كذلك؟ أنا أعرفك...».

«ربما يكون هذا غير مناسب لامرأة حامل؛ لكن لا تنسي، أنا أحمل بذرة خطيئة في بطني على أي حال، فماذا يحدث لو دنستها

بالخمر؟».

«أحيانًا أقول، ليت عندك عقلًا مثل كل الناس الآخرين!».

تبادلنا النظرات لمدة قصيرة، آلمتني بكلمتها الأخيرة، من المؤلم أن يراك الآخرون مريضًا ومعيبًا وناقصًا، لأنك تعلم أنك لست كذلك، وعلى الرغم من أنك لا تغتاب أحدًا؛ يستمر العالم في اغتيابك وجعلك قصة، هذا أسوأ ما في الأمر، من الصعب جدًّا تحمله.

فعلت بدرية ما قلته وغادرت.

استغرقت بعد الظهيرة في متابعة لون الشربات وهو يتخمر تحت أشعة الشمس، ثم انتابني النوم فغفوت، وعندما استيقظت وجدت أني عدت من على شفا كارثة كبيرة.

20

لم أستطع في البداية فهم ما حدث، كان أحد طيور السنونو التي كانت تبحث عن عشها يرقد في قاع قارورة الشربات، اقتربت من النافذة، أدركت من اللحظة الأولى أن المسكين تقيأ ما بجوفه، فأطلقت صرخة.

ظنت بدرية أنني ألد، فجاءت راكضة ورأت موت الطائر بعينها.

«واه واه واه، يبدو أنه تسمم!».

يبدو أنه تسمم؛ لكن كيف؟ لقد تذوق شربات الورد قبلي؛ ألهذا؟!

أيمكن أن يكونوا قد أرادوا تسميمي؟

تهاويت أرضًا على الفور، كيف يحدث هذا؟

عندما يدرك الإنسان أنه غير محبوب؛ ينهار العالم فوق رأسه، أكان قتلي صعبًا إلى هذه الدرجة؟ ألم يكن هناك الجلادون الطائفون بالأرسنة الزيتية في أيديهم. ينهون أمري مقابل كيس ذهب، بدا الأمر كما لو أنهم لا يريدون ارتكاب ذنب ولا أن تلطخ أيديهم بالدماء.

قالت بدرية: «هناك شيء غريب في هذا الأمر! فوالدتك استشارت عالمًا، وقال لها «قتل المرأة الحامل جُرم’».

«إذًا لماذا أرادت قتلي؟».

«لأنه كانت لها الحرية في نهاية المطاف، كم هو مؤسف أن يذهب الإنسان إلى جهنم في الآخرة بعد كونه حرًّا في هذه الدنيا! لا ينتابني الفضول حول الجنة وإنما الحرية في هذه الدنيا».

«كفى! نفد صبري، دفنتيني هنا حية، لقد دفنتيني في خطيئتي كأنها التراب! أقسم إنني استهلكت وانتهيت، ذبت مثل الشمعة، ألا ترين؟».

كنت أشعر أنني عاجزة بشدة.

ما من أحد يقدم حيلة لمن لا حيلة له، الجميع يحب القدرة والقوة، الجميع يعبد القوة، القوي يربح؛ في حين أن الإنسان أضعف مخلوق. الأمواج تجره، والرياح تطيح به، والفيضان يغرقه، والزلزال يخسف به في أعماق الأرض، والنار تحرقه، وتجعله رمادًا. ما إن يصيبك مرض أو حزن حتى تجد نفسك في المغسلة. الإنسان هو الأضعف؛ لكن كل ما يصنعه بيديه هو الأقوى. الحديد يقطع، والبلطة تقسم، والحبل يخنق، والسكين يُشرح، والسموم تسمم، والبارود يدمر. كيف من الممكن أن يكون الأضعف هكذا في مواجهة الأشياء التي يصنعها بيده؟

قالت بدرية: «يا صبر!».

كان موت الطير الذي تقيأ ما بجوفه وأوشك على الموت بيدي، الطير المسكين الذي تجرع جرعة من الشربات خاصتي الذي وضعته أمام النافذة كي يتحول لخمر! باتت يداي وراحتاي الآن فراشًا ورديًّا ناعمًا له.

قلت: «أصعب شيء الصمود في مواجهة الموت والحب».

«كل إنسان لديه قدر من الصمود لأجل كل شيء، لو لم يكن هكذا لكنت ألقيت بنفسك للأسفل، ولما لبث كل شيء أن انتهى بالنسبة لك، لكنك تتحملين، وتقاومين، أنا قاومت على الرغم من أنني جارية، إن تفريط الإنسان بروحه أعظم الذنوب».

نظرت إلى بدرية برعب؛ أما هي فأخرجت منديلًا من جيبها وأخذت جثة الطائر التي في يدي:

«ليس من الجيد نظر امرأة حامل إلى جثة مدماة».

«ماذا ستفعلين به؟».

كانت بدرية قد قامت منذ مدة بلف جثة الطائر بكفنها.

«سأدفنه في ركن في الحديقة؛ لا تقلقي أنتِ!».

حتى ذلك الكائن الصغير كم كان فيه من دماء.. تفتحت وردة حمراء قانية في المنديل الملفوف فيه.

اعتقدت لسبب ما أنه لن يصيبني ضرر من بدرية بعد الآن،

كان الأمر كما لو أننا قد أدينا اختبارنا بالكامل، قامت بدفن جثة الطائر في زاوية حيث يمكنني رؤيتها من نافذتي كأنما تريد إثبات أنها عند كلمتها، لم يفقد الطائر الذي تسمم ومات بدلًا مني الأمل حتى اللحظة الأخيرة، حتى لو كانت حماقة فقد ظل يفكر أنه يمكنه العثور عشه في مكانه.

الأمل هو القوة الوحيدة للإنسان. الحب والأمل ماء الإنسان، وجوهره، وفطرته. وإلا فكيف يمكننا التحمل؟ فكرت في عمر بدرية. ذات مرة في طريق العودة من الكورنيش رأينا العربات التي تقل نساء السرايا. فركضت خاصتنا وراءها؛ ركضت معتقدة أن أختها التوأم بداخلها؛ على الرغم من أن الجميع كانوا ينظرون إليها ويسخرون منها وعلى الرغم من أنها رأت احمرار أمي مثل الطماطم من الغضب، ركضت مهما كلف ذلك من إحراج سيدتها. ركضت وهي تعلم أنها ستعاقب على هذا، وماذا حدث في النهاية؟ أوقف أحد آغات الحريم العربات التي تجرها الخيول ونزل فضربها بالكرباج أمام الجميع.

ذهبنا إليها عندما تلاشى غبار العربات واستأنفت السير في الطريق من جديد. كانت خاصتنا تبكي منتحبة بين التراب والغبار، ضربت عمتي التي كانت معنا ذلك اليوم عصاها بالأرض وسألتها بغضب:

«هل أردت أن تؤذي نفسك؟».

قالت والدتي: «همها ليس أذية نفسها، بل جلب العار لبيتنا».

تساءلت من منهما على حق. ودافعت هي عن نفسها في مكانها حيث تتلوى:

«لقد ركضت وراءها بأمل، لم أستطع منع نفسي. الأمل؛ إنه مثل الظلام والنور، أنا أيضًا لدي أمل».

تلقت ضربة العصا الأخيرة من عمتي عقب كلمتها هذه.

نزل العكاز الذي كانت عمتي تحمله في يدها على الدوام مثل العصا على منتصف جبهتها وانقسم إلى شطرين:

«الأمل هو طائر جناحه مكسور، لا أحد يستطيع الطيران به. بدلًا من تصديق هذه الأفكار الفارغة؛ قومي بعملك جيدًا!».

ربما صارت هذه النصيحة قرطًا في أذن بدرية وفعلت كل ما قيل لها.

والآن هي واقفة في الحديقة ترنو إلي بطرف عينها ويداها ملطختان بالتراب. لاحظني الجيران الذين جاؤوا لرؤية قصرهم الذي لا يزال قيد الإنشاء، فأخذوا ينظرون نحو النافذة ويتهامسون. فانسحبت للوراء. الجميع يعلم على ما يبدو، ولا ريب أن وصول ما يعلمه الجميع إلى أبي وأخي على قيد شعرة. أما أنا فلم أعرف إلا حديثًا أن الجميع عرف: لقد كنت ساذجة لدرجة أن أفكر بأن إنجابي لطفلي غير الشرعي سيبقى سرًّا.

شعرت بخيبة الأمل، وكيف أني خدعت نفسي، الجميع يعرف. جال بخاطري أنه علي الاستمرار في مواساة نفسي. فها هو الصيف يمر ويمضي؛ تخليت عن عد الخدوش التي على إطار النافذة، قبلت ما حدث؛ وعلاوة على ذلك وقعت في الحب، كان لدي أمل في الحب، عشت أجمل يوم في حياتي، وسأعيش المزيد.

نسيت بدرية في تلك الليلة إغلاق باب الغرفة. أو بالأحرى لم تصعد إلي مرة أخرى بعد دفن الطائر في الحديقة. يبدو أنها ظلت نائمة في الطابق السفلي. ماذا فعلت وأتعبها حتى كان صوت شخيرها يُسمع كالرعد.

شرعت أنا الأخرى في مشاهدة البحر المظلم، ثم ظهر ضوء وامض فوق البحر، أردت ملازمة هذا الضوء، فنزلت إلى الشاطئ، وحملت مصباحًا في يدي. قلت بيني وبين نفسي «ليت!» «ليت ضوء المصباح الوامض على البحر يعود لقارب محمد!».

21

تسلل القارب في ظلام الليل واقترب من الشاطئ، ابتسمت، وتململ الطفل في بطني، لم أكن قلقة بشدة هذه المرة، أمسك محمد بيدي، طبع قبلة رقيقة على طرف أصابعي وحملني إلى القارب، أبحرنا في ظلام الليل، إذا قلت لي احصي الذكريات واللحظات القليلة في حياتك التي امتلأت فيها بالطمأنينة؛ فهذه إحداها، كانت شمس دافئة تشرق في أعماقي مانحة إياي السعادة والأمان، لا أعرف كيف تُوصف المشاعر الجميلة بشكل آخر؟!

الطمأنينة تجلب الهدوء، هكذا كنا نتحرك الآن داخل هذا الهدوء؛ كأنما هو عالم يحمل جمالًا لم تره عينانا من قبل وليس ظلامًا نسير ونتقدم فيه، علقت ابتسامتي على وجهي وأنا أنصت لصوت المياه المتدفقة من طرف المجدافين الممسك بها محمد، ظلت الأسماك اللامعة تقفز بين الفينة والأخرى، فكانت تبدو كما لو أنها قطع ألماس بديعة تنسكب وتقفز فوق البحر حالك السواد وبدا وكأنها تقفز حولها، لو هناك شيء يُقال عليه سحر، فهو هذا.

إنها المشاعر التي تجعل كل شيء جميلًا، فما يجعل شيئًا عزيزًا عندنا ولا يُنسى؛ مشاعرنا تجاهه، سأل محمد بهدوء بعد مدة:

«بم تفكرين؟».

قلت، «لا شيء!»، إجابتي كانت بحر محيط أوسع من هذا البحر، فكرت أنني لا أستطيع إخفاء شيء عنه، كانت أمي تقول لنا عندما نطلب المستحيل:

«أيمكن إنزال النجوم التي في السماء إلى الأرض؟ تنطفئ حينئذٍ. أيمكنك تحويل الريح عن مسارها؟ لا تكفي قوتك لهذا!» ما تريدونه مني شيء مثل هذا. من عاشر المستحيلات!».

انطلقت الكلمات متدافعة من فم أمي القُدسي ذلك: من عاشر المستحيلات.. أحببت كلامها هذا كثيرًا، وأحبته هجران أيضًا، حاولت فاطمة في بعض الأوقات تقليد حالة أمي هذه، كم اشتقت إليهن! كان مزاجي مثل البندول، ولم ألبث أن وجدت نفسي أنحاز إلى القلق واليأس مرة أخرى، لم تفنَ وتذهب هذه المشاعر التي سممتني على أي حال، كنت أحاول فقط منذ بداية الليلة أن أخفيها داخل المشاعر الجميلة:

«لم أجلب السعادة لأحد يا محمد!».

هل كان هذا شيئًا يُقال في أسعد لحظاتنا؟! لكنني كنت هكذا، مهووسة بألا تدوم لحظات السعادة طويلًا مثل شعلة عود الثقاب:

«أخشى تدمير حياتي الجميلة تلك الخفية السرية التي بنيتها في الكوخ العائم في وسط بحرك، بدا ذلك الكوخ لي بعد أن علمت أنه هارب مثل برج الفتاة المرتفع في قلب إسطنبول».

«القلوب عند بعضها، بينما كنت تنتظرينني على الشاطئ وفي يدك الفانوس خطرت على بالي قصة عشاق برج الفتاة، أتحبين حكايتها؟».

«ياله من عشق! عندما جاءت عمتي أول مرة إلى إسطنبول، ورأت هذا البرج على مرمى سهم من الشاطئ؛ سقطت مغشيًّا عليها، أغمي عليها من انبهارها به، وبعد أن عرفت قصته، لم تشبع من روايتها، ونحن كذلك كنا نصغي إليها».

«احكيها، أود سماع القصة التي أعرفها مثل اسمي مرة من فمك».

«شُيد البرج فوق صخرة مرتفعة حيث غرق أحد أولئك العشاق، ولكن ما يثيرني أكثر هو عدم تمكن الأميرة التي تم التنبؤ بوفاتها من الهرب من الموت ووفاتها هي الأخرى هناك».

«وصل إلى الأميرة التي كانت تختبئ في وسط البحر الثعبان الذي سيقتلها».

«لا مفر من الموت، أنا لا أخاف الموت، أنا حزينة فقط لانفصالي عن أحبائي».

«لماذا تتحدثين عن هذه الأشياء الآن؟».

«ربما أنا أيضًا أفعى أتت مختبئة في السلة بين العنب، ربما أنا كارثتك؟ من يدري؟».

«نحن وجدنا بعضنا بعضًا، لا تقلقي لن نفقدها، لا تتعبي رأسك الجميل بالمصائب».

ثم صمتنا، وتخللت أعماقنا رائحة البحر اللامع المحيطة بنا بينما نشق ببطء طريقنا في جوف الظلام، يا لجمال رائحته يا ربي! عدل هذا مزاجنا، تحدثنا في صحبة نسيم البحر وأصوات الليل عن أمور أكثر متعة.

توقف محمد عن التجديف، فتوقف قاربنا في الظلام، بدا الأمر كما لو كنا معلقين في الزمن، بدأنا نُحدث بعضنا بعضًا عن أشياء مسلية، إن قلتم مثل ماذا؟! تحدثنا عن المقالات الخفيفة التي في المجلات، كان محمد يعرف من محادثات والدته وشقيقته ما تحتويه هذه المقالات، على سبيل المثال: «سبل التألق كنجم في مجتمع».

وعقب استنكاره: «ألا أعرف هذه المقالة التي تناولت هذا؟! كيف؟!» أفضيتُ بالمقالة التي بقيت في عقلي:

«لا بد أن تقف منتصبًا كما لو أنك ابتلعت شوبك، وأن تنظر برأسك قليلًا للأعلى وتلتف بخفة عند الضرورة. لا بد أن يتحرك جسمك حركات قليلة؛ لطيفة لكنها حازمة. قدم صدرك إلى الأمام مثل صدور الحمام. هذا مهم لكل من الرجال والنساء. لا تتكوم على نفسك مثل الضعيف! تحدث قليلًا، واستمع كثيرًا! لا تضحك على كل شيء، اضحك قليلًا للغاية! لا تتطلع بعيدًا وتشرد مستغرقًا، ولا

تنظر بفم مفتوح! لا تحول عينيك! لا تتناول طعامك بسرعة، ولا تشرب شيئًا بسرعة! افعل كل شيء على مهل لكن دون أن تجعل من حولك يسأمون! لا تشارك في القيل والقال؛ لكن استمع إلى ما يُقال بعناية! لا تعبس بوجهك، ولا تظهر لغدك! لا تبين ما تكرهه ولا ما تحبه، ولا تظهر نقاط ضعفك لأحد؛ لكن لا يبدو أيضًا أنك بلا مشاعر، ولتكن على شفتيك ابتسامة خفيفة دائمة. لا تتثاءب، وإذا اضطررت إليه فاحرص على تغطية فمك!».

قال محمد ضاحكًا ملء فيه: «لقد حفظتها».

«أهذه فقط؟ إذا أردت فدعني أحكي لك أيضًا كيف تجد زوجًا صالحًا؟».

«ألا يوجد ضمن هذا كيف تعثر على حبيب جيد؟».

«إذا استمررت حبيبًا جيدًا، فربما أكتبها أنا عندما يحين الوقت».

نظرنا لبعضنا، وجلسنا متقابلين. تلامست ركباتنا، وتماسكت أيدينا فقط. كنت أعلم أنه يحترم الطفل وحملي، انتابني في تلك اللحظة شعور غريب وكأنه هو والد طفلي، وأننا نترقب ولادة طفلي بفارغ الصبر، لا يلمسني لأنه محظور، عندما كانت فاطمة حاملًا، كانت تنام منفصلة عن زوجها طوال تسعة أشهر، فعلت هذا قائلة حسنًا لأن رائحة الحلبة تصيبني بالغثيان؛ لكن المعلمة التي درست لنا نبهتني أنا وهجران إلى هذا الأمر بقولها: «ليس مناسبًا بعد خمسة أشهر، وحتى قبل ذلك بكثير إذا كان هناك

خطر الإجهاض».

قالت هجران «واأسفاه علينا!» منفجرة في الضحك، وسمعنا توبيخًا من المعلمة، أعجبني أن تكون هجران مولعة بالمتعة والنشوة مثل الرجال.

استعدت انتباهي مع كلام محمد، «هيا، فأنا أنتظر، كيف يكون زوجك طيبًا؟».

«اسمع إذًا: الزوج الطيب لا تفوح رائحة قدميه ولا يسيل أنفه. لا يضرط في الفراش ليلًا ولا يشخر، الزوج الطيب ليس حاد الذكاء ولا جاهل تمامًا ولا أحمق أيضًا، الوسط هو الأفضل في كل شيء، حتى في الفراش! أهو أسد بري؟ أم دب نعسان؟ كيفما تريد أنت. لا بد أن يكون من يطلق عليه زوج ملبيًا لمتطلباتك كما تمنيته أن يكون، وإلا يضرك أكثر ما ينفعك، يطلقون على الزوج لو كان طيبًا «سُمبل»؛ لكن زوجك يبقى اسمه «زوج»! إياك أن تتزوجي زوجًا مفلسًا! ولا تأخذي زوجًا فاحش الثراء؛ لكن بعضًا مما نطلق عليه السعادة متعلق بالقرش الأبيض، فإياك أن تنسي هذا! إذا أردت من زوجك أن يشتري شيئًا أعجبك.. فلا تقولي هذا «فجأة»، تنهدي أولًا أمام الشيء الذي أعجبك وتريدينه، ثم تنهدي مرة أخرى، لن يفهم هو لكنك تعرفين ما تفهمينه، دون أن تقولي «أنا أريده» أبدًا، فالرجال حمقى، منحهم الله العلي القليل من القوة لئلا يختفون ويذهبون، ووضعهم أمامنا وقال «استوعبيه أنتِ!» أي يا معشر النساء اعلمن أنكن أكثر ذكاء وقوة من الرجال! تمردن على سلب

قوتكن من قبل المجتمع!».

انفجر محمد ضاحكًا من أدائي، ثم انطلقنا عائدين، وابتساماتنا تتطاير على العالم كما الماء المتدفق من طرفي المجدافين المعلقين، ليتنا لا نعود أبدًا، ليتني أمضي حياتي كلها مرتحلة مع حبيبي في ذلك القارب.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

22

مرت خمسة عشر يومًا بلا أحداث بعد اليوم والليلة التي تكلمت فيها، كان الجو حارًّا لكني لم ألتفت لهذا أبدًا، كنت مقاومة للحرارة مثل الصراصير، انساب شيء في أعماقي أكثر حرارة من حر ذلك اليوم الأشد حرارة.

حدقت بدهشة في بركة المياه العكرة أسفل قدمي، كأنما تدفق نهر بين ساقي، هكذا أتذكر ولادة الطفل، كأنما الخارج من داخلي ليس طفلًا؛ وإنما نهر أو غدير أو جدول.

خفت في تلك اللحظة لدرجة أنهم لو سألوا «أهي ولادة أم موت؟» لقلت «موت!» فهذه الولادة كانت موتي في الوقت ذاته؛ لكن مهما فعلتم، لا يمكن معرفة ما بأعماق الإنسان.

أغلقت بدرية فمي بإحكام، وكان الجيران في تعريشة حديقتهم، فالحرية التي أتاحتها الجزيرة للنساء: أن يجلسن متمددات دون ارتداء عباءاتهن وأن يكشفن رؤوسهن في عرائشهن التي يحسبن أنه ما من أحد يستطيع رؤيتهن داخلها، كان بإمكاني الرؤية بعيدًا للغاية حتى المروحة الدانتيل التي ترفرف كجناح الطير، والاستماع لأحاديثهن أيضًا وسماع قهقهاتهن، كنا نحن وأمي سعداء بهذا فيما مضى، سنكون أكثر سعادة في هذا القصر، لو

لم تحل بي هذه اللعنة، فربما كنا سنضحك ونستمتع مثلهن هذا الصيف نحن أيضًا، الطريقة الوحيدة للابتعاد عن الألم والحزن اللذين يؤثران على روحك هو الانجراف في فكرة أخرى، وفي حلم آخر، وفي خيال آخر حتى لو كان عبثيًّا وغير موضوعي.

حين أدركت أن الطفل قادم، ذهبت بخوف إلى الباب مباشرة وأطلقت صرخة، ربما سمعت بدرية هذه الصرخة وجاءت، لأن المحادثة المبهجة في طرف الجيران انقطعت فجأة، حتى إنني سمعتهن يتساءلن، «ماذا كان ذلك الصوت؟» أنزلتني بدرية إلى الطابق السفلي للبيت وهي تجرني، وبفضل هذا نظرت لأول مرة إلى قصرنا غير المكتمل بعين مبهورة، كان فارغًا، فارغًا ومفعمًا برائحة الخشب فقط، طلبت أمي جميع الأرضيات ودعامات الأبواب من الخشب المعطر، وقالت «كان منزل طفولتي هكذا»، «يفوح برائحة الشجر».

قالت فاطمة وهي لا تزال تقلد أمي وتتبعها بإعجاب: «أيمكن أن ينسى الإنسان طفولته يا أمي؟».

«الطفولة مثل السماء فوق رؤوسنا، لا تذهب إلى أي مكان، حتى لو تغيرت الفصول، وغيرت السحب مكانها؛ تبقى معلقة فوق رؤوسنا مثل السماء».

استدار كلاهما فجأة لي وحدقا في كأني نطقت بأغرب شيء في الدنيا.

كنا قد وصلنا حديثًا، ولا نزال فوق درجات السلم المثبتة حديثًا على درجات القصر.

حتى إن هجران التي كانت ترى غرفنا ودواليبنا بالداخل أتت وسألت: «ماذا قالت مرة أخرى؟» كانت أكثرنا دلالًا.

بدأت أمي السير نحوي كأنما تريد غرز مظلتها في منتصف صدري، وأسنانها تجز على بعضها كما يحدث عندما تغتاظ وتغضب، وعندما يحتدم غضبها مثل البحر الهائج، وعندما لامس طرف شمسيتها صدري في النهاية، تقيأت الصديد الذي في أعماقها:

«أنتِ، أنتِ، لماذا أنتِ هكذا! لماذا أنت غريبة وعجيبة! لماذا تفكرين في أمور غريبة ومختلفة عنا وعن الآخرين وعن الجميع؟! لماذا لا يمكنك التكيف مع هذه الدنيا!».

كانت عمتي تقول: «الغريب في الأمر، أنك أجملهن، تفعل هكذا لأنها تعتقد أنها لا تستطيع أن تعطيك للزوج الذي تريده، فهي تعدك عدوة، أنت تلعبين بمستقبل والدتك، لأنها تعلم أن من تعطيكِ له، سيضع صُرتك في يدك في اليوم التالي، ويرسلك إلى بيت أبيك».

«لماذا؟».

«لأنك متمردة وذات روح حرة، لا تحنين عنقك لأحد».

«سأقع في الحب على أي حال وأتزوج».

«وكأن الحب يُباع في السوق! اركضي يا هانم اركضي! اذهبي واشتريه قبل أن ينتهي!».

لم أكن مثلهن، وحطمت حلم أمي؛ لكن على الرغم من ذلك كانت هناك محبة بيننا، كان غضب والدتي مثل لهيب التبن، داعبتني بشمسيتها التي وخزتها في صدري قبل قليل، وضربت مؤخرتي، واستمالت قلبي:

«الدولاب الذي صنعته لك أوسع، فكرت أنك ستغلقين على نفسك بداخله مثل كوسم سلطان، أكانت فكرة جيدة يا ابنتي العنيدة، ابنتي المتهورة، ابنتي الحالمة والمجنونة بنفس القدر، ابنتي النبيلة ذات القلب الذهبي».

نظرت إلى أمي وضحكت، كنت بحاجة إلى أن أكون محبوبة، ثم داست على تنورتي فسقطت على الأرض وسخروا مني، كنا هناك بالضبط: على الدرجة التي تسربت عليها المياه التي بدأت تختلط بالدماء من بين ساقي.

قالت بدرية: «لقد أعددت مكانك مسبقًا».

كان دوران الدرج جميلًا بقدر تماثيل الملائكة الرخامية السمينة التي تقف متواجهة على الأبواب المفتوحة على البهو.. لتسلم أمي؛ تعاملت مع هؤلاء بعناية كما لو كانت تصنع صالونًا للحلاقة، نزلنا إلى القبو وأنا أسلي نفسي بأمور أخرى، لماذا أرادت بدرية أن ألد هنا؟

23

كان القبو يفوح برائحة الرطوبة منذ الآن، ونوافذه التي في مستوى الحديقة مفتوحة، على الرغم من ذلك تفوح رائحته، كانت بدرية قد أعدت سريرًا لي كما قالت، وأرقدتني عليه بعناية، لسبب ما كانت سعيدة، كأن أسرنا انتهى وكل شيء وصل لنهايته، قالت:

«انتظري! سأحضر المياه المغلية».

قلت باكية: «لا تتركيني!».

«لا تقلقي! فالأطفال لا يولدون بسهولة، بل يجعلون أمهاتهم تتلوى لساعات».

قالتها ثم ذهبت، وبقيت بثقلي وبألم رهيب بين فخذي في مكان على السرير في ذلك القبو شبه المظلم الذي يفوح برائحة العفونة.

كنت أنجب.

وقف غراب فضولي في فتحة النافذة ينظر إلى الداخل ويحول رأسه هنا وهناك، ولم يرفع عينيه عني. كم أن الغربان كائنات عجيبة، في طفولتي ظل أحدهم يحضر لي الهدايا لأني اعتنيت به، ما أقصده بالهدايا هو أجزاء عظام، ودبابيس ضائعة، وأزرار، وأحجار، وخرق، وأوراق. كانت هجران التي تحب الغربان أكثر

مني تغير مني، هجران الغيورة! جمعتهم كلهم في صندوق، عثرت أمي عليه فرمته وتخلصت منه بما فيه.

عندما دلفت بدرية إلى الداخل بمرجل الماء المغلي المتصاعد منه البخار؛ بقي فمها مفتوحًا من الدهشة؛ لأن الطفل كان قد ولد، شعرت به يخرج دافعًا نفسه من بين فخذي ويسقط على السرير، نظرت للمولود وأخذت هذا الصغير المسكين الذي لم تبق لديه قوة للبكاء ووضعته على صدري، كان مربوطًا من سرته إلى ما بين فخذي بحبل سميك أرجواني لامع أصاب معدتي بالغثيان. كادت بدرية من دهشتها أن تحرق نفسها بمياه المرجل التي في يدها، وضعت المياه المغلية في جانب وقالت: «يجب قطع الحبل السري!»، ثم فعلت ذلك بمهارة وكوفلت الطفل مثلما لفت الطائر الميت تمامًا.

قالت: «أحسنت، ولدت في لمح البصر».

أخذت الطفل من حيث خرج بغريزة غريبة ووضعته على صدري ثم استلقيت على ظهري متهالكةً من التعب، نظرت إلى الطفل باشمئزاز، في حين أني لم أكن حاملًا بمحض إرادتي ولا قسرًا، وفي حين لا يمكن استيعاب أني حامل حتى؛ ربما كنت فقط ضحية فضولي. كنت أشعر بالفضول وأريد أن أكون حرة تمامًا مثل الرجل، كنت أتساءل عن اللذة، ونسيت أن هذا العالم مخلوق لأجل الرجال!

24

وضبنا حالنا بعد فترة وجيزة على أننا سنعيش هنا، كانت بدرية تُجشئ الرضيع وتهزه في الأرجوحة الموجودة؛ أما أنا فرقدت متعبة لأيام وليالٍ متعجبة من كيفية ولادتي. في البداية بعد الولادة مباشرة بردت وصرت أرتجف بشدة، تخبط فكاي بعضهما ببعض، واصطكت أسناني، على الرغم من أن الجو لم يكن باردًا، فألبستني بدرية جوارب ثخينة وغطتني بلحاف سميك كأنه محشي بالتراب، فسخنت وتصببت عرقًا، كان يغطيني العرق والدم أثناء الولادة، حتى إنني كنت مبتلة تمامًا وكأنني أرقد على سرير داخل المياه.

وفي النهاية أتى الطفل إلى الدنيا.

قالت بدرية بإحباط: «ولد!»، كأن هذا سيُصعب عملها، ويدمر خطتها؛ أما بالنسبة لي، فكنت أفكر لسبب ما أنني سألد فتاة؛ لذا كنت متأهبة لقول «المسكينة، هي أيضًا جاءت إلى هذا العالم». فوجئت. أي إني ولدت ذكرًا، ذكرًا حرًّا بالفطرة.

لم ينزل لبني، فاستأجرنا مرضعة لأجل الطفل، كانت بدرية تصعد إلى البرج كما تقول لتسأل: «هل مُتِّ أم ما زلت حية؟» وتوضح كل شيء بصوت هامس:

«الطفل هو ملاك في هذا العالم حتى يتم الأربعين يومًا. الصبي. ملاك. حتى إن المواليد يعرفون أكثر منا، ولدى ولادته يضغط أحد الملائكة العظماء من عند الله على شفتيه ليصمت ولا يتكلم، فالخط المستقيم بين شفاهنا وأنفنا أثر إصبع الملك».

كانت قد حمت الطفل ونظفته، وعندما أحضرته لي لأراه، دفعته بعيدًا ولم أرغب في رؤيته:

«هذا الطفل ضيف عند الله أربعين يومًا، ما فعلتِه ذنب، انظري إلى وجهه حتى لو متصنعة إلى أن يبلغ الأربعين، وإلا فإن العاقبة ستكون وخيمة».

قالت ذلك ودسّت الطفل تحت ذراعي بالغصب، وعندما ذهبت نظرت إلى عيني الطفل المسحوبتين وإلى فمه الخالي من الأسنان ولم أشعر بأي شيء!

25

نهضت على قدمي بعد أربعين يومًا، من يدري كم قلق علي محمد؛ كانت هذه هي الفكرة الوحيدة التي تسيطر على تفكيري، سخنت الحمام واغتسلت جيدًا. كنت سعيدة بنزول بطني. عندما أنهت فاطمة أربعينها؛ أعدت لها أمي حفلة النفاس، أكلنا وشربنا واستمتعنا. وكسرت أنا بيضة البطة المعلقة في بطن فاطمة؛ لأن أكثرهن رشاقة كانت أنا، ثم لف حزام بطول أربعين ذراعًا حول بطنها بإحكام، لكي يكون بطنها مسطحًا كما كان من قبل. لم يتم عمل أي شيء من أجلي، فهمت هذا، أيمكن إقامة احتفال بالخطيئة ها! قمت بتنعيم شعري ومشطته كما لو كنت أمشط شعر طفل صغير، كانت عيناي مثل حبتي زيتون، قال محمد إنها كذلك. ارتديت ملابسي لأجل الخروج.

رأيت المرضعة تدخل من الباب مغطية يديها ووجهها وملفوفة بشرشف حالك السواد، انتظرت مروري وأدارت وجهها إلى الحائط كما لو أنها لا تريد مقابلتي، آلمني فعلها هذا فسألتها:

«هل أنت مرضعة؟» لكنها لم تجب.

«انظري إلى وجهي! أحرام نظر المرأة للمرأة؟» لم تدر وجهها وتنظر إلي على الرغم من قولي هذا، وأنا أيضًا لم أصر عليها كثيرًا، لا أريد أن تسمع بدرية صياحي وتقف كالحائط أمامي.

خرجت عقب هذا، كنت ذاهبة إلى محمد.

لم أكن أرتدي عباءتي، بفرض أنني لم أعد أحتاج لساتر يغطي خطيئتي، فحتى المرأة التي ترضع الطفل اعتبرتني نجسة، ولم تنظر إلى وجهي، لم أرتدِ عباءة لكنني غطيت رأسي، تلحفت بأحد شيلاني الوردية الذي مزقته فاطمة وهجران وربما أمي والذي رتقته وخيطت ظهره بإبرة الأعمال اليدوية. كان قصرنا يقع على شارع نظام، عبرته على الفور فقابلني مطلع، تؤدي الطرق الصاعدة من هنا إلى غابة الصنوبر، كان بإمكاني الوصول إلى الجزء الخلفي من الجزيرة دون أن أظهر لأحد، أو دون أن يراني الكثير.

جال بخاطري: «الحب جميل بقدر الدنيا»، كنت في طريقي لرؤية الرجل الذي لم أره منذ وقت طويل مرة أخرى، كنت حاملًا آخر مرة رأيته، أقول آخر مرة رأيته، فكل ما استطعت رؤيته ثلاث مرات بالفعل، ربما سأذهب بشجاعة بعد هذا لرؤيته، كنت أعلم أن هذا هو الحب، فالحب شيء لا يمكن الحديث عنه بإسهاب، الحب قصير مثل اسمه، الحب يقع بمجرد الرؤية، كلما تحدثنا أكثر ونظرنا أكثر؛ كلما اشتعلنا وتوهجنا، من يدري ماذا يحدث عندما يلمس الإنسان حبيبه؟

«أترون ستمشي في الطريق بعدئذٍ مبتسمة وهي تتحدث مع نفسها».

صادفت جيراننا رغم محاولتي الاختباء، على هذا المنوال سينتهي القصر المجاور قبل قصرنا ويصبح مؤهلًا لساكنيه؛ أولئك الذين يأتون لتفقد قصرنا وإحضار الشربات المسموم الذي حسبت أن والدتي أرسلته، حزنت لما قلنه عني، وحز في نفسي نظرهن إلي كأن بي شيئًا غريبًا؛ لأنني لم أكن كذلك، فأنا أكثر منهن جميعًا لباقة ولطفًا، علاوة على قلبي المفتوح لدرجة رؤية فتحات الأبواب المغلقة، كنت قوية بقدر الصمود أمام كل ما عشته ومواساة نفسي؛ وأنتم الشاهدون؛ لكنهن احتقرنني. تضاحكت الفتيات وانضضمن إلى أمهن، كُنّ ثلاث فتيات مثلنا، تذكرت عندما رأيتهن أيامنا الجميلة التي أصبحت من الماضي وحزنت، تحشرجت أنفاسي، وامتلأت عيناي بالدموع. نحن أيضًا كنا ندور هكذا حول تنورة أمي، هن يمكثن في فندق جاكومو وليس في فندق كاليبسو مثلنا، وأمهن ليست ممن يفتخرن بقول «أنا أعيش مثل كوكونا». مثل أمنا، بيتهن محاط بالسدرات والأرائك، ولا يزلن يتناولن طعامهن على الأرض، لم يكن لديهن هوس بالغرب مثلنا، لا يدخلن الرسومات إلى بيتهن لأنها تفسد الصلاة والوضوء؛ لكنهن مولعات كثيرًا بالحلي والزينة، يمكنهن التنافس معنا في هذا فقط.

نحن أيضًا كان يعترينا الفضول مثلهن فنذهب لتفقد قصرنا الذي لا يزال تحت الإنشاء، وننطلق بعد الإفطار في طرق الجزيرة،

ولو تعبنا كثيرًا أو كان الجو حارًّا نخرج بالحنطور، وإلا كنا نسير شارع نظام بطوله أو ندور من الجزء الخلفي للجزيرة، كانت توجد في أيدينا أغصان زهور أيضًا، كنا نقطف أكثرها خلال عبورنا من أمام سور الحديقة على الرغم من تحذيرات أمي: عناقيد البنفسج، وزهور الجهنمية، وفروع الزيزفون، وأوراق العسلة، وأغصان الماغنوليا، وإكليل الجبل الأخضر الناضر، وزهرات الساعة[1]، والورود، وزهرات البلبل. سميناها زهرات البلبل، لأن أحد الأغصان التي تقطفها هجران في الربيع كان يظهر على طرفه بلبل، والله.

«انظرن إلى هذه! ارتدت عليها شيئًا مثل زوجات الكفار».

سمعت همسات من هذا القبيل، قطعت أمهن طريقي كأنما ترغب في تسلية بناتها:

«إلى أين هكذا؟».

كن يعرفن كل شيء، بينما كنت ألد في الخفاء وأشتاق لعائلتي كالمجنونة، كن يغتبنني، في تلك اللحظة شعرت أنه لا يمكنني مواصلة حياتي من حيث توقفت، في تلك اللحظة كدت أن أصبح أنا أيضًا متوحشة بقدرهن.

كانت طرق الجزيرة ساكنة، قد تظن أنه لا أحد يعيش في تلك القصور الضخمة، وأن الجن يلعبون بداخلها الكرة، لقد غرق

1- تسمى زهرة الآلام الحمراء أو البرية.

العالم ولم يبق أحد غيرك أنت والكلاب المسكينة والغربان حالكة السواد والزهور المنحنية.

«من الواضح أن العقل بعد الإنجاب يهرب بأكمله للمؤخرة، فمنجبات ابن الخطيئة لا يقبل بهنِ التراب حتى، يبدو أن الله أخذ العقل الصغير الموجود لديك، مؤسف ما فعلتِه بنفسك».

«وأسفاه عليكن بالأصل! يقولون عليكن مهلهلات وقليلات تجربة، معهم الحق من الأرض إلى السماء، وزوجك أيضًا بخيل، جيد للغاية! يقال إن دعوة والدات ابن الخطيئة تقبل؛ لأن الشيطان يتوسط لهن، سأدعو عليكن، إن شاء الله يقع موتك بأكثر ما تخشينه!».

انفتحت أفواه المرأة وبناتها فاغرة من دهشة، وكادت فكوكهن أن تسقط، حدث نفس الشيء لي في الواقع، اندهشت من نفسي. كم تحدثت كثيرًا! لقد تفجرت كلماتي مثل الطلقات النارية التي انطلقت عند ولادة الأمير ابن السلطان، اصفرت وجوههن وابتعدن عني خوفًا، كن خائفات لدرجة أنهن أوقعن الزهور التي كانت في أيديهن وراءهن، وبقي غصنا العسلة، وزنبق الرمل، وعنقود بنفسج ذابل، وقرنفل أحمر قان معقوفين على الطريق الترابي الوعر، استدارت أكثرهن سذاجة إلى الوراء ونظرت، لا تستطيع هذه الفتاة منع نفسها من النظر ومشاهدة شيء فاغرة فاها مثل هجران خاصتنا.

«قالوا إن لعنة المجذوب تبقى!».

سمعت الفتاة الوسطى الأكثر معرفة، وقربًا من والدتها تقول هذا، لم تفتح أمها فمها البتة، لم ينته ما كان عليَّ قوله:

«ماذا سألتني أنتِ أيتها المرأة المسخ؟ أقلتِ "إلى أين هكذا؟"لأخبرك، إلى حضن حبيبي!».

صرخت عليهن بقدر ما أستطيع، لم أعد أخاف من أي شخص، ولم يبق لدي خوف من أحد، عندما يتعرض الإنسان للإذلال والانكسار من الجانب الأكثر حساسية له؛ يرغب في تدمير كل شيء مثله، فمحطم القلب يحطم قلوبًا كثيرة، لأنه تعلم كيف يفعل هذا، لم أكن قد استنزفت قيحي وسمي بعد، ليقفن أمامي في الطريق، وكنت سأريهن ماذا يعني احتقاري:

«اثنتان من بناتك ليستا من زوجك! من صبي زوجك الأبله، لا تظني أني لا أعرف هذا أيضًا!».

انتبهت إلى وقاحتي.

وأني حدت عن الطريق.

وأني تصرفت بطيش.

لقد صرت على هذا النحو لأنني حزنة للغاية ومدمرة.

أحيانًا لا يأمر العقل بل القلب بما ستقول:

«من أرسل هذا الشربات السام؟».

هكذا فتحت الموضوع الرئيسي الذي يجب فتحه لتدمير نفسي وإذلالها أكثر، وقلت مشعلة الخنجر في يد عدوي «اغرزيه بجوابك في قلبي!»، ولم تفوت المرأة هذه الفرصة، فاستدارت ببطء في مكانها، وقالت ناصبة عينيها على عيني:

«حضرته أمك تلك محدثة الثراء؛ الشربات المسموم بيديها، وأرسلته لكِ! إلى ابنتها، خذن هذا إلى بدرية. ووضعته في يدي قائلة «لتشربه ابنتي، وتتماثل للشفاء'».

كأنني لا أعلم! ومع هذا عند سماعي هذه الكلمات، اندلعت النيران بأعماقي، لقد احترقت كما لو أني شربت ذلك الشربات وبتُّ رمادًا «انتهيت»! وجاء الوقت لنثر رمادي! واصلت المرأة كلماتها بولعٍ:

«كان الحل الأخير الإجهاض وموتك، لو لم تكن المُعالجة طويلة الباع في هذا قد ذهبت إلى الحج؛ لما كنت أنت وابن خطيئتك أيضًا تحييان اليوم، لكن هيهات! فبمجرد عودة المرأة من الحج ذهبت إليها والدتك التي كانت ترقب طريقها راكضة وجعلتها تحضر الشربات السام؛ لكنني أرى أن ذلك الشربات ذهب هباءً، انتظرت المسكينة خبر موتك الطارئ».

تمت التضحية بي، لم لا أريد تقبل هذا؟ يقاوم الإنسان الحقائق المؤلمة، يجابهها بأي ثمن، يصمد لأجل أن يخترقه الألم والحزن

ويمزقه مثلي، كانت أربع نساء يقفن أمامي مباشرة؛ مثل أربع بقع على الطريق المنحدر للأسفل، لقد انتقمن لأنفسهن كما يجب، أتعرفون ما هو الأسوأ؟ أن أمي وأختاي قضين يومًا جميلًا مع هذه المرأة وبناتها من أجل توصيلهن الشربات السام لي. لم تنه المرأة كلامها، طار غراب سمين حالك السواد من فوق رؤوسنا، كان لونه أسود أكثر حتى من حظي، كان حالك السواد؛ حالك السواد لدرجة أن ريشه كان يتلألأ بالأزرق، لا بد أن شجارنا أزعج سلامه، من المُحال عدم إعطائه الحق، حط في الطرف بعد أن حذرنا بطريقته، واستمر في المشاهدة، واصلت المرأة حديثها، وعلاوة على ذلك رفعت صوتها أكثر قليلًا:

«آه آه! كان عليهم أن يجدوا شيخًا ويزوجوكِ، لكنهم لم يجدوا زوجًا مناسبًا مهما فعلوا، كما أنهم خافوا من انفضاح الأمر لو وجدوا، حتى إنهم فكروا أن يقولوا إنك ذهبت للحج لكنهم تراجعوا لأن أحدًا لن يصدق، اغربي وابتعدي عن هنا الآن! ولا تخرجي أمامي ثانية أيتها المرأة النجسة! اذهبي!».

كن يغادرن مرتاحات بأخذهن انتقامهن؛ لكن أعماقي لم تكن قد هدأت بعد، فلم أستطع منع نفسي وصرخت وراءهن:

«عاهرات، عاهرات، عاهرات!».

ثمة قطرة أخيرة تجعل الإناء يفيض، لا تملأ الإناء فقط بل تجعله يفيض، الغضب شيء من هذا القبيل، لقد تجاوزت بكثير

حدود التحمل مع الجارات اللاتي صادفنني، رمت الأم الحجر الأول، وشاهدت رميات الفتيات اللائي نشأن في ظلها، كان هذا شيء لم أتوقعه أبدًا، انهمرت بغتة أمطار من الحجارة، كن جميعًا يبحثن هنا وهناك عن حجر يرمينني به، فيعثرن عليه، ويصبنني بسهولة لأنني لم أكن بعيدة، لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى اصطدمت بالأرض، وكان بإمكاني سماع الأصوات التي صدرت عن ارتطام الحجارة الكبيرة بظهري وجانبي، كما لو كنت خاوية، كان جسدي المرجوم يُصدر صوتًا، وكان صدى هذا الصوت يتردد، أصابت إحدى الحجارات رأسي، ووصل إحداهما إلى كاحلي وأخرى إلى نتوء عظمة فخذي، لقد حماني الله للمرة الثانية ليجعلني أؤمن بوجوده، الأولى عند عدم اشتعالي في النار، والثانية هذه، كنت على وشك أن أموت، أظن أن هذا ما أردنه، وكأنني أضرمت النيران في بيتهن بكشفي سر الأم أمام بناتها.

قالت أمهن وهي تلهث: «لنذهب!».

سمعت أصواتهن يتخلين عن إلقاء الحجر أو الاثنين الذي يمسكنه في أيديهن ويتركنه على الأرض، ومن ثم ذهبن جارّات أذيال عباءاتهن، ولا بد أن أكبرهن لم تستطع إفراغ غضبها إذ استدارت وركضت إلى جواري، استمرت في ضرب رأسي بمظلتها كأنما ترغب في تحطيمها، كان يمكن سماع صوت الغضب والكراهية الخارج من جسدها أثناء قيامها بذلك؛ كأنه تأوه، وخوار، وتنهيدة قوية.

نهرتها إحدى الأخوات بقولها: «خسارة يا بنت! ستنكسر

المظلة»، انقطع نفسها فتركتني حيث سقطت وذهبت.

انضممن إلى والدتهن تمامًا مثلما قابلتهن على رأس المنحدر، لم تكن مظلاتهن موسمية مثل مظلاتنا، كانت شتوية، ألوانها أخضر سيان وبني ورمادي وكرزي، استدار الحمقى إلى الوراء مرة أخرى ونظرن، ثم ذهبن وكأن شيئًا لم يحدث.

ورغم أني كنت مغطاة بالغبار، وكانت هناك سخونية في رأسي؛ إلا أنني انتابتني متعة غريبة جراء بقائي تحت الأقدام كما لو كنت شيئًا مبتذلا، عندما تذهب إلى عمق الإذلال تعتريك مشاعر وأحاسيس خفية مختبئة في انتظارك هناك، ربما كانت هذه وفقًا للبعض علامة على تجردك من إنسانيتك؛ لكنها ليست كذلك بالنسبة لي، فإن الشعور بالمتعة مقابل الإذلال يدل على أنك أكثر إنسانية، وأنك تخطيت مرحلة مختلفة تمامًا.

أصبحت بعيدًا عن الأنظار.

مرت عربتا حنطور متتاليتان في نهاية الشارع، وتوقفت الثالثة، لم تستطع الصعود لأن المنحدر كان مستقيمًا هنا، فكانوا ينزلون ركابهم عند بداية الشارع في الأسفل، نزلت امرأتان من العربة، وبدأتا صعود المنحدر ببطء، أخذت أشاهد القادمين وخدي مستند على الطريق، وعيناي شبه مغمضتين، ثم انغلقتا.

26

«ماذا جرى لكِ يا ابنتي المسكينة؟ أسقطتِ؟».

طرحت هذا السؤال واحدة من النساء اللاتي نزلن من العربة؛ ضخمة الجثة تبدو في منتصف عمرها، كانت ضخمة كثيرًا حتى إن ظلها غطاني مثل السحابة؛ وبرغم ذلك كانت عطوفة للغاية في انحنائها علي وإمساكها كتفي بيدها وهي تنهج متصببة عرقًا. كنت الآن في منتصف الطريق جالسة تمامًا كما لو كنت قد استيقظت في سريري، كانت المرأة ترتدي شرشفًا أزرق وحذاء بنيًّا، وكانت ضخمة لدرجة أني لسبب ما تعجبت من اتساع الحذاء لقدميها والشرشف لجسدها.

ثم.. ثم بدأت في البكاء كما لو أني قد أدركت الآن فقط الكارثة التي حلت بي، وأجهشت بالبكاء كطفل.

«واه يا صغيرتي. أتبكين من خجلك، أم لأنها تؤلمك؟».

ضممت فمي وهززت رأسي للجانبين بمعنى «لا!»، فمدت المرأة منديلها النظيف المعطر المفتوح مثل الزنبق الأبيض:

«خذي يا عزيزتي، امسحي دموع عينيك، وقفي لنرى! الدم ينساب إلى خلف أذنك، لا أحد يرانا هنا، وليس حرامًا، اكشفي رأسك!».

«ليس هناك شيء! لنذهب نحن! عرفت أنا هذه الفتاة».

كانت هناك امرأة أخرى، لم أكن أرى إلا ذيل عباءتها الكتان الكحلي، وعندما قالت ذلك، رفعت رأسي ونظرت. أنا أيضًا كنت أعرفها! كانت هذه المرأة صديقة أمي، كانت غنية جدًّا ذات يوم وذات مكانة لكنها الآن الابنة الوحيدة الباقية على قيد الحياة لعائلة فقيرة. دعتها أمي لتناول الطعام، كي توصل القماش للخياط كي يخيطه، وأوصت الإسكافي على بوت ونعل لها، كانت إحدى صديقات أمي المعدودات التي تقابلهن دون أن نكون بجانبها.

اندهشت المرأة التي أرادت مساعدتي، كانت داهية بقدر ما كانت ضخمة، كما كانت ذكية؛ وهاتان الصفتان من النادر أن تجتمعا في جسد واحد؛ لكن جسدها كان يتسع لكل شيء. كانت ممتلكاتها ثمينة وعطفها صوري لدرجة أنها انقضت بيدها التي تشبه المخلب للحصول على منديلها الذي مدته؛ بيد أني كنت قد وضعته بالفعل على رأسي حيث شعرت بالسخونة! ربما تلطخ بدمي، رأت هذا فزفرت، ضحت بمنديلها وشدت جذعها الذي كان منحنيًا فوقي.

من يدري كم شعرت بالفضول تجاه حكايتي؟ كانت ستكتشف ما حدث لي على بعد خطوتين أو ثلاث خطوات على الأكثر، فالمرأة الأخرى كانت تنظر لي باشمئزاز، لم أستطع تذكر اسمها؛ رغم قوة ذاكرتي.

تأبطت الأخرى الشبيهة باللوح ذراعها، وبدأت في الهمس لها على الفور، فنظرت إلي مرة أخرى بدهشة من يعرف، وانعقد هذه المرة حاجباها، لم يكن هناك أي أثر للعاطفة التي أظهرتها على وجهها منذ قليل، لا يوجد في هذه الدنيا أسوأ من النساء اللائي يشبهن الرجال بمرور الوقت، إنهن يفكرن مثل الرجال ويتصرفن مع المرأة الساقطة كالرجال الحقيقيين، هكذا هن إذًا! أعظم شر للرجال هو جعل النساء تشبههم؛ وإلا فإن على المرأة أن تكون حرة ومستقلة بنفسها كامرأة أي بوصفها امرأة، من الواضح أن رأسي لم يُكسر مثل البيضة؛ وإلا لما استطعت التفكير في كل هذا.

اعتدلت دون النظر إليهما.

قلت لنفسي: «انظري في الاتجاه الآخر!».

لا تنظري إلى ما يؤلمك، لا تفكري في ما يسبب لك الألم، انظري للاتجاه الآخر، ولا تنظري إلى ذلك الطرف!

27

يمكن أن يطلق على هذا المنحدر من الآن فصاعدًا منحدر الكوارث، كم تم القبض علي بشكل سيئ، وعلاوة على ذلك ليس من واحد! بل من اثنين في وقت واحد! لم تقل أمي عبثًا: «الجميع يحب ركل الساقط؛ لذلك لا تسقطي؛ لكن اركلي أنتِ أيضًا الساقط!» لحسن الحظ أننا نمتلك مالًا، ولدينا قصر يمكنني الاختباء فيه، وتوجد جزيرة، إذا كنت قد عوملت على هذا النحو على الرغم من هذا.. فمن يدري أي سوء كان سيحل بي إذا لم يكن لدي مكان لألجأ إليه؟

كان المنحدر حادًّا لدرجة أنني فوجئت أنني بقيت حيث سقطت، إذ كان يبدو أن من يسقط هنا سيتدحرج للأسفل.

قلت لنفسي: «آه يا مسكينة!»، يحب الإنسان الشفقة على نفسه، لحسن الحظ أمكنني التسلية عن نفسي بسرعة، الحمد لله أنني لم أتدحرج على هذا المنحدر الحاد مثل السلم.. فرحت من عدم حدوث هذا مثل الحمقاء تقريبًا، وتذكرت تعريف هجران لهذا المنحدر فابتسمت «هو منحدر الهابط له لا يستطيع صعوده، والصاعد له لا يمكنه النزول».

انتهى الطريق.

بعد ذلك، كانت غابة أشجار الصنوبر المسطحة.

تكون موحلة شتاءً، وفي الصيف يزداد جمال المكان بأهداب الأشجار ومخاريطها الصنوبرية، كان أحد أطرافها في الأمام قليلًا متصلًا بمنحدر حاد يهبط إلى الشاطئ، يلتقي هناك التراب بالصخور ويهبط إلى البحر، كنا نقف هنا في بعض الأحيان كأننا نراقب الدنيا، كأننا نشاهد العالم الخالي من الحياة هناك؛ بينما يقع كل شيء ويمضي...

كانت أمي تقول عندما تحاصرها الضغوطات: «سأذهب وألقي بنفسي من غابة الصنوبر في البحر والله!».

الضغوطات التي تحاصر أمي: «أيجب تبييض القصر باللون الطوبي أم الأبيض مثل زبد البحر؟ ليت كان به المزيد من النوافذ حتى يظهر وتتألق عليه مثل الدموع تمامًا. أيا تُرى يجب الانتقال إلى قصر صغير في إسطنبول أيضًا؟ وضعت هذا في رأسي، سأضع فرو ثعلب بياقتي هذا الشتاء وأتجول، هل يليق بي هذا في رأيكن؟» كانت هذه مشكلات أمي الظاهرة؛ أما غير الظاهرة فلم تكن تخبر بها نفسها حتى، كيف وقعت في الحب عندما ذهب أبي للحج، ليتها تركتنا واختفت مع حبيبها، كان الخاتم ذو الياقوتة على إصبعها علامة على تراجعها عن هذا، لمن غيرها سيعطي مسيو ياقوب هذا الخاتم؟ كنا نقلب المتجر رأسًا على عقب.

«مسيو ياقوب يجعلني أختار الأحجار يا فتيات، لا تقلقن!».

«أنا لا أدعوكن يا فتيات لأن المكان مظلم وضيق ومزدحم».

كان للمسيو لهجة غريبة تخدش آذاننا.

ماذا كان بإمكاننا القول: نحن بخير هنا، قومي بعملك!

إذا ضغطت على النساء فحينئذ ينفجرن، وإذا وضعت كل حرياتهن في أيدي الرجال، فسوف يعتدن الخيانة! أوه ليكن! لتنجرحي! لتتجرعي الشربات! لم تقل أمي عبثًا «ليت النساء يستطعن تطليق أزواجهن أيضًا!».

تهاويت أسفل شجرة. تفتحت وردة من الدم في المنديل الذي أعطتني إياه المرأة، وتورم كاحلي، وكان هناك ألم خفيف في ظهري وفي جانبي. تطلعت إلى البحر بلونه الفضي من هنا وأردت تمالك نفسي قليلًا. سيرعاني محمد جيدًا، سيعتني بي حبيبي بعد أيام وأشهر، انتابني في تلك اللحظة خوف لا يمكن تفسيره:

ماذا لو اختفى محمد فجأة كما ظهر؟

أليس هاربًا؟ والاختباء هو النصف الآخر للاختفاء، ماذا لو اختفى محمد؟

غمرتني الكآبة في وجود هذا البحر المتلألئ الجميل والسماء الساجدة له، واعتدلت مكاني بقلق لا يمكن وصفه جراء هذا الخوف، آلمتني مواضع إصابتي وضربي بالحجارة. إذا لم أجد محمد؛ فسآتي وأرمي نفسي من هنا؛ هكذا قلت لنفسي. وماذا

سيكون مصير الطفل إذًا؟ كنت مرتبطة به مهما رفضته، لو لم أكن موجودة، فلن يكون هو كذلك، يبقى ناقصًا، يقهره الجميع، ويؤلمونه، ويسيئون له، لا أحد يستطيع حمايته مثل أمه، لا يمكنني القبول بذلك.

لم أكن غير مبالية به؛ لكنني فقط منزعجة من طفل بحجم كف اليد؛ حتى لو لم يكن ذلك فعل امرأة عاقلة على الإطلاق، أنا غاضبة منه لأنه فرقني عن أحبائي، لأنه أنهى المتباهية المرحة. كنت آسفة لأنني خططت لهذا المسكين قدرًا سيئًا منذ ولادته، كانت حاجته إلى تلك الحماية تمزق أعماقي.

كم تأملت هذا المشهد بعينين ممتلئتين بالأمل في الماضي؛ أما الآن؟ الآن أنظر إليه كأني أنظر في الظلام. نعم، محمد هو أملي الوحيد، يجب أن أجده، هو وحده يستطيع أن يشفي جراحي.

عندئذٍ فقط، بدا الأمر كما لو أن محمدًا قد أرسل لي رسولًا، ظهر كلب رمادي من بين الأشجار واقترب مني كأنه يعرفني، تفحصته بدقة، وسرعان ما أدركت أنه ليلة، تماثل للشفاء وتعافى، احتضنت الكلب الذي اقترب مني كأنني أحتضن صديقًا، لو رأيت فاطمة وأمي وهجران، لكنت بلا شك احتضنتهن بصدق.

قلت له: «ليلة ... لقد تعافيت، استعدت قوتك!» قلتها من صميم قلبي كأنني أستدعي السعادة إلى كل الليالي المتبقية في حياتي.

لا أستطيع أن أحكي كم كنت سعيدة لأن جروح الكلب شُفيت،

تأملت هذا لنفسي أيضًا، لا يوجد جرح في الحياة لا يمكن شفاؤه، يكفي فقط أن تفكر في أن ما تواجهه مؤقت، يكفي أن تقول «حدث ما حدث، وماذا بيدنا أن نفعل؟!»، يكفي أن تستمر مرددًا: «هذا ما منحني إياه الزمن، الدنيا، القدر، الكون، الحياة في الوقت الحالي!» انحنِ مثل غصن لين بدلًا من أن تكون صلبًا، ثم عد إلى حالتك القديمةَ بمجرد أن تتحرر من السلطة الطاغية التي فعلت بك ذلك، كلامي هذا ليس بمعنى «انحنِ لمصيرك!» بل لا تنهَر بعد تجاوز المصاعب، قل «هذه هي الحياة!»، عندها ستستمتع بالجمال؛ وإلا فلن تدرك السعادة التي تأتي بعد التعاسة ولن تشعر بها، وستمضي في الحياة حابسًا نفسك في التعاسة، بالطبع الكلام سهل؛ أما الفعل فما أصعبه.

امتلأ المشهد الذي كنت أنظر إليه كأني أنظر في الظلام بالنور فجأة. كان وجود محمد، ووعده بالحب كافيًا لاستعادة نفسي.

ركضت إلى الشاطئ؛ ليلة في الأمام وأنا في الخلف بكاحلي المؤلم والمتورم.

لقد فهم تلهفي على الالتقاء بحبيبي.

رأيت محمد بمجرد أن هبطت إلى الشاطئ. بدا بظهره الجميل المدار لنا وقاربه مدار للعكس كأن جسده الضخم منحوت، ليلة أيضًا يا لذكائها، نبحت عدة مرات، فاستدار محمد ونظر، ابتسمتُ له، فترك العمل الذي بيده، وخطا نحوي، فركضت نحوه، وعانقني، كأننا كنا نترقب الالتقاء منذ الولادة.

28

سبحنا حتى الكوخ العائم؛ لأن القارب كان مشقوقًا، ويجب أن يبقى المعجون المدهون تحت أشعة الشمس ويلتصق بالسطح، أخذني على ظهره أثناء السباحة، أصبح كاحلي الذي أصابه الحجر بحالة سيئة للغاية فتورم وآلمني بسبب دفعي له للركض، كانت ضلوعي تغوص كلما تحركت، لتتكسر أيادي هؤلاء الجارات اللواتي رمينني بالحجارة.

قال محمد: «مياه البحر شافية»، تعافت ليلة بها، أتت إلى الكوخ سابحة معنا، ابتل ما يغطي أعلاي بالكامل:

«لنعلقها هنا ونتركها تجف!».

بعد ذلك سألني بينما كنا نقف داخل هذا الكوخ مبتلين عن الطفل وعن الولادة دون أن يستطيع النظر في عيني.

قلت: «لم يقع ما كنت أخشاه! جرى الأمر بيسر» ثم لم يمكنني منع نفسي، وشرعت في البكاء: «لا أشعر بأي قرب تجاه الطفل؛ ولا يمكن القول إني لا أحبه أيضًا، فأنا أحميه لآخر قطرة في دمي، ليس في نيتي أبدًا التخلص والتنصل منه؛ لكنني لست ككل الأمهات، وأنا آسفة من أجل هذا، وحزينة، حزينة للغاية!».

«ألم يكن هذا الطفل بغير إرادتك؟ هكذا حكيتِ».

أومأت برأسي باكية؛ دون أن أستطيع النظر إلى وجهه. أكان ما يتقاطر على الفرش المرقطة ببقع الملح؛ من دموع عيني أم من بلل ثيابي؟ الشيء الوحيد الذي أعرفه أن وجود محمد منحني الطمأنينة، أمسك بيدي:

«سوف تحنين لطفلك مع الوقت، ما عشتِه ليس سهلًا، لقد حملت قبل أن تدركي ماذا حدث، وأنجبت طفلك خارج إطار الزواج في خفاء عن الجميع، تدمرت علاقتك بأمك وأخواتك اللائي تحبينهن كثيرًا، وتبعثرت حياتك، وبقيت مصابة ووحيدة مثل القارب الباقي على الشاطئ».

احتضنني بعد ذلك بشدة:

«أنا أرغب في تضميد جروحك، وأن أصبح أبًا لطفلك».

دفنت رأسي في صدره وأجهشت في البكاء، فارتفعت يدا محمد القويتان الماهرتان مثل جناحي حمامة هلعة وداعبت شعري، كان شعري قد نما قليلًا؛ لكنه كان قصيرًا جدًّا بالنسبة لمرأة.

قلت: «أنا قبيحة جدًّا! شعري قبيح للغاية، كانت أمي تقول "تاج المرأة شعرها"».

لم أصدق أني نطقت بهذا، ألم أكن هكذا؛ لأجل أن أسمع أني جميلة إسطنبول، اعتدل مزاجي فصرت أبكي تارة وأضحك تارة

ماسحة دموعي.

قال محمد: «أنت جميلة للغاية! لم أرَ أبدًا امرأة جميلة وذكية ولطيفة بقدرك».

أمسك بذقني ورفع رأسي قليلًا، كان ينظر في عيني؛ في أعماقها، ومست شفتاه شفتيّ، تدفق نهر من الحمم في أعماقي، أخجل ولا يمكنني وصف كيف أصبح ما حدث لي من قبل قسرًا في الواقع، وبدافع من الفضول والرغبة المتوحشة، بهذا اللطف والجمال.

29

كان الحبل مشدودًا فوق باب الكوخ العائم المفتوح، وثيابنا الجافة ترفرف عليه مثل الرايات، كانت المرة الأولى التي أرى فيها تنورتي وشالي وعباءتي الحريرية الحلبية بهذه الحرية، كنت أعتقد منذ طفولتي أن الأشياء لها أرواح، وأنها مثلنا، لا يمكنها الحديث فقط لأنه ليس لديها ألسنة، لكنها تشاهد كل شيء بصمت، وتعرفه، وتعيشه، حتى لو تركناها، فإنها تبقى حية وقتًا طويلاً، وتعيش أكثر منا حتى، لقد عبرت عن كل هذه الأفكار أيضًا لمحمد، واستمع إلي بابتسامة.

«ليتك تعلمت الفرنسية أكثر وتمكنت من قراءتها براحة، لو تعرفين فقط كم الأمور الموضحة في الكتب؛ شبيهة بكلامك!».

من حظي أن ظهر كتاب فرنسي أعلى جبل الكتب التي كانت في زاوية الكوخ، وكنت أحاول قراءته متأتأة، عرف محمد عندئذٍ أنني أقرأ وكأن حصاة محشوة في فمي، وأجد صعوبة في قراءة الفرنسية.

لطالما كان لدي فضول للقراءة والتعلم، وحتى الرواية والكتابة! كنت أكتب رغم أني أعرف أنها ستجد كتابات يدي المبتدئة وتحرقها وتمزقها وتمحوها؛ لأنه لا يجب أن يذهب ما عاشه أي

إنسان في هذا العالم طي النسيان، يجب أن يُعرف ما عشناه، وأن تذكر تجربتنا الفانية في هذه الدنيا في الأزمنة التي لن نشهدها، وأن يعلم الآتون بعدنا ما مررنا به.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يستمع إلي فيها شخص بأذن روحه.

قال: «يجب أن تدرسي الفلسفة»، سألته عما درس فرد؛ لكن بجواب مثل اللغز: «لقد درست شيئًا ليس متوفرًا في هذا البلد»، فكرت فيما يمكن أن يكون، فلو سمعت أن شيئًا يسمى «الحرية» كان يُدرَّس في المدارس لقلت «الحرية!»، فكرت أنني حمقاء فزممت شفتيّ في النهاية بمعنى «لا أعرف!»، وأجاب محمد على ما لم أكن أعرفه:

«لقد درست الحقوق، سوف نتحرر بمجرد أن تؤسس الحرية والمساواة والأخوة في هذا البلد، وإلا فإننا سنظل نتخبط هكذا لقرون، الظلم وضياع الحقوق يغرقان أي مجتمع في الوحل».

أعدت قوله: «الحقوق...» لا شك أن الكفاح حتى يحصل المظلومون على حقوقهم مهمة مقدسة للغاية. أراده أبوه أن يدرس الطب لكن محمد درس الحقوق في فرنسا رغم كل شيء.

شعرنا بالجوع، فقلى لي السمك مثل المرة السابقة، كم كان جميلًا صوت غليان الزيت ورائحته المنتشرة في الجو، لم يكن بجانبه خبز هذه المرة، لكن السمك كان وفيرًا، أكلنا بشهية، وكانت

ليلة الجالسة بالطرف تشاهدنا.

قال محمد: «إنها تتعب بسرعة! وترقد بقية اليوم هنا!».

كان مشغولاً من ناحية أخرى بإخراج شيء من السلة وأشار إلى قنينة عرق:

«أتشربين أنتِ أيضًا؟!».

كانت أمي تقول على النساء اللاتي يشربن «منحلات».

قلت: «لا أعرف هل...».

لم تكن لدي ثقة بنفسي، هذه الصفات تكون بالفطرة أو يزرعها الآباء والأمهات في أطفالهم، كانت ثقتي بنفسي منعدمة؛ لذا كنت جبانة ومترددة حتى في المواقف التي تُسعدني، كان هناك شيء يقضم أعماقي، كنت مترددة على الدوام، ومتناقضة أيضًا معظم الوقت.

ذات مرة وقع الكتاب الذي يقرؤه أخي الأكبر خفية في يدينا أنا وهجران، والذي كان يحكي عن بيوت البغاء في إسطنبول والعاهرات المشهورات، شبهت نفسي الآن في الكوخ العائم فوق البحر بالنساء اللاتي فيه واعتراني الحزن، تسبب لي ما فعلته خفية عن الجميع في المتاعب، لماذا يحدث ذلك عندما تكون المرأة مستمتعة وسعيدة؟

لم أقل لا للعرق.

ارتشفته ببطء.

كانت هجران وفاطمة تشربان سرًّا من عِرق أبي، ضربتنا أمي ضربًا مبرحًا من أجل هذا، سكنت رائحة وطعم الينسون العالم كله مثل البحر الممتد أمامنا بلونه الفضي، وأنستنا إياه، أو ذكرتنا به بشدة، أبكتنا أو أضحكتنا، لقد جربنا كل هذا عندما كنا نرتشف من عرق أبي سرًّا، ثم نخرج إلى الحديقة ونطلق القهقهات، لا سيما فاطمة التي لم نرَها هكذا من قبل قط، سقطت على ركبتيها من الضحك، ثم تهاوت على ظهرها فوق الأرض، وقالت إن النجوم تنهمر على ذراعيها المفتوحتين، وصرخت أنها تريد احتضان العالم بأسره وتقبيله، وعندما تبين أننا كنا سكارى أرسلتنا أمي إلى عمتي، فقامت عمتي بتأديبنا جميعًا بشكل جيد، ولما أعادتنا إلى البيت قالت ما تريده لأمي هذه المرة:

«لقد خرب عقل أخي المسكين بجني المال، وبات يتجول مع امرأة ثانية، وأنت أيضًا استغللت الفرصة وضللت الطريق لأن ظل سيدك لم يعد يظلك، وضللت بناتك أيضًا، لقد أصبحت هذه الفتيات هكذا بسببك. انظري إلى هذا البيت! بيت كوكونا! سأقطع طريق السلطان عبد العزيز عندما يغادر قصره لصلاة الجمعة، وأقول له ‘قم بحملة على بيوت الكوكونات يا سلطاني، واجعل الجاريات يعشن كالمسلمات’».

غالبًا ما تتحول أمي أمام عمتي إلى بلبل أكل توتًا، فمهما يكن هي سيدتها القديمة؛ لكن هذه المرة أظهرت مخالبها:

«ما خطبك! يولد الإنسان في الدنيا مرة واحدة، أي هذا ما أعرفه، إذا لم يرضَ السلطان عن جارية مثلي، ليقطع رأسي! أليس هو الآخر عبد من عباد الله مثلي؟ أليس الرجال أيضًا عباد الله؟».

لقد كان هذا تمرد أمي الوحيد الذي استطاعت القيام به من أجلنا نحن بناتها:

الدفاع عن حياة الكوكونا مقابل حياة المسلمين!

وكان ما ستفعله عمتي من أجل ابنة أخيها المذنبة الفاسقة مثلي:

إخفاء كذبتنا عن أبي.

لم تكن هن من أرسلتني للمنفى؛ بل الحياة السائدة على هذه الأرض.

قلت لنفسي: «هذا غير مقبول في أي مكان! ما حدث لي أمر مدمر، لقد أنجبت للدنيا طفلًا غير شرعي».

قال محمد: «لا يكن عندك شك أن أولئك اللائي يرمينك بالحجارة اليوم سيعدن ويقبلن يدك غدًا». كان يحاول مواساتي، «الجميع يحب القوة والسلطة، علاوة على أن جاراتك اللاتي قذفنك بالحجارة مذنبات أكثر منك، لا تنسي ذلك!».

خطر ببالي أنني فكرت في شيء مثل هذا قبل ذلك.

فقلت: «لم يبق لي نفس آخر حتى لأكون قوية، يكفي أن أقضي

يومي».

داعب وجنتي: «لا تحزني، ولا تغتمي، فأنا لا يرضيني بأن تذوي وتفني أمام عيني مثل زهرة قطفت من غصنها».

يُخرج البكاء السم والقيح من الإنسان. مسحت دموعي وابتلعت اللقمة التي في فمي برشفة عرق، وبينما كنا متعانقين على الفراش قال لي: «ابتسامتك وردة، ورائحتك نرجس».

قلت في نفسي «يجب أن تسمع فاطمة وهجران وأمي وحتى عمتي التي تبدو مثل المتصوفة والتي لم تمر بأي تجربة؛ قصة الحب هذه». وحتى الجارة التي قذفتني بالحجارة وبناتها، وصديقة أمي التي أدارت وجهها عني والمرأة الشبيهة باللوح في جوارها.. والجميع! وحتى من يتساءلون كيف يكون الحب، والرجال الذين يريدون أن يتعلموا كيف يصبحون عشاقًا؛ جميل أفندي على سبيل المثال وأشباهه، انساب مذاق العرق الينسوني في جوفي رشفة رشفة، تذكرت أنني لا أستطيع إرضاع طفلي واعتراني الحزن، ثم أنصت إلى محمد الذي قال «لا تفكري في الغد ولا فيما بعد، ابقي في اليوم، ابقي في اللحظة الراهنة!».

أيمكنني إسكات الصوت في أعماقي؟

كنت إما حزينة على الماضي أو قلقة بشأن المستقبل، لم ترَ عيناي اليوم، ربما لهذا لم أستطع العيش كما قال محمد، الحياة مليئة بالموتى الأحياء، قال محمد هذا، في رأيي كانت لدي شكوك حول

كوني محقة من الأرض إلى السماء:

«لقد آذوني أولًا بما يكفي لحرق نفسي، ثم أردن سحق رأسي بحجر، وحاولن تسميمي، كنت أنا من أراد الموت في البداية، أما ما تلاه فكان بعضه من أفكار بدرية، وبعضه من أفكار أمي، لا يمكنني أن أعرف؟! لا أثق في أي أحد بعد الآن؛ لكن ليس عندي مكان أذهب إليه، أنا مجبرة على الذهاب إلى القصر، لا يمكنني ترك الطفل، أعتقد أنهن لا يمكنهن إيذاؤه الآن».

أصغى محمد لي بدقة، وشعرت بأنه قلق بشأن ما قلته في الآخر، فأوضحت:

«تردد بدرية باستمرار أن الطفل يكون ملاكًا حتى يبلغ الأربعين؛ لكن ربما يرغبن في التخلص مني ومن الطفل بعد بلوغه الأربعين».

«في رأيي أنهن أيضًا لا يعرفن ماذا يفعلن، لكن إذا كنتِ تعرفين ماذا ستفعلين فالحياة ستصبح أسهل».

هذه المرة نظرت أنا إلى محمد بعيون متسائلة:

وفقًا لما سمعته من الجيران سيصل الخبر إلى أذن والدي عاجلًا، وكأن الكارثة متوقفة على سماع رجال البيت لتصبح أكثر وقعًا.

«يمكنني أن أعقد نكاحي بك إن أردت وأصبح أبًا لطفلك».

مد يده وأمسك بيدي، كانت الأطباق التي أمامنا نحن الاثنان

مليئة بأشواك السمك المكدسة، يجب أن تكون الحياة هكذا رغم كل شيء، قلت له:

«أنا فتاة محظوظة للغاية!».

«لكن لا تنسي: وضعي عسير للغاية، أنا هارب».

«أنا مدركة».

«وأنا أيضًا مدرك أنك لم تسأليني عن أي شيء حتى لا تزعجيني».

«قلت إن السلطان سيقطع رأسي.. أعرف القليل، وأعلم أنك لست قاطع طريق، إذا كان التفكير جريمة، فقريبًا سوف نعاقب على الأحلام التي نراها أيضًا، أنت لم تؤذِ أي شخص».

«لقد حرضت الناس بأفكاري على التمرد».

ضحكت على هذا، إذا أمسكوا به فالكتب المكدسة في الزاوية كافية لبيان أنك لست مجرد صياد ساذج، أكمل كلامه وعيناه على كتبه:

«من المفترض أن هذه لا تجدي نفعًا لبحارة الأكواخ العائمة لكنك تعلمين أن الأمر ليس كذلك».

«أعلم!».

«سأهرب بعيدًا للغاية، أنا مُجبر على هذا من أجل البقاء».

عندما سمعت هذا اغرورقت عيناي بالدموع ثانية، ماذا سيحدث لي وللطفل حينئذٍ؟ ربما يجب على المرء أن يؤمن بنفسه، وأن يثق بنفسه فقط، نظر محمد كأنما شعر أنني فكرت بهذه الطريقة:

«إذا كنت مستعدة لمشاركتي في الحياة في ظل هذه الظروف الصعبة، فلن أتركك أنت والطفل؛ لكن اعلمي هذا: حياتي ليست سهلة».

«كل إنسان يجد شخصًا واحدًا طوال حياته؛ لكن القليل من الناس محظوظون بالعثور على بعضهم، نحن وجدنا بعضنا بعضًا، وليس لدي أي نية لفقدك يا محمد، أنا راضية عن حياتك».

ابتسم محمد، كم كانت ابتسامته جميلة! مثل الشمس الدافئة الخارجة من الغيوم.

«كنت وحيدة هنا لدرجة أني سأعيش وأمضي حياتي دون أن يسمع أحد صوتي».

«يقولون لمن ليس لهم أحد "يسمع المرء صوت الله عندما يكون وحيدًا"».

«لا أعرف عن هذا، لكن مرت علي أيام حتى نهيق الحمار كان دواء بالنسبة لي».

ضحكنا، بدأ ينهق مرة أخرى كما لو أنه شعر أننا نتحدث عنه.

«بينما كان الطفل ينتظر في بطني كان يجول بذهني أنني

سأعيش حبيسة أفكاري فيعتريني الخوف، كلما صمت؛ سمعت أكثر، أحدث ذلك لك أيضًا؟».

«لا أعرف، الشيء الوحيد الذي أعرفه أن كل شيء مؤقت، حتى من يتذكر وما يُتذكر مؤقت».

توقفت للحظة كأنما أريد أن أفهم ما يعنيه محمد.

ماذا لو لم أفهم عندما يصبح زوجي؟ ماذا لو نشأت بيننا خلافات في الرأي عندما نسافر بعيدًا عن هنا.. فماذا أفعل وحدي؟ هل يمكن أن يتراجع الحب ويختفي كالمياه يا تُرى؟!

«سكتِّ».

«سكت، سكت على الدوام حتى لا أصاب بالجنون في البرج الذي حبسوني فيه، وإلا كنت سأتحدث مع نفسي وأصاب بالجنون».

«ليتنا كلنا مجانين، الجنون هو الاقتراب من الحقيقة، الجنون معافاة من الحساب والكتاب».

قلت: «إذًا أنا مجنونة!»، ثم ضحكنا مرة أخرى.

ضحكنا وتبادلنا القبلات، كل ما تبقى من الحب بعد ذلك كان برضاي.

30

انغلق خرق السفينة التي ظلت في الشمس طوال اليوم، ضرب محمد بيده جسم القارب المقلوب المنتفخ، لقد مارسنا الحب مرة أخرى بعد العشاء، تعرفنا على بعضنا أكثر هذه المرة؛ بخجل أقل، وخوف أقل، وشهوة أكبر، أخجل من وصفها.

أعجبتني الضربة التي ضربها محمد على جسم القارب، كنت أشاهده من نافذة كوخه العائم، كوخ مؤقت يرتفع على أعمدة متينة فوق البحر، كنت أنظر له لأول مرة بعين متفحصة مفكرة كيف يمكن أن يصبح هذا بيتًا، من الصعب العيش هنا شتاءً.

«هذا الكوخ يرتجف بشدة ليس في الشتاء فقط، وإنما أحيانًا مع لودوس، سينهار مع بداية هذا الشتاء، فإما أن أرفعه عاليًا بحيث لا تستطيع الأمواج ضربه، أو آخذ نفسي وأقوم بالانتقال إلى مكان آخر».

كان محمد يعتقد أنه يُخفي نفسه جيدًا هنا، فقلت:

«عرّفت نفسي على أنني من بحارة الأكواخ العائمة، وقلت 'سأستأجر مكانًا هناك' سأصطاد الأسماك الموسمية وأبيعها من الآن فصاعدًا، لا يوجد شيء من هذا القبيل بالطبع، الشباك ممزقة،

إنه مجرد مأوى لي، السمك حر، أنا فقط المحاصر هنا، الذي تلتف حوله الشباك».

تحدثنا عن هذا قبل أن يذهب محمد إلى الشاطئ، ثم ذهب إلى الشاطئ لأخذ القارب، راقبته من نافذة الكوخ؛ حبيبي.

قلب القارب الذي جف معجونه على عموده مرة ثانية، اهتز القارب ثم توازن، والتقى بالمياه، وقبلت مقدمته البحر كعاشق يُقبل محبوبته، بدأ الحمار في النهيق مرة أخرى وراء القارب المبتعد، كنت أنتظره عند نافذة الكوخ العائم مثل مراهقة تنتظر حبيبها.

كانت عين محمد عليّ، خاف في المرة الأولى عندما رآني مع بدرية؛ لأنه أراد أن يعرفه الجميع كصياد، وكان يخاف من القبض غليه.

قال: «كنت أولًا سأتصرف كأصم أبكم».

ثم تراجع عندما رآني.

«كان الأمر كما لو أنني وجدت أمامي ما كنت أنتظره منذ سنوات». هذا ما قاله عني.

كل شيء ينتهي بمجرد خفقان القلب، وجدنا بعضنا إذًا، ماذا لدينا الآن أكثر من الوقت؟ ربما حبنا، لكن الحب والحبيب دائمًا على عجلة، أهذا كذب؟

استأنف الحمار نهيقه، تبادلنا الضحكات على حاله هذا، اقترب

محمد من أسفل الكوخ بقاربه، جمعت تنورتي ونزلت ببطء، أخذ يدي وجذبني إلى داخل القارب، على الرغم من أن ليلة نبحت وراءنا؛ إلا أنها تابعتنا بنظرها كأنما ليس لها نية في القدوم، ثم ذهبت وتكومت في الزاوية التي صارت مكانها.

قال محمد: «تعالي لأجولك!».

«ليكن!» قلتها بحماس كاد معه قلبي أن يخرج من موضعه.

انخفضت الشمس؛ كانت على وشك المغيب، ورحلنا كأننا ذاهبان إلى عالم آخر، وأخذت أتأمل ذراعي محمد القابضتين على المجادفين وجمال جسده المنزلق يمينًا ويسارًا ونحن نبتعد عن البحر وعن الشمس الغائبة التي أمامنا، وعن سطح الجزيرة وعن جزيرتي هيبلي وبورجاز التي أمامنا، وهو أيضًا كان يتأملني.

بدا الأمر لوهلة كما لو كنا نذهب بعيدًا تاركين كل شيء وراءنا، لو كان كذلك؛ سأشعر بالحزن لمغادرتي دون أن أعانق أمي وفاطمة وهجران للمرة الأخيرة وأتحدث معهن، سيصيبني الغم إذا تركت هذه الدنيا وأنا غاضبة ومتألمة منهن، ولن أتخلص من عذاب الضمير لأنني لم آخذ طفلي بين ذراعي ولم أمنحه دفء الأمومة حد الشبع، ما ذنب الطفل؟ ماذا يمكن أن تفعل أمي وفاطمة وهجران أكثر؟

تابعنا غروب الشمس.

كنت أريد الغوص والاختفاء مثل الشمس، شاهدنا امتزاج

الألوان بعضها ببعض بنعومة وذوبانها في الأسود، كنا نقف وسط البحر مستقيمين مثل المرآة، وتطلعنا إلى الأقاصي في صمت، وكان محمد هو من كسر حاجز الصمت، كان له صوت جميل، مشجعًا ومطمئنًا لدرجة أن لا أحد يصدق كونه أحد بحارة الأكواخ العائمة.

«ليتك أنتِ والطفل تمكثان معي...».

ابتسمت، ثم اندفعت من مكاني وعانقته.

«سأعقد قراني بك أولًا، وسيكون هناك أب للطفل، أنا سأكون هذا الأب، حدثوني عن بيت مهجور في هيباي قبل مجيئي إلى الكوخ العائم، في مكان ناءٍ في الجزيرة، ليس له طريق ولا أثر، إذا رممت ذلك البيت المهدم، يمكننا العيش هناك».

ما أجمل أن تكون المرأة مع شخص ما لأنها تحبه، وليس لأنها مضطرة لذلك.

«الطفل ليس لديه اسم حتى الآن» نطقت بها في غير موضعها، طفلي الذي ليس له اسم حتى، أصبح له بيت وأب يقبل به، إذًا لا بد أن يكون للطفل اسم كذلك، تناديه بدرية بـ«عبد الله»، فاسم والد العبيد غير معروف، يُكتب على قبورهم «بنت بنت عبد الله، ابن بنت عبد الله»، كانت أمي المسكينة تذرف الدموع أحيانًا بسبب ذلك؛ لأنها عندما تموت لا يمكن أن يكتبوا اسم أبيها على شاهد قبرها، ولأنها لم تعد تتذكر اسم أبيها.

«تسمية الطفل أسهل شيء، تخلصي أنت أولًا من هذا العبء

وابدئي العيش من جديد، أصلحي علاقتك بأمك وإخوتك، وبعد هذا ستتذكرين هذه الأيام، وتمرين عليها ضاحكة لأن الحياة هي ما يُعاش، والباقي إما ذكرى في الذاكرة أو أمل في الأحلام».

«توجد خيبة الأمل أيضًا في الحياة».

«وهذه لا أقبلها إلا في موضع واحد: ألا تعيش الحياة بينما يمكنك عيشها».

31

لمعت ومضات في البحر عندما لم يظهر القمر[1]، فدليت قدميّ ويدي من فوق القارب، وتناثرت أضواء البحر على يدي، لم أجرب مثل هذا الجمال أو أره من قبل. ظللنا واقفين وسط البحر، كما لو كان هناك شيء كنا ننتظره، كأن ما ننتظره أيًّا كان سيأتي ويأخذنا من هناك، هبط المساء رويدًا رويدًا، فغشينا ببطء كالغطاء، وبقينا حيث كنا ناسين كل شيء.

أمسك محمد المجدافين بهدوء، وعندما عادت الجزيرة للظهور أمامنا من جديد وأضواء البيوت بالكاد ترتجف مثل لهيب الشمعة، اعتقدت أني وجدت الجرأة على المحادثة؛ لكنني تراجعت بعدها، كنت سأعرض على محمد أن يعيش في القصر حتى تتم تسوية الأمور كافة، كان الأمر سيصبح سهلًا بعد عقد قراننا، يمكن أن يفعل والدي شيئًا من أجل محمد، يمكنه الحصول على العفو من السلطان، محمد لم يسرق ولم يقتل أحدًا ولم ينتهك عرضًا، لقد فكر فقط وكتب وعارض أفكار السلطان.

حتى لو أقنعنا أبي، لن يقبل محمد هذا الاقتراح.

1- ظاهرة طبيعية لتلألؤ مياه البحر بسبب كثرة الأعشاب البحرية أو العوالق النباتية يطلق عليها في العربية (البحر المضيء).

لن يقبل أبدًا مثل هذه المساعدة والدعم.

لا يمكن للكبرياء أحيانًا أن يفيد شيئًا سوى جعل الحياة صعبة.

لهذا السبب التزمت الصمت.

انقضت نزهتنا الليلية، كالعادة، كان محمد سيتركني على حافة القصر كما يفعل على الدوام، مررنا في طريق العودة بالقرب من الكوخ العائم، كانت هناك سعادة مختلفة في هذا المكان في الظلام.

قال محمد: «لا يمكن للإنسان أن يجد سلامًا مثل هذا حتى لو كان بيته قصرًا».

سمعت ليلة صوت قاربنا وشعرنا باستيقاظها ودورانها في الكوخ، كانت الأجواء ساكنة، وقاربنا يشق المياه بنعومة، وصوته الصادر يمكنني أن أصفه لكم بأنه صوت السكينة؛ رقيق جدًّا وعميق للغاية؛ لكن على الرغم من هذا سمع الحمار صوتنا، شعرنا بنهوضه من المكان الذي ينام فيه وبشبحه ينظر نحو البحر، بدأ في النهيق، فضحكنا، وبمجرد أن أدار أنفه الصغير، رأينا المتعصبين يشعلون النيران ويحمونها على الشاطئ، ووراءهم تشتعل حريقتان صغيرتان أو ثلاث مثلها تمامًا على التوالي، كالنجوم المتساقطة المنفصلة عن السماء.

خشيت للحظة أنني أدمر حياته، مثلما فعلت في حياة أمي وفاطمة وهجران وحتى بدرية، لقد تسببت في غم وخيبة أمل عميقة للجميع، كنت سيئة الحظ، لا أريد أن أصيب محمد بنحسي،

ربما كان الكوخ العائم هو أنسب مكان للعيش للهاربين، ربما لولا الطفل ولولاي، لهرب في أسرع وقت وذهب من هنا.

تنهدت من أعماقي، وبدا لي أن البوم الذي يراقبنا من الظلام يتنهد أيضًا، لا يجب أن تلحق ذرة من الشر بمتفائل لا ييأس مثل محمد.

32

هبطت على شاطئ القصر.

لولا ما حدث لي؛ لكنا مكثنا هنا هذا الصيف، وأخرجنا القارب من المرفأ، وولجنا البحر ليلًا خلف الجزيرة، ولعبنا بأضواء البحر، ومن يدري ربما كنا سنسمي قاربنا نحن أيضًا كاليبسو؟ ربما كنا أقنعنا أمي بعدم قطع الأشجار التي في الحديقة، في الصيف الماضي بينما كانت تنقل بلاطات القصر ويفرش الحمام بالرخام كنا نجمع الكرز خلال مرورنا، وفي مرة ونحن نجمع الكرز، صنعت هجران لنا جميعًا حلقات من الكرز؛ وحتى لأمي، اسودت شفاهنا من أكل الكرز، صعدت السلالم المستقيمة المؤدية إلى حديقة القصر مع ذكرى تلك الأيام الماضية، انقطعت أنفاسي، وكانت بدرية تنتظرني في الحديقة؛ وفي يدها مصباحًا يرتجف ضوؤه.

«أين كنتِ؟».

كنت أنوي المرور والذهاب دون إعارتها جوابًا؛ لكنها أمسكت بذراعي وسحبتني كما تفعل دائمًا، عندئذٍ تعصبت أنا أيضًا وقلت:

«ستتخلصين مني ومن الطفل قريبًا».

اندهشت، لمعت الدهشة على وجهها بضوء المصباح الذي بيدها،

وقلبت رائحة المصباح المشتعل معدتي، فأعطيت بدرية الجواب الذي تنتظره بإلحاح:

«محمد سيتزوجني، وسيكون أبًا للطفل».

«هل سيحدث كل هذا في الكوخ العائم المرتكز على العصيان؟».

نصبت سبابتي يديها لأعلى مثل العصا وهي تقول هذا، كانت سعيدة دائمًا لأن سبابة يدها اليمنى بقيت في مكانها.

كنت أود إغاظتها، وإثارة غيرتها، وأرغب في تفجير غضبها بالتلميح إلى أنني سأنجو من أي كارثة تحل بي من مصائب لأنني لست مثلها:

«لا، هناك مكان آخر يعرفه محمد، سنذهب ونراه غدًا».

ومع أن هذا ليس قليلًا؛ إلا أنها كما تقول أمي، أرتها الحياة الكثير:

«أوه، دعيني أضحك!» قالتها مستهزئة بما قلته، «ابن الوغد هذا يحاول أن يتسلى بك لا غير!».

نهرتها: «اخرسي يا عديمة التربية! الزمي حدك!».

«وهل هناك حدود بيننا؟ أصبحت باغية الجزيرة كأنه لم يكفِ أن تكوني مجنونتها، وتتعالين علينا».

كان حديث بدرية هذا أثقل من الحجر.

قلت: «حسنًا! وماذا سيحدث بعد ذلك، يا بدرية؟ ماذا تفعلين لو كنتِ مكاني؟».

فوجئت من سؤالي بهذا الهدوء، لم ترد، فكرت للحظة بتفاؤل: ربما فكرت أنها جارية، وأنها باستغلالها وضعي البائس تتعدى الحدود، أخطأت، لم يلبث ردها الذي أدهشني أن جاء في تلك اللحظة:

«لا أريد أن أكون في مكانك».

أدرت رأسي حتى لا تتألق عيناي المغرورقتان بالدموع مع ضوء المصباح المرتجف وتلاحظها الشمطاء؛ لكنها أدركت أنها جعلتني أنزف.

سمعت أصواتًا قادمة من تعريشة الحديقة الجانبية بينا ألج القصر في حزن، كانت النساء هذه المرة يتحدثن مختفيات في الظلام، كن يحكين لبعضهن عن الملابس الجديدة التي أتت إلى متاجر بيرا.

33

فوجئت المرضعة برؤيتي أمامها منتصف الليل.

كانت مغطاة بإحكام لسبب ما، وتجلس وكلتا يديها على بطنها، صعدت للأعلى لأني أتيت، لم تتحدث معي البتة بعد المشادة بيننا وكانت تهرب عندما تراني، كانت هذه المرأة تتحرك مثل العنكبوت؛ مثل عنكبوت يتسلق الجدار بجسده الهزيل والمخيف عندما يرى شخصًا يقترب، ويلقي بنفسه في أماكن غير متوقعة.

أشعر بالحزن لأن طفلي يعيش على حليب هذه المرأة، بعض النساء مثلها لم ينقطع حليبهن أبدًا لأن عملهن الوحيد الرضاعة، تعطي الحليب كلما امتص ثديها، كان الطفل ينام على الأريكة المنخفضة التي ولد عليها مثل صرة صغيرة، كان مختبئًا هنا حتى لا يراه أحد أو يسمع أحد صوته؛ تقريبًا تحت الأرض.

عجبًا؛ ألم تكن امرأة ماكرة مثل بدرية تلاحظ الأصوات القادمة من الحديقة المجاورة؟ لهذا كانت الأصوات الصادرة من هذا القبو تصل إلى الجانب الآخر.

من كانت بدرية تخدع؟ أو ماذا كانت تنتظر؟

اقتربت من جوار الطفل بهدوء، كان الداخل شبه معتم، ولم

أستطع في الظلام سوى تمييز أنفه الأفطس وشفته العلوية الناتئة، كان يسحب النفس بعمق ثم يخرجه، حتى الأصوات التي تصدر من أنفه كان من الممكن سماعها، لم يكن يتحرك على الإطلاق، لكن صوت أنفاسه كان مثل الرياح التي تملأ المكان قبل أن تنتشر.

جلست بجانبه، كان صغيرًا، أهذا الشيء الصغير جدًّا أفسد حياتنا؟ قلت لنفسي «إن رميته لا يُرمى، وإن بعته لا يُباع!»، لا يمكن لصاحب ضمير التخلص من طفل كهذا، إنه يحمل روحًا، قلت «سأرتبط به مع الوقت»، لم تخرج من ذهني نصيحة محمد ودار ببالي «لتعود حياتك إلى مسارها، وستعتادين عليه». لأنه حينها سيصبح هذا الطفل زينة حياتك.

واصلت النظر إلى الطفل، ليتني فكرت بهذه الطريقة منذ لحظة ولادتي له، كنت مُتخبطة ومتعبة لدرجة أن الأصوات القادمة من الجانب أفقدتني أعصابي، لا شك أنهن كن يتجاذبن فيما بينهن أطراف الحديث حولنا من وقت لآخر، لم يكن من الصعب تخمين ما قلنه:

«أتعلمن؛ أنجبت الفتاة التي بجوارنا طفلًا غير شرعي، إنهم يحبسونها هنا الآن، ولا أحد يعلم ماذا سيكون بعد ذلك، بدأت المسكينة التجوال في الشوارع، وفي آخر الجزيرة مثل المجنونة، لم تستطع بدرية بأي حال السيطرة عليها، وأرسلت خبرًا إلى إسطنبول 'كفى! هذه الفتاة ستسبب كوارث أكبر'، إذًا ماذا سيفعلون؟».

اقتربت من نوافذ القبو المطلة على الحديقة المظلمة، ومددت رأسي مثل الزرافة، كانت أمي تقول على جاراتنا هؤلاء «يرين لكن كأنهن لم يرين، ويعرفن لكن كأنهن لا يعرفن». أي إنهن لسن كجاراتنا في الجانب الآخر، هؤلاء اللاتي لا يزال قصرهن تحت الإنشاء اللاتي أوقفنني في منتصف الطريق وقذفنني بالحجارة، عندما كان يتم بناء قصرهن؛ كان القيل والقال شغلهن الشاغل، على أي حال أنا أعلم ومع هذا بدأت التحدث مع نفسي والتغريد لأني أطل على الجارات دون علمهن! كأن أمي وهجران وفاطمة موجودات أمامي وبدرية تستمع إلينا بتعبير ساخر على وجهها، هل بسبب أني أنجبت رجلًا أم ماذا؟! أتى كنصيحة مني لجنس الرجال ولتعريف العالم كله بجنس الرجال، صرخت كأنني أغني كانتو:

«الرجال يولدون أحرارًا، لكن من ناحية أخرى؛ هم مربوطون بأمهاتهم من الصرة، أيديهم ثقيلة، ورؤوسهم سميكة. أوه، من يكونون هكذا يجب أن يدفنوا أحياء، من يتفوهون بالكلام السيئ ويحطمون القلوب يجب أن يعانوا المُر، لا بد للرجل أن يمنح المرأة أجمل ذكريات لها في الحياة».

استمع الناس في الحديقة الجانبية إلى ما قلته منقطعي النفس ولم يتمكنوا من فهم ما يحدث، أعجبني بقاؤهن هادئات، فصحت قائلة «دستور! هناك رجل!» ثم هربت من النافذة التي صعدت ومددت رأسي منها إلى الداخل.

استمعت إلى ضجة فرار الجارات من الحديقة إلى البيت خوفًا من قدوم الرجال.

كنت أبحث عن متعي الطفولية، الأيام التي قضيتها مع أمي والفتيات.

ثم ذهبت إلى بهو قصرنا الخالي الذي لا روح فيه، لا يجب أن يكون الشيء جميلًا ومثاليًّا مهما كان، على العكس؛ فالأشياء الناقصة والمعيبة أجمل، والأهم من ذلك كله أن تكون لديها روح.

34

خرجت المرضعة من إحدى الغرف المؤدية إلى بهو البيت، القذرة.. سارت نحو الدرج الهابط إلى القبو لرؤية الطفل، تجاهلتني من جديد؛ الساحرة السوداء، أمسكتها وتعلقت بذراعها، لم تتوقع هذا قط.

«أنتِ ترضعينه لأنه لا يوجد لدي حليب؛ أنتِ ترضعين طفلي، فلن تبخلي عليا بالسلام».

تحدثت مثل فاطمة أو والدتي أو حتى عمتي وتحديتها.

لم تلتفت المرضعة إلى وجهي حتى، ولم تخف أيضًا، كم أنها امرأة عجيبة! ضغطت على ذراعها أكثر قليلًا، فجذبتها بحركة عنيفة، وتعلقت أنا أيضًا بكتفيها وأدرت وجهها، كنت أستطيع إخراج كل غضبي فيها:

«لا يمكنك معاملتي بهذه الطريقة!».

«أنا لا أنظر إلى وجه من ستذهب إلى جهنم!».

الساحرة لها لسان أيضًا!

«ليس واضحًا من سيذهب إلى جهنم تلك».

«لكن من الواضح أنك ستذهبين، أنجبت سفاحًا، عسى الله ألا يكتبني مذنبة لأني أرضع طفلًا كهذا».

«وما ذنبه؟».

«لأنه ابن حرام، هو مذنب منذ ولادته لأنك من ولدتِه».

«ألا تخجلين من أفعالك؟!».

هممت بقول «وماذا فعلت أنا؟!» لكني سكت. كنت أريد القول إني سقطت في بئر الفضول مثل الرجال؛ لكن ما الذي تعرفه ذات القلب الحجري؟ المرأة التي تضطهد جنسها أسوأ من الرجال.

«أرى أن لسانك قد حلت عقدته، نحن بحاجة إلى حليبك، وليس بركتك».

«لا يمكنك الحصول على بركتي؛ حتى لو أردت ذلك، لا أنت ولا ابن خطيئتك!».

«ما هذه العنجهية! والوقاحة!».

جززت على أسناني وسرت نحوها، حتى إنني جهزت ظهر يدي لصفعها صفعة في منتصف وجهها؛ لكن طرأ على بالي «الغد»، «سيكون الغد يومًا آخر لي» لذا صبرت، فلم أحاول حتى مناقشتها، ولم أطل مجادلتها، سأصبر.

شاهدتها تنزل إلى الأسفل بخطوات سريعة بقدميها الهزيلتين

مثل العصا اللتين يمكن تمييزهما من تحت شرشفها الأسود، ثم ضاعت واختفت في الظلام الهابط على القبو.

بدا لي للحظة أننا قد حبسنا الطفل في زنزانة، ثم فكرت في الأيام الجميلة التي تنتظره، لن يتم حبس وحيدي هكذا، ولن يعيش سجينًا، لن يكون طفلي مستحقرًا؛ فحتى لو أنني أنجبته دون إرادتي، لا يمكنني تركه هكذا بلا صاحب.

35

صعدت الدرج بهذه الأفكار.

كان الدرج مضاءً بشمعة أو اثنتين تُركتا في تجاويف الحائط الذي تطلق عليه أمي «دهليز»، رُسمت التصميمات الموجودة على الجدران التي لونها العمال المهرة بقطعة من الفحم بطريقة غير معروفة، ولم يكن درابزين الدرج قد صقل بعد، ولا علقت عليه الصوالجة الكروية في بدايات الطوابق، بعض الغرف لا تحتوي حتى على أبواب ولا حتى نوافذ، شعرت كما لو أن أمي أو الأخريات سيخرجن من تلك الأبواب غير الموجودة، كأنهن سيخرجن مع حلم انتهاء القصر؛ بنشاط ومرح وبهجة وهن سعيدات ومتفائلات على الرغم من كل شيء.

توقفت مع السعادة التي منحها إياي هذا الحلم؛ أمام النافذة الرفيعة الطويلة الأنيقة التي تطل على الحديقة من فجوة على الدرج، ماذا يمكنني أن أرى وأشاهد في الحديقة المظلمة؟ لا شيء، لم يكن هناك سوى أسعد اللحظات، والذكريات الطيبة التي عشتها قبل أن تقع كارثتي، في إحدى زياراتنا قمنا بعمل أرجوحة وأرجحنا أمي، ثم تأرجحنا الواحدة تلو الأخرى، كانت شجرة ماغنوليا قد أزهرت حديثًا، طارت الأرجوحة عاليًا حتى الأغصان

العالية، وكان رأسي يمس أزهار الماغنوليا.

كانت أمي فخورة بالقصر الذي شيدته، وكانت تهتم به وتمدحه كما تمتدح جمال بناتها، وظلت لمدة عامين تقريبًا تتفحصه بعناية، وخلال زيارتنا الأخيرة؛ شاهدنا الحديقة من هذه النافذة الأنيقة التي أقف أمامها الآن.

كان والدي وأخي وصهري الأهوج القادم من قيصري يلعبون مع كلبين من كلاب الشارع جاءا إليهم في الحديقة، كان والدي يمسك في يده عظمة، وكان الكلبان يحاولان الإمساك بها.

كانت أمي تقول «انظرن إلى خاصتي»، كانت تعبر عن أبي بهذه الطريقة في لحظاتها السعيدة: «خاصتي!».

كان طربوش أبي ذو الشرابة قد انزلق، وصهري الذي من قيصري ينظر حوله أينما يكون بنفس التعبير على الدوام، كانت أختي الكبيرة تطلق عليه «أبوش!» بمعنى أحمق.

كانت أمي تستدير لفاطمة وتقول لها «خاصتك، عيناه عليك دون أن ترف...».

تصرفت فاطمة بغنج، وكان الأمر مسليًا جدًّا بالفعل عندما ألقى صهري الذي تفوح منه رائحة البسطرمة بنظرة خاطفة على النافذة التي بالأعلى وهو يقول «عجبًا! أزوجتي تنظر إليّ يا تُرى؟».

فتدور أمي إلينا خلفها:

«أووه، هيا اعثرن أنتن أيضًا، لنراقب خواصكن ونتسلى».

ثم بدأت بإسداء النصيحة، لقد اندهشت من حديثها المتحذلق، اندهشت من أن تكون الحياة الزوجية للمرأة التي تتحدث بثقة في نفسها لهذه الدرجة؛ في فوضى، أظن أن أمي أنفقت البقية الباقية في طاقتها ببقائها واقفة في الحياة:

«أفضل ما عند الرجل أن يسلي النساء مثل الجرو؛ لكن تهريجه الزائد عن الحد ومرحه المبالغ فيه لا يُطاق، يجب أن يكون ما تدعونه رجلًا جادًّا، ويجب ألا يضحك إلا عند الضرورة ودون أن تظهر أسنانه؛ غير أن عليه ألا يعبس، وكبره مزعج للغاية، من يتحدث كثيرًا ليس جيدًا، والمثرثر بلا توقف يستهلك الحياة.

«ماذا بقي يا سيدتي؟».

كنا نضحك على تساؤل بدرية هذا.

كانت هجران تنكزني بكتفها برفق: «ماذا بقي يا سيدتي؟» مقلدةً بدرية، ثم تنحني على أذني وهي تهمس ضاحكة:

«ما زال البستاني خاصتي باقيًا يا سيدتي!».

كانت هجران تحب بستاني في إسطنبول، قلت ما كان علي ألا أقوله، لا أحد يستطيع أن يحتفظ بالسر، لا التربة تخفي البذرة ولا الآبار العميقة التي يُهمس لها بالأسرار.

كانت تقول حينًا «أيها الألباني الشجاع، لف ذراعيك حول

خصري، وادفن شفتيك في صدري!»، وتضع الوسائد بين ساقيها ملتهية بحركات غريبة لا أعرف من أين تعلمتها وهي تئن «بستانيّ!»، كان الزبد يسيل من فيها وترتجف من الانفعال، بينما تراقب الفتى يعمل في الحديقة مختبئة في مكمنها مثل قطط الشارع التي تشاهد الشبابيط تقفز وتثب في الحوض وفكوكها تصطك من الإثارة، فعلت ما فعلت وأغرت الفتى، كان والده يأتي في السابق؛ وعندما مرض أتى ابنه، «كان جده إنكشاريًّا في القدم، وعندما سُرحت فرقته؛ عمل مُقلِّمًا للورود، ثم أخذها الابن من والده، وحفيده عنه أيضًا».

«هل كان إنكشاريًّا من ألبانيا ووجد البستنة تليق به؟!».

كانت هجران تصغي بدقة لما يقال عن البستاني، وهزت كتفيها عندما قلت هذا، «إنهم لا يتحدثون عنه؛ إنما عن والده أو جده حتى؛ أيها الحمقى! ولو كان فالابن هو سر الأب، ومن المعلوم أنه سيكون كأبيه وجده».

استمرت جهود هجران في إغواء البستاني طوال فصلي الربيع الطويل والصيف، وخلال هذا رقدت في حقول الفراولة، ووقعت في حديقة الورود، وأسقطت قرطها اللؤلؤي في البستان.. وفي النهاية ألقت نفسها بين ذراعي الفتى الذي كان ينسج ورود التعريشة قائلة «أنا أحترق بك، تعال وأطفئني!»، قبلها الصبي، وبالنسبة لي كنت أتابع ما يحدث من وراء حقول الورد، لقد نبهتني هجران «لا تبعدي عينك عنا!» وبعد ذلك كانت تجعلني أحكي لها ما شاهدته

مختبئة كأنها ليست هي من عاشته واختبرته. «عندما تحكين وأسمع منك؛ يكون كل شيء أجمل».

شيء سخيف! ألم تمري بما أحكيه بنفسك؟!

مارست الحب معه في قاع البئر في الحديقة، حيث يجف من المياه صيفًا، وكان الفتى قد نشر سجادة في قاعه من قبل، ووضع حتى وسادة من الريش، وغطاها بغطاء حريري، أولًا ترك هجران فنزلت مخشخشةً ثم نزل هو ببراعة.

«وكيف خرجا بعد ذلك؟».

«خرجا كما دخلا!».

لا شك أن الفتى خرج أولًا، فمد قدميه على جانبي البئر، ليبني جسرًا رفيعًا بجسده، ثم أخرجها من الأسفل بعده، كانت ذراع بكرة البئر تعلق أحيانًا؛ أما هذه المرة لم تعلق.

كنت خائفة جدًّا من أن تكون هجران قد سلمت نفسها..

قالت بابتسامة نضج: «يعد أنني سلمت نفسي...»، صرخت «إياك أن تكون ضيعت نفسك يا فتاة! لا يمكنك الحصول على زوج لو وقع هذا!».

ضحكت:«لقد فعلنا كل شيء؛ إلا أننا لم نقم بهذا، لكن إذا سألتني وكأننا فعلناه».

قلت: «كيف؟».

ردت: «ليست هذه الفتحة الوحيدة في الإنسان». لم أفهم وقتها، الآن أفهم ما تعنيه.

كانت نيتي الاحتفاظ بسر هجران الخاص بها حتى النهاية وعدم كتابته هنا؛ لهذا لم أستطع أن أحكي فور أن فتحت فمي، وإلا فإنني عندما كنت أذكر هجران كان يخطر ببالي البستاني، هجران تعني الوردة، والبلبل، والقبلة، صرخة عاشق، هجران تعني البستاني برائحة القرفة، هجران تعني الحب؛ لا شيء غير ذلك.

عندما خطبت أمي هجران للباشا لم يعد شعلة النار خاصتنا يأتي، وبدأ والده العجوز في الاعتناء بالحديقة، ثم جاء أحدهم في منتصف النهار وحمل إلى والده أخبارًا سيئة، فترك المسكين عمله فورًا وغادر، غادر بارتباك لدرجة أنه لم يقل لنا أي شيء، سمعنا لاحقًا أنه بينما كان يقطع الخشب، قطع يده الممسكة به أيضًا، ثم غرز البلطة في جانبه، كان يتألم لدرجة أنه وجد العلاج في فعله هذا.

«ما الألم الذي كان يعانيه؟» سألت فاطمة التي لم يكن لديها علم بما حدث فقالت أمي: «الحب، كان يعاني من ألم الحب».

«ألم حب من؟» سألت هجران خائفة وبعيون دامعة، فزمت أمي شفتها مثل بتلة الورد جهة اللاشيء دون أن يكون لديها أدنى شك:

«لا أعرف، من يعرف من؟».

تُبكي قصص الحب الجميع، انسابت دمعة من هجران وهي تفكر أن تلوذ بهذه الحقيقة وألا تثير الشك، كانت ذكية.

تنهدت فاطمة: من يدري من التي تحطم الفتى جراء حبها وأبقته في الحياة -لحسن الحظ- بجسد مشقوق ويد مفقودة.

لم نره مرة أخرى في حديقتنا؛ لكننا التقيناه عندما خرجنا يومًا للتجول، لم نتمكن من التعرف عليه بسبب لحيته التي أطلقها، وهجران أيضًا لم تتعرف عليه، ثم عرفت الرجل الذي كان ينظر إليها نظرات ثاقبة وميزته من عينيه.

ذهبنا إلى أقرب مسجد للصلاة، كنا ننتظر انتهاء ثرثرة أمي الواقفة تحت الأروقة مع صديقتها، رآنا حينئذٍ أولًا، ثم تبع هذا المسكين إثرنا، تبعنا في السوق بظله المشقوق، كان ينتظرنا أمام الباب كالكلب بينما كنا نلقي النظر على نحو عشرة متاجر ونقلب اثنين أو ثلاثة منها رأسًا على عقب لنشتري التفاهات، ظل يتعقبنا عندما ركبنا الترام وذهبنا إلى سوق السمك وعندما عبرنا الجسر ووقفنا لأجل مشاهدة البواريك الموجودة في واجهات صالونات الحلاقة، وعندما دخلنا إلى المقبرة وجلسنا على قبر نأكل السكاكر، وحين توقفنا لمئات المرات نرنو بطرف أعيننا إلى عارضات المتاجر، واللوحات المنقوشة على الخشب والنحاس، والإعلانات، والنساء

المارة، والسيارات، واللافتات، وإلى أبواب المسارح، وكل شيء؛ كان يتبعنا.

بقي وراءنا ونحن نهبط إلى القرن الذهبي، ونشتري باقة من الزهور، ونشرب كوبًا من عصير الليمون، ونمنح الصدقات، ثم نعبر القرن الذهبي بالقارب ونستأنف من جديد في منعطفات المدينة، وحين ركبنا الترام مرة أخرى وأتينا إلى بابنا، وحين درنا حول المقبرة قبل أن نتوقف عند رأس الشارع وندخل من الباب؛ حتى نضيف المزيد إلى وقت حريتنا، وحين كنا نقول: «أف! تعبنا والله، نزلت المياه السوداء في أقدامنا، والله!».

هيهات! وهل كان من الممكن خداع أمي؟ لا، ربما لهذا كانت غاضبةً جدًّا مني، لأنها لم تستطع فهم أني حامل، ولا معرفة ممن حملت، لاحظت كيف كان الفتى يتابعنا منذ البداية، استدارت فجأة ونكزت صدر الفتى الذي كان يتبعنا دون أن يثير الشك؛ بطرف شمسيتها، حتى إنني ظننت لوهلة أن رأس شمسية أمي سيخترق صدره وسيسقط صدره الجريح كأنه رماد.

لحسن الحظ أن أمي اعتقدت أن عمله تعقبنا وليس الحب، فلا يمكن أن تكون يده المقطوعة أو جسده المتفتق من أجل هجران التي كانت تستعد لتزويجها للباشا! ولم يطرأ على ذهنها أن ابنتها التي جهزتها للثروة والسلطة، ربما تكون قد سلمت نفسها إلى البستاني في البساتين، وفي قاع البئر، وعلى التربة الناعمة لحديقة الفراولة، آه ياللتلك الأمور التي لا نفكر بها، والأشخاص الذين لا

يخطرون ببالنا حتى، لو عرفنا فقط أن الحقائق التي ستدمر الدنيا فوق رؤوسنا مخبأة عندهم بالأصل، قالت أمي التي لم تكن على دراية بهذا: «لا يمكنك أن تعمل بهذه الطريقة، يا بني، دع والدك يعمل مكانك».

عندما قال: «همي ليس الأكل». التفت قدما هجران حول بعضهما، وارتجفت بقلق في عباءتها، وقعت عليَّ مهمة إدارة الموقف، فانحنيت على أمي وهمست في أذنها:

«ربما يطلب فقط الحصول على بركتك».

قالت أمي: «ها!»، ومدت هذه المرة يدها ليقبلها.

أيمكن لامرأة ذكية مثل أمي ألا تفهم شيئًا؟

إنها فقط لم تتعقب المسألة.

كانت تعرف أن الفتى عاشق آيس، وأخذت تردد: «لقد جن المسكين». حكت لوالدي عن هذه الحادثة على العشاء وهي مهمومة للغاية، ثم أخذت تمدح فينا، ولكن أي مدح:

«انظر إلى جمال أيديهن، وإلى بنياتهن، ووقفتهن، وغنجهن، وحواجبهن، وعيونهن، وصفاء عيونهن، وجلودهن التي مثل الرخام، وابتسامتهن، وقفزهن مثل الحجل».

وفي النهاية وصلت إلى غايتها أمام والدي الذي كان يرتشف قهوته:

«إذا قطع هذا الرجل المجذوب طريقنا مرة أخرى ونحن نتجول في السوق، أو في المنتزه...».

أرادت أمي العربة، وأخذتها، أخذتها بسبب هذه الحادثة، لأن أبي كان معاندًا بشدة في موضوع العربة هذا، وكان يقول : «الخيول تأكل المال وليس الشعير!»، ولم تستطع أمي مجابهته، كان يستمتع بالتصرف ببخل وكأنه يوجد عقرب بجيبه، لجعلها تتوسل، وللاحتفاظ بما يملكه.

أرادت أمي أن تدس المال في يد الفتى ذلك اليوم، وأعطتها إلى بدرية حتى تسلمها له، رأيتُ أنه لم يأخذ المال، ولم تعده بدرية إلى أمي، لماذا يمكن أن تجمع بدرية المال؟ هل يمكن أن تكون لها حياة منفصلة عنا؟

انسحبت من أمام النافذة التي كنت أشاهد منها الحديقة المظلمة وابتعدت عنها، كنت أشاهد الماضي الواقف هناك، والأيام الباقية من حياتي التي لن تعود أبدًا.

استأنفت الصعود إلى حجرتي في البرج بخطواتٍ وئيدة، كنت متعبة وكأن في قدمي سبيكتين، ركضت بدرية ورائي ولحقت بي على سلالم الطابق الأخير، فوجدتها فرصة لتنبيهها:

«لن ينام الطفل في القبو بعد ذلك!».

فردت كأنها السيدة «حقًا؛ وأين سينام؟».

«احمليه إلى جواري، ليبقى بجانبي هذه الليلة».

«لكن المرضعة لا تريده أن يبقى جوارك، كما أنها ترضعه مرددة 'إعطاء الحليب لابن الحرام حرام'. أمنحها المزيد من المال لئلا تترك الطفل وتذهب، هل عندك علم؟».

«ألا يمكننا إطعامه ماء بالدقيق والسكر والنشا؟ لو أننا خففنا حليب الحيوان وأعطيناه له...».

«تنشق بطنه من الألم، يهدم القصر على رؤوسنا».

«ربما يأتي حليبي مع الوقت».

«يعني هذا أن الله لا يمنحه.. كانوا يقولون ذلك دائمًا وحسبته هراء، انظري؛ إنه صحيح».

«على أي حال، يا بدرية! أحضري أنتِ الطفل إلى جواري، لا تتذمري كثيرًا».

«أي إن عقلك عاد إلى رأسك، وبدأت التعلق بطفلك؟ لكن لا تتعلقي كثيرًا!».

«ماذا يعني ذلك الآن؟».

«لا تفسدي عليّ النظام المستقر، سيبقى الطفل والمرضعة كذلك في الأسفل، إذا داهم والدك وأخوك القصر، فسيكون هروبهما سهلًا».

«أهناك احتمال كهذا؟».

«بقي القليل على بلوغ الطفل الأربعين، جزي على أسنانك!».

«لا تتوقفين عن ترديد هذا، ماذا ستفعلين بعد أربعين يومًا؟».

«دعكِ من هذا! أنا لم أعد أعرف ما قلته أو ما فعلته، لينتهِ منفانا هذا، وليرَ هذا القصر ويعش أيامًا جميلة، ليطيل الناظر النظر، ولينتصب المار من أمامه ليشاهده، أصابتنا العين والله!».

«هنا الجنة المزيفة لأمي، كم كان جميلًا وصفها للمعماري: ليبدو كما لو أنه موجة رغوية بيضاء ارتفعت وحطت على سفح التل.. ليهبط الآتون بالعبارة على الجزيرة وهم يشاهدونه، ليلمع مثل اللؤلؤة، وإذا كان علينا أن نطلق عليه اسمًا فليكن القصر اللؤلؤي».

وعندما قال المعماري: «هناك قصر بهذا الاسم يا سيدتي»، كان على أمي أن تجد اسمًا آخر.

«ما الذي يضيء كاللؤلؤة؟» وأجابت بنفسها عن سؤالها المحير هذا:

«وجدتها. الدموع!».

وعندما لم يعارض أحد، بدأت تشرح بطريقة استغربتها:

«ستمر علينا هنا أيام مرّة وحلوة، لا يبكي الناس حين يكونون

حزانى فقط ولكن حين يكونون سعداء أيضًا، يقطر الإنسان حزنه وفرحته؛ فتصبح دمعًا، الدمعة جوهرة الجسد، وقصرنا أيضًا جوهرة الجزيرة، ليبقَ معلقًا مثل قطرة دمع على وجه الجزيرة الجميل، ولا يشبع الناس من مشاهدته».

عندما كررت ما قالته أمي في الماضي كلمة كلمة حزنت بدرية:

«آه، هكذا قالت سيدتي جميلة الجميلات».

«ما يُبقي الشيء جميلًا وفريدًا هي قصته، فليكن لقصرنا قصة أيضًا».

هذا ما قالته أمي، فتحدثت فاطمة: «فليكن إن شاء الله!»، وردت أمي: «وهل القصة شيء يسقط من السماء بالمكتل، كيف ستكون هذه؟» فأجابتها هجران «بالمعايشة». قالت أمي: «برافو!»، تعرف الابنة الوسطى كل شيء! تجري هذه الذكريات أمام عيني؛ كما لو أنها لم تمضِ وتصبح من الماضي، ما الذي لم أفعله لئلا يمكنني العودة إلى ذلك اليوم الذي أصبح ذكرى الآن؟! أريد أن أنساه بما أنه لن يكون ممكنًا، لأن الإنسان يزداد الحمل على ظهره كلما تذكر، ويخف كلما نسي، لا يأتي ممن لا يستطيعون النسيان نفعًا، يعيشون دون أن يستطيعوا رفع رؤوسهم والنظر إلى الدنيا والتمتع بها؛ كأنهم عالقون في الرياح، فالتذكر ريح لا تدع الإنسان يفتح عينيه، النسيان سكينة.

الذكريات مثل بحر ومحيط شاسع كلما غصتم فيه لن تستطيعوا

الخروج، مثل المحيط، كان نصيبي أنا أجمل وأذكى ابنة لأمي؛ أن أكون القصة البالية لقصر الدموع، رأيت بدرية تبكي بحسرة؛ بينما كنت أفكر في ذلك:

«آه! لقد جعلت حماس أمك يعلق بحلقها! القصر، السرايا، أيًّا كان! سيُعرف هذا المكان من الآن فصاعدًا بمنفى الزانية، آه؛ دنست جميلتي القصر، أصبح بعد الآن المكان الذي ولد فيه ابن الحرام».

شاهدت للحظات بكاء بدرية منتحبة بقهر، وحزنت، حزنت لأنها بكت بحرقة كما كانت تبكي عندما ملأت أمي راحتها بالجمر، كانت تتألم من أعماقها؛ علاوة على أنها هذه المرة كان الألم معنويًّا، تقول فاطمة: «هذا النوع من الألم أسوأ، إذا كان الجرح ينزف، فستوقفه بالملح، ولكن الجروح غير المرئية شفاؤها صعب».

كان من الواضح أن حلم أمي كان حلم بدرية أيضًا، وبسببي تشوه هذا الحلم وتلاشى، رأيتها ترتجف كلما ارتجف فكها، كانت تبكي محيطة جسدها بذراعيها، أشفقت عليها، لهذا أردت مواساتها.

«ستأتي العام القادم وتقيم هنا، لن أكون موجودة، وسترتاحون».

بيد أنه كان من الخطأ إظهار الشفقة والتألم لأجل بدرية، تجرأت على الفور وأظهرت مخالبها:

«لم يعد جيرانك يحترمونك، رجمك اللاتي في جانب بالحجارة، وسخرن اللاتي على الجانب الآخر بنعيك للرجال قائلات: «لقد جنت!»، الجار الذي يدور حوله الكلام مثل قصعة العسل، تأكل ملعقة واحدة، وتأكل ملعقتين، ثم يُغمى عليك، لا أحد يريد جارًا كهذا بجانبه في منطقته».

«حينئذٍ ستتعلم أمي أن تعيش بسعادة وهناء في جنتها الخاصة دون أي شخص آخر، كما أنني سأذهب إلى جنتي الخاصة قريبًا على أي حال، إذا لم يروا ذلك؛ فسوف ينسونه».

التقطت قبل قليل ابتسامة بدرية الخبيثة وسط بكائها، فسألتها:

«أم أنك لا تصدقين أني سأذهب وأتزوج؟!».

«أسكت لئلا تغضبي وتصابي بالجنون إن قلت 'لن تذهبي!'».

قلت في نفسي «لا تتفوهي بكلمة! اخرسي! قطعتِ كل هذا لتصلي إلى هنا»؛ ولكن كان من الواضح أن بدرية تشعر بالملل الشديد، واصلت الحديث من خلف ظهري دون أن تسمح لي بالالتفاف والذهاب:

«كلما خرجت وتجولت في الأنحاء؛ أشعلت النيران التي نحاول إطفاءها، هل تلقين بالًا للفضيحة والقيل والقال؟ نقول 'اجلسي في مكانك، ولا تظهري في الوسط!' لكن من يستمع؟!».

لقد احتفظت بدرية بما كانت ستقوله أولًا للنهاية، وقالت الشيء

الذي يرجني فجأة ويوخز الألم في أعماقي:

«القيل والقال مثل المسامير الملتهبة التي تحمل الحريقة من مكان للآخر، إنها تنتقل من طرف لطرف، أعتقد أن ما حكي عنك قد وصل بالفعل إلى إسطنبول، لو لم يكن كذلك، هل كان الباشا سيفسخ الخطبة؟».

سألتها بدهشة: هل فسخ الباشا الخطبة؟

قالت المرأة ذات الوجه المكفهر والنظرة البلهاء؛ في النهاية ما كانت ستقولة بدايةً.

ربما كانت تبكي لهذا منذ قليل، كان مستقبل هجران مضمونًا كمستقبل أمي بالظبط:

«آه أنا قلتها، لا تسموا هذه الفتاة هجران، قلت لأن اسمها هجران سيتركها أحباؤها دائمًا، قلت إن الاسم هو قدر الإنسان، لكنني لم أستطع جعلهم يستمعون إلي».

حزنت من أجل هجران، لقد تخلت عن حبيبها الذي مارست الحب معه في قاع البئر لأجل الباشا، أراد لقاءها للمرة الأخيرة وواعدها في قاع البئر لكنها لم تستطع الذهاب، ذهبت أنا مكانها، وكان البستاني ينتظرها في قاع البئر بصمت، وبالتأكيد تعلقت بحبل البئر واستطعت النزول للأسفل، وبينما كان الفتى يترقب هجران وجدني أمامه، كيف أنسى ذلك الوجه المضاء بنور القمر الذي كان يحدق في بذهول؟

أثرت في كلمات بدرية فقلت مبتهجة: «من الجيد أن اسمي ليس هجران».

لا بد أن الساحرة شعرت بهذا، ومن ثم ضربتني في صميم قلبي مرة أخرى:

«انظري حتى؛ إن معنى اسمك هو اللقاء، وأنت دائمًا تجتمعين بأحبائك، وعلاوة على هذا، وضعوا اسمك الأوسط أمينة، وهو يعني من لا يوجد خوف بقلبه، وله معنى آخر لكن لا أعتقد أنه يناسبك: موثوق به، غير خطير؛ ولكن ما الذي فتحتِه على رؤوسنا، أي أنك خطيرة؛ لكنك بالتأكيد لا تخافي».

كان الحديث معها مثل التعثر في الأدغال: تكافحون على الدوام لأجل النجاة بأرواحكم؛ لهذا كانت العبودية تليق بها تمامًا، لأنه يتعين عليها الخضوع والصمت، كانت عمتي تقول لها: «إذا لم تكن جارية، وإن تزوجت معاذ الله، لكان زوجها قطعها إربًا إربًا»، لطالما كانت عمتي تفكر وتتحدث مثل الرجال، كنت أتخيل أحيانًا وجود شيء يهتز بين ساقيها.

تأملت بدرية وهي تهبط السلالم بقدمها العرجاء حافظة توازنها بمهارة، هل من الممكن أن نفهم الجميع؟ بدرية على سبيل المثال؟ هل من الممكن فهمها؟ هي أيضًا سئمت، وترغب في العودة إلى حياة أمي وفاطمة وهجران التي يمكن اعتبارها حياة رخاء سعيدة، كنتُ العائق الوحيد أمامها، بعض الناس لا

يمكنهم التحمل، ولا يعرفون الاعتياد، ليس في قاموسهم شيء يدعى التحمل، وبدرية رغم كونها جارية، إلا أنها في هذا الشأن امرأة، أو أنني لا أعرف، ربما طُلبت منها أمورًا أثقل، ربما تعاني من محاسبة الضمير، ومن يدري؟

علاوة على ذلك؛ ألا يمكن أن يكون من الطبيعي رغبتها في الانتقام منا بمجرد أن تسنح لها الفرصة؟ أصابعها الثلاثة المفقودة تكفي بل وتزيد حتى لتأجيجها بنار الانتقام، ربما يملأها بالحقد ما يبدو هينًا في أعيننا، نراها نهمة عندما تأكل الحلوى بسرعة ونستهزئ بها، ودائمًا ما نقول كلامًا ينخزها، وتشعر بالخجل؛ بالخجل الشديد، حتى إن أخي حذرنا ذات يوم «لا تفعلن هذا، لا تسخرن من بدرية التي تحب أكل الحلويات». أتعلمون ماذا تشبه الأشياء التي يحرم منها الإنسان طوال عمره؟ الأعضاء المقطوعة، لا يمكن ملء مكانها مرة أخرى.

36

استلقيت على سريري مع هذه الأفكار.

كانت الأماكن التي أصابتني فيها الحجارة تؤلمني، سينسيني النوم كل شيء الآن، أغمضت عينيَّ، من يدري كم حزنت هجران من فسخ الباشا للخطبة، فكرت وأنا أغفو على أمل مواساتي في واحدة من أسعد ذكرياتنا، حتى إنني أردت أن أكون في تلك اللحظة.

كنا في الحديقة، في الحديقة المظلمة التي وقفت منذ قليل أشاهدها من الفتحة التي على السلم.

هنا على الجزيرة التي أعلنتها أمي جنة.

كان أول عمل لأمي عندما ظهر القصر التقاط صورة أمامه، كان لا نستطيع أن نطلق عليه بيتًا بجوارها، دعنا نقول هذا.. وسيرج صوتها الأنحاء:

«بغض النظر عما يقوله أي شخص، هنا قصر، قصر، قصر، قصر! حتى إن له اسمًا، ألا يمكنكن حفظه في رؤوسكن السميكة؟! قصر الدموع».

أظن أنها كانت المرة الأولى التي قدمت لنا فيها أمي القصر؛ وكأنه والدنا الحبيب أو أخونا غير الشقيق أو أختها التوأم، فقالت

هجران:

«لكن... أليس هذا حزينًا بعض الشيء؟».

«أليست الأشياء الحزينة ذات مغزى أكبر؟! السعادة مبتذلة، تسمى هذا المكان قصر الدموع؛ ليس لأنه كئيب، بل لأنه يتلألأ مثل قطعة كريستال».

حان الوقت لتصوير القصر الذي دخل بيننا كأنه كائن حي وأخذ اسمًا!

أغلق المصور الشهير عبد الله برادرلر متجره للتصوير في إسطنبول ذلك اليوم وحمل كاميراته ووصل إلى الجزيرة، كان ما سيدفع مقابل خدمة تصوير كهذه مرتفع للغاية: الأرباح طوال الوقت الذي سيكون فيه المتجر مغلقًا، بالإضافة إلى كلفة مجيء المصورين إلى الجزيرة، واستضافتهم، وحتى الأمور غير المتوقعة، فلو حدث شيء للآلات التي يحملونها إلى هنا.. سيكون على الشخص الذي طلب الصورة شراء جديدة مكانها.

قال مسيو تاڤردي -صاحب الفندق الذي نقيم فيه- «لن نستطيع تحمل هذه الأبهة».

فقالت أمي غامزة لنا من خلف ظهر مسيو تاڤردي «الأمر يستحق كل هذا، يستحق كل شيء». لم يكن يمكنها بأي حال القول «سيكون لنا مجانًا!» حتى لا تسوي غرورها بالأرض.

كانت لديها في النهاية صورة رائعة مع بناتها أمام القصر.

وصورة لكل واحدة منا، شخصت ببصري وحدقت بلا خوف في الآلة التي تصاعد منها الدخان قبل برهة والتي تطلق عليها عمتي «آلة الشيطان»، ضحكت، وتغنجت، ونظرت كما لو أني أنظر في عيني عاشق، لم يجد المصور بُدًّا من الاعتراف:

«إذا كان كل إنسان في هذا العالم يمثل شعورًا، حسًّا.. ستكون ابنتك هذه 'الحب'، لم أرَ أبدًا من ينظر من صميم قلبه ويبتسم ابتسامة مفعمة بالحب مثلها!».

«وماذا كنت أنا؟».

«وأنا؟».

لم يترك الرجل المسكين هجران وفاطمة اللتين انتابهما الفضول حول الشعور الذي يمثلهما على الأرض، فتوقف وفكر كما لو أنه يريد حل مسألة مهمة، وفي النهاية قدم الإجابة التي انتظرتاها؛ لكنني نسيت ما قاله.

كانت أمي جالسة كالمعتاد، وفاطمة تقف خلفها وإحدى يديها على كتفها؛ أما أنا فجمعت يدي معًا برقة أمام صدري، ولست أنا من قلت «لطيف!» بل المصور.

كانت أمي تعترض دائمًا على هذه الوضعية:

«أنت دائمًا ما تعطي صغيرتي أكثر وضعية نضجًا؛ يا مسيو،

إنها لا تزال صغيرة، لا تنظر إلى أنها تبدو كبيرة!».

«يدا سيدتي الصغيرة جميلتان، تنحنيان وتلتفان مثل فرع الزهرة، لهذا من الأفضل أن تتركيها تتخذ هذه الوضعية».

أعطوا هجران أيضًا غصن وردة:

«شمي هذه أيضًا أيتها السيدة الصغيرة، وتطلعي بعيدًا أثناء الشم رجاءً، المسي بيدك كتف والدتك برفق، ثم استديري إلى الجانب الآخر كما لو كنت عالقة برائحة الوردة والتفي من خصرك!».

شرعت هجران في البكاء ما إن شمت الوردة، يبدو أن البستاني الألباني خطر على ذهنها؛ لهذا السبب جاءت الصورة الأولى غريبة بعض الشيء: هجران تبكي، وتستدير إلى الجانب الآخر بوجه متجهم وأنا أنظر إليها بمعنى «ماذا حدث؟» لكن أكثر ما يضحك كان انعقاد حاجبي فاطمة ونظرة أمي للكاميرا غير عابئة بما يجري.

اتخذنا الوضعية مرة أخرى.

لم تشم هجران رائحة الوردة هذه المرة، لكنها تظاهرت بالنظر إلى الطيور على الشجرة.

لم تسأل أمي حتى: «لماذا بكت ابنتي الجميلة بينما تقف؟».

بل على العكس؛ اختلقت وأوجدت في رأسها سببًا لهذا الموقف:

«أحيانًا تملأ الروائح الطيبة عيني المرء بالدموع؛ لأن الجمال والمتعة مؤلمان في الواقع».

تعلمت مثل هذه الكلمات في اجتماعات الدردشة التي اعترفت بأنها كانت تخنقها من الملل والتي كانت تذهب إليها للعثور على عريس باشا.

كانت لدينا مثل هذه الصور في البيت الذي في إسطنبول، أي مع الأثاث، ومع الأشياء الجديدة؛ في الحياة الجديدة على الطراز الغربي التي أوجدتها أمي بعد أن بلغت الأربعين.

قالت أمي للإخوة المصورين: «أظهروهم أكثر منا، رجاءً! أشياءنا».

ومع قول والدي «ويكأنها سقطت من الشق الأيسر للصدر الأعظم!» سأل المصور الذي كان يروح ويجيء مندهشًا: «لماذا؟ أليس أنتم الأكثر قيمة؟».

قالت والدتي بحسم كبير: «لا! الأشياء القيمة، هو هذا القصر، ومجوهراتنا، وفساتيننا، والمرايا المذهبة، والفضيات، والسجاد، والمصليات، والخزف، واللوحات التي على الحائط، والشمعدانات، والحراير، والقطيفة، وعربتنا ذات الفرس القابعة أمام الباب؛ انظر إلى مروحتي، ومظلتي التي من الدانتيل، كان كلاهما لملكة فرنسا!».

قال المصور: «آهاهووووووغ!». كان لديه الكثير ليقوله، لكنه

ابتلعه كله وتعلق بآخر ما قالته أمي: «ذلك الأثاث يخدعكم جميعًا هكذا. لم تكن ملكة فرنسا مثلك. كانت تعيش الحياة؛ أما أنتِ فتعيشين حياة الأشياء. أنت عبدة لهذا الدنيا؛ لكنك لست عبدة للمتعة والسرور؛ بل للأشياء!».

توقفت والدتي وفكرت: «ماذا يعني عيش حياة الأشياء؟ ماذا يعني أن تكون عبدة للأشياء؟».

«يعني يا سيدتي أنك لن تأخذي معكِ كل هذه الأشياء».

«أنا أيضًا أعلم أني لن آخذ معي كل هذه الأشياء. أين رأيت امرأة مدفونة مع خزانتها، وفضياتها، وسريرها، ومنضدة زينتها، وفراءاتها، ووسائدها المصنوعة من الريش؟ حتى لو أردت فلا يمكن! قال القاضي الأول 'لا يمكن!'، لكن صحيح أني أعيش من أجلهم، لأنني ناضلت من أجل الحصول عليهم، لا أعرف كيف أعيش بطريقة أخرى، والأحرى أنني لا أريد أن أعلم، إنها حياة عاجزة بلا طعم؛ لكن حياتي معركة كبيرة في سبيل امتلاك هذه الأشياء!».

استسلم المصور:

«جيد، ماذا يمكنني أن أقول إذًا، لتكن معرككتكم مباركة!».

كانت أمي مثل عربة حصان هابطة منحدرًا لا يمكنها أن تكبح سرعتها:

«بالنسبة لمصور مثلك على وجه الخصوص.. يجب عليه عبادة الأشياء! والسجود لها! لأنها ما سيبقى بعدنا في العالم؛ أشياؤنا وصورنا التي تلتقطونها -الشهود الصامتين- هي ما تعيش حتى الشبع، هي ما تشاهد شروق الشمس وغروبها صامتين، إذا كانت الطبيعة والحياة شيئًا جميلًا؛ فستتحدث الأشياء، أعتقد أن الأشياء أجمل بكثير من الطبيعة، وصورنا اللاتي تنتجونها بأيديكم، صدقني، إنها أجمل بكثير من الحقيقة».

«سيدتي، لا تشركي بمن خلقني رجاءً، ستقحمين رأسي في المتاعب».

أتمنى لو لم يفكر المصور في أن والدتي غبية ولم يعبر عن خوفه هذا. لا تنخدع بمظهر أحد. بأشيائك حتى! لأن هذا المصور انخدع وقدم لأمي ورقة رابحة كبيرة، وهي أن: التقاط الصورة بالنسبة لأمي أصبحت مثل المرض، كنا نتصور كل أسبوع صورة في محل تصوير عبد الله برادرلر الذي في تونل، وعندما أتت الفواتير إلى أبي ذات يوم أتى بعصاه الحمراء ومزق كل صورنا إربًا إربًا وهو يقول «يكفي! أفلست من دفع مال الصور».

لم تكن تستطيع التخلي عن طبعها هذا، يوجد في إسطنبول الضخمة هذه مولع آخر بالتصوير مثل والدتي، شاهزاده عبد الحميد خان؛ حتى إنه في يوم من الأيام، لم يستطع التحمل وسأل أولئك الذين خلدوا صورته:

«هل يوجد من سجلتم صوره أكثر مني؟».

انتبهوا، فالباقي أشبه بالحكاية:

قال مصورونا: «يوجد، يا أميري!».

انزعج الأمير الذي لم يكن لديه أمل في العرش جدًّا من هذا، لم يكن لديه بعد حتى لحية حمراء تتدلى من منتصف وجهه المتجهم، سأل مثل المخبرين الفضوليين: «من هو؟».

قال مصورونا: «إنه..» ناظرين بعضهم إلى بعض بمعنى «أنقول أم لا؟».

وفي النهاية وصفوا له أمي وبناتها نحن وعرضوا عليه صورتنا حتى.

«هل لديهم سبائك ذهب؟ كيف يمكنهم دفع مقابل هذا الكم من الصور؟».

كان فضول عبد الحميد تجاه هذا، تردد المصورون مرة أخرى فيما إذا كانوا سيقولون ذلك أم لا، وفي النهاية اندفعوا:

«المرأة تهددنا يا سيدي؛ لهذا السبب لا تدفع قرشًا واحدًا مقابل صورها».

«انظر إلى ذلك الوقح! أخبرني بما تهددك به؟».

ماذا يمكن أن يكون؟

«بالذهاب إلى القاضي وشكايتنا».

«والسبب؟».

«إنهم يعادلون أنفسهم بالخالق لأنهم يعيدون خلق صورنا وجعلها خالدة؛ على فرض أننا قلنا ذلك، كما ستأتي ببناتها أيضًا شهودًا على هذا...».

قال عبد الحميد: «حسنًا؛ لكن... هناك فتوى».

«والله تلك المرأة موسوسة».

لهذا السبب فقط ذهب عبد الحميد إلى حضرة عمه السلطان واشتكى أمي، لم تسمعوا خطأً؛ أمي! أطلق السلطان عبد العزيز القهقهات، وعندما تبين أن والدي كان من مقرضي المال للقصر، بدلًا من فرض عقوبة على أمي تنقص من مكانتها؛ تم منعنا من التقاط الصور فقط.

كان والدي أكثر سعادة بهذا المنع:

«لحق الطبيب بالمريض!».

امتلأت عينا أمي بالدموع في البداية لأنها ستُحرم من أقوى رغباتها، فابتلعت ريقها كما لو أن التقاط صورة شيء ضروري مثل الهواء والماء؛ لكنها بعد ذلك قبضت يديها الصغيرتين قبضتين، وقالت مقتصة:

«المنع يكون من الجبناء! أولئك الذين يتعين عليهم العيش في جحر الفئران يأملون المساعدة من الحظر. إذا كان التصوير ممنوعًا، فنحن نجعلهم يرسموننا».

وهكذا بدأ اهتمام أمي بالرسم، تم عمل بورتريه بالألوان الزيتية لها معنا أولًا، ثم لها بمفردها، ثم لكل واحدة منا، وحتى بدرية توجد لها لوحة وهي تقف خلف أمي وفي يدها إبريق، بتعبير أدق تظهر في صورة.

جعلني رسام البورتريه أستلقي على خضرة حديقة القصر في إسطنبول، كان هذا أسعد وأسر أيامي، أعطاني وردة، كان شعري مكشوفًا، وعنقي ظاهرًا. تطاير شعري مثل المياه المتدفقة التي تخصب الأرض، كنت أبتسم بعينين مغمضتين؛ أبتسم كما لو كنت أستمتع بالدنيا وأتذوق كل الملذات؛ أبتسم كما لو كانت لدي أحلام وأنا سعيدة للغاية بها، كانت توجد على الخضرة التي استلقيت عليها الأزهار والطيور والحشرات -التي لم تكن موجودة في تلك اللحظة- وطيور الفلامنجو المنحنية فوق رأسي بفضول، ربما كانت موجودة في ذهن الرسام، لأنها لم تكن هناك عندما كان يرسمني، كان ابن رسام القصر الماهر مثل أبيه هو من يرسم لنا البورتريه.

تقول والدتي: «إنه أرخص من التصوير الفوتوغرافي».

هناك، في تلك اللحظة، كانت الشمس حامية قليلًا، مما أدى

لتحول وجنتي وعنقي إلى اللون الوردي تمامًا كما في الصورة.

تذكر الأيام الجميلة يعيدها، أحيانًا لا تكون على دراية بالجمال الذي أنت فيه، وعندما تتذكر، يحل كل الجمال مكانه؛ لكنه ماض وانتهى، أنا عندما أحزن، يؤلمني عمود أنفي؛ يؤلمني كما لو أنّ خنجرًا اخترق قلبي، التذكر مؤلم.

كنت أفكر بهذا في عتمة غرفتي.

اشتقت كثيرًا لمن في البيت، أمي وفاطمة وهجران.

أنا الآن عاشقة، لقد وجدت عزائي وتسلية لي؛ لكن على الرغم من ذلك طعنتني فكرة أنني من أفسدت أيامنا السعيدة التي بقيت الآن مدفونة في مياه الماضي العميقة، وخلف الضباب.

في تلك الليلة عدت في حلمي إلى اليوم الذي رُسمت فيه لوحتي، فوجدت بعد نهوضي من على الخضرة الشمس التي كانت تدفئني مختفية، ولم أتمكن من العثور على أي شخص.

قلت لنفسي: «هذا ليس فأل خير!».

37

كانت أمي تخاف من بدء يومها بحلم سيئ، هكذا بدأ اليوم الذي عبرت فيه إلى هيبلي مع محمد، سمعت أصوات أقدام بدرية بينا كنت أجلس على فراشي في ظلمة الصباح، كانت الشمس على وشك الشروق، وبدأت في الارتفاع إلى السماء الخالية من الضوء فوق البحر، لمع نجم مضيء في الأمام؛ كأنه يحمل البشرى لنا نحن الفانين على وجه الأرض؛ بأن هناك أملًا للجميع؛ على الرغم من هذا كنت أشعر في نفسي بالعجز والتعاسة كما في الحلم.

أتت بدرية لاهثة كما لو أن قلبها سيقفز من فمها.

وكان بين ذراعيها الطفل ملفوفًا مثل صرة.

قالت: «لقد أردت الطفل؛ لذا أحضرته لأجل خاطرك».

نظرت إليها بشك، والشك هو دودة تقضم أعماق الإنسان، إنه دودة مثل دودة الأرض التي تطيح بالأشجار الضخمة على الأرض التي تعانق جذورها الدنيا.

مددت ذراعي نحو الطفل، حدث ذلك فجأة وبشكل عفوي، لا أعرف لماذا انتابني الندم إثر هذا.

بدأت في البكاء بمجرد أن حملت الطفل بين ذراعي، لم أضمه برفق إلى صدري، حملته بين ذراعي فقط، حملته كما أحمل لوازم حمام أمي على مستوى الصدر كأني أؤدي مهمة نبيلة، ثم وضعته فوق ركبتي، كان لديه شعر ناعم ساقط على جبهته؛ لمسته بلطف، جعلتني نعومته أرتجف.

قالت بدرية: «بلغ اليوم الأربعين، ذكرتني المرضعة، يتوجب أن يعطى اسمًا قبل الأربعين، وإلا سنأخذ جميعًا ذنبه؛ لهذا أحضرته لك، إنه وقت الأذان، اهمسي به في أذنه».

انسكبت دموعي على يدي مثل القطرات المنهمرة من السماء، مسحت عيني، ثم أجهشت في البكاء، كانت بدرية على وشك أن تربت على ظهري كأنما شعرت بالشفقة علي للحظة لكنها تراجعت، أعلم أن استياءها وغضبها هي والآخرون تجاهي لن يزول قط، وأننا لن نعود أبدًا كما كنا في الأيام الخوالي.

قلت: «ليكن اسمه أحمد».

زمت بدرية شفتيها بمعنى «أنتِ أدرى!» أو لا أهمية للاسم الذي أعطيته للطفل.

قلت في وجه الطفل الذي كان صغيرًا مثل قطرة «أحمد»؛ على الرغم من أنه طفل ذكر، إلا أن ملامحه كانت مرسومة بدقة، مثل ندى الصباح المنسق على بتلات الورد؛ اللامع والمتناسق، زفر الطفل بعدها بحزن، أصبح لديه الآن اسم.

38

عندما يحزن الإنسان إما أن يصمت مثل البلبل الذي يأكل التوت أو لا يتوقف عن التغريد مثل البلبل أيضًا، كنت سعيدة لأني عاشقة، يوجد شخص يحبني، ويخفق قلبي لأجله؛ لكني في الوقت نفسه قلقة وغير مطمئنة، ينطفئ لهب الشمعة ولا ريب، وينتهي الصيف ويحل الشتاء، ولا تبقى الأشياء الجميلة جميلة للأبد؛ لو كان هكذا لما عُرفت قيمة الجمال، والحب بعد مدة يتحول لخوف من فقدانه، خوف يبعث القلق، والقلق ليس إلا التخبط هنا وهناك لأجل معرفة النهاية التي لم تكتب بعد.

كان رأسي مشغولاً بهذا بينما كان محمد ممسكًا بمجدافي القارب يُبحر نحو هيبلي، ماذا قالت فاطمة: «اغتنما يا أختيَّ الفرص التي تأتيكما واستمتعا بالحياة؛ لئلا تندبا بعد ذلك السعادة التي لم تعشياها مثلي، احفظا هذا في عقليكما لعشرة أعوام قادمة؛ وإلا ستعانيان التعب مثلي وترغبان في النوم على الدوام».

عندما قال محمد «تصمتين»، قررت التحدث والحكي.

وياله من حكي!

تدفقت الكلمات وانطلقت من أعماقي مثل المياه المندفعة على

جانبي قاربنا، ألم يكن كل من المُتذكِر والمُتذكَر عابرًا؟ مع أني لم أقل ذلك، لئلا يظن محمد أنني أفصحت عما بأعماقي ما إن قال، فكرت في ما قالته والدتي في هذا الشأن: «لا تفكرن كما يفكر أزواجكن!»، «آه، لا يخبر أحدٌ أحدًا بما يدور في أعماقه.. لكل حياته المستقلة في الأساس. صمتنا هو حياتنا الحقيقية، حقيقتنا».

البحر ساكن، والسماء تبدو دانية من الأرض.

بدأت بتسميتي الطفل «أحمد»، تحدثت معه في البداية عن أشياء غير ضرورية وتافهة من قبيل أني أخبرت بدرية أن تحمل الطفل إلى المرضعة وأنني سأعبر إلى الجزيرة الأخرى وأمنتها عليه، اعتقدت أن محمد الذي يجدف بكل قوته شعر بالسأم مما أحكيه لكنه تصرف كما لو كان يتوق للاستماع كما هي الحال دائمًا، وحتى ليلة كانت تستمع إلي ناصبة أذنيها.

وعلى الرغم من أن محمد قال أخبريني عن نفسك، فقد أخبرته عن هجران وفاطمة وأمي وبدرية، ثم عندما أدركت ذلك بعدها طمأنني محمد بقوله: «يظن المرء أنه يحكي أكثر عن الآخرين؛ بيد أنه بينما يتحدث عن الآخرين، يتحدث عن نفسه في الحقيقة».

غمست يدي في البحر، يا له من ماء جميل!

قال محمد عن البحر: «إنه أعظم نعمة من الله!»، وأردف «إنه حبيبي الأصلي!»، وعندما لاحظ عبوسي وغيرتي ضحك.

أعتقد أنه أحب قصة بدرية أكثر من غيرها، كان لدى والدته

أيضًا جارية مثلها تقوم بكل الأعمال، كنت أتساءل عن أحبائه أيضًا؛ لكنه لم يمِل إلى الحديث عنهم، من الواضح أنه اشتاق لهم كثيرًا، بعض الناس هكذا: عندما يشتاقون، ويتحطمون، وينهارون، ويدركون ما فقدوه؛ يصمتون. يتحدث بعضهم مع نفسه مثلي، ويريدون دائمًا أن يحكوا.

«أخبريني المزيد عن بدرية».

كان يدخن سيجارة عالقة في زاوية شفتيه، من يراه يقول إنه متشرد، على الرغم من أنه ليس أقل من العالِم في شيء، من ناحية أخرى لا يبدو أنه انسحب من العالم حتى مع أنه يواصل حياته هاربًا، يريد العيش! يريد العيش مثلي، ومثل أمي، ومثل فاطمة وهجران وبدرية وطفلي الذي وضعته حديثًا، كان حديثه لطيفًا في الواقع، كما كانت لديه ابتسامة ساحرة، عندما ينظر إليَّ تذوب أعماقي، أي إن الحب شيء كهذا.

«لماذا لا تحكي لي؟».

«أنا أشاهدك».

«وأنا أيضًا».

«وليلة تشاهدنا نحن الاثنان».

ضحكنا، رفعت ليلة التي تراقبنا أنفها لأعلى، فسحب محمد المجدافين وتركهما.

«تعالي هنا، قربي شفتيك مني!».

ذهبت إليه، وجثوت أمامه، ومددت شفتي، أمسك ذقني برفق، يا لها من لمسة لطيفة، ناعمة، طبع قبلة خفيفة مثل الريشة على شفتي، كما لو أن طائرًا حط ثم طار فجأة، وطار قلبي وراءه، تقابلت عينانا، وشفاهنا قريبة من بعضها، كان هناك شوق وعاطفة وحب في يدي محمد الناعمة الممسكة بذقني:

«شفتاك مثل الجمر والنار، تحرقانني».

أغمضت عيني، فدفن محمد ذقنه الأنيق والقوي في رقبتي، وظل يشمني.

«لنحترق إذًا. لنختفي، ونصبح رمادًا».

ثم اتحدت شفاهنا مرة أخرى، تبادلنا القبل، نظرت إلينا ليلة وعوت، فنظرنا إليها وضحكنا، لا يمكن وصف الحب والعشق، تريد أن تعانقه وتتخلله، لتصبح له، لتصبحا واحدًا، وليس شيئًا آخر..

قال محمد: «أحبك كثيرًا».

قلت: «لنبقى هكذا للأبد!».

في تلك اللحظة وقع شيء ساحر، ربما لم نستطِع أن نبقى في تلك اللحظة للأبد؛ لكنني شاهدتها كأني أشاهد منظرنا في القارب في وسط البحر، نحن الاثنان، وبجوارنا ليلة تجلس بهدوء.. كأني مت

وخرجت روحي من بدني وابتعدت عنه مثل طائر، أو كأني أنظر إلى صورة التقطت لنا في تلك اللحظة، رأيتنا من بعيد، كنا جميلين لدرجة أنه إذا تطلب أن نموت لأجل البقاء في تلك اللحظة، لأردت ذلك بصدق وتمنيته من قلبي.

39

كان ما أراه من بعيد بمثابة حلم، كنت في حلم، كانت أمي تقول عن الأشياء الجميلة والمستحيلة: «ترينها في أحلامك!»، عندما وجدت نفسي مرة أخرى في القارب المتأرجح بهدوء، سحبت إلى أعماقي رائحة جلد محمد الممزوجة برائحة البحر والملح، عندما انتهينا من تبادل القبلات؛ أخبرت محمد كيف غادرت وشاهدتنا متحابين في القارب، فتعجب، إذ إنه لديه القدرة أحيانًا لمواصلة أحلامه من حيث توقفت، فإذا استيقظ في منتصف حلم كان سعيدًا برؤيته، يغمض عينيه ثانية، ويستغرق في النوم ويواصل رؤية حلمه من حيث توقف.

أخبرتنا بدرية ذات يوم قصة تدور عن لقاء إنسان على وشك الموت بشبحه، لم يكن أحد يتفوق عليها في الحكي.

«هلمي كنت ستحكين عن بدرية؟».

اقتربنا من هيبلي، سأفي بوعدي وأحكي عن بدرية، وما دام فُتح الحديث عن لقاء الإنسان بشبحه وبتوأمه المخيف، وعن أن موته حقيقة معلومة، فقد تابعت:

لم تلتق بدرية بشبحها قط؛ لكنها سمعت وأصغت لمن التقى

وحكى، وهكذا بعد أن أفضت ببعض هذه الحكايا، ارتاعت أمي. وهل أمي فقط؟ هجران وفاطمة أيضًا.

لقد قابل كل منهن توأمه المخيف وشبحه في وضح النهار.

قالت هجران: «والله، كان الأمر أشبه برؤية نفسك في المرآة».

وقالت فاطمة: «كدت أن أسقط ويغمى علي. كنت أمام نفسي».

وسألت أمي: «أكنت أقف هناك وأنظر إلى نفسي الموجودة خلفي بقليل؟!».

ياللغرابة! رأى كل من الثلاثة نفسه في وقت مختلف؛ لكن في نفس المكان دائمًا.

«أين؟».

سأل محمد بفضول، وكانت قطرة أو اثنتان من العرق تلمعان على جبهته.

«في حديقة الورود في قصرنا في إسطنبول».

أدركت أنا أيضًا بعض الأشياء في تلك اللحظة، لماذا التقى ثلاثتهن، وليس أنا أو بدرية، بأشباحهن؟

«أو إنهن سيمتن؟».

«سنموت جميعًا يومًا ما».

لقد شعرت بقلق الشديد لدرجة أنه لولا أن قاربنا وصل إلى الشاطئ، لكنت ألقيت بنفسي في المياه وواجهت الغرق، في مثل هذه الأوقات يضيق قلبي تمامًا مثل أمي، ويريد أن يطير محلقًا وينطلق من مكانه وسط صدري؛ كأنه طير تحاصرونه بين يديكم.

هدأني محمد:

«أمي وأختي أيضًا تؤمنان بهذه الهراءات».

«هذه ليست هراءات».

«من أين تعرفين؟».

«أنت أيضًا تعرف أنها ليست ذلك. حتى إن بعض الكتب كتبت عنها».

لا شك أن محمد يعلم بذلك، لذا صمت؛ لكنني أحببت محاولته التسلية عني وتخفيف قلقي وحتى كذبه (بأن أمه وأخته أيضًا تصدق تلك الهراءات) في سبيل هذا. كم أن الإنسان كائن غريب، يريد أن يعرف ويسأل عن بعض الأمور حتى لو عرف أنها ستحزنه، ينال بعض المتعة من هذا، كان هذا هو التفسير الوحيد الذي أمكنني تقديمه لنفسه عن سبب السؤال الذي طرحته على محمد؛ أما إذا أتينا لما طرحته عليه:

«هل تقابلت مع شبحك من قبل؟».

لن أنسى تلك اللحظة أبدًا.

كنا قد سمعنا صوت احتكاك مقدمة قاربنا بالحصى الكبيرة ووصوله إلى الشاطئ. ساعدني على النزول. كانت المياه حتى كاحلينا. بحر الخريف أجمل من بحر الصيف. كنت أرتدي حذائي، وعباءتي مفتوحة من الأمام، ويشمكي منثنٍ خلف أذني، ونهداي بارزان إلى حد ما. لأننا وصلنا إلى آخر هيبلي المقفر الهادئ؛ لم يكن هناك أحد غيرنا، تجاهل محمد هذا السؤال في البداية، ثم توقف ونظر إلي، واغرورقت عيناه بالدموع.

«نعم».

40

«حسنًا أين؟ كيف؟».

سار أمامي تجاه الشاطئ، كان المحيط جميلًا جدًّا:

«هل هذا وقت التحدث عن هذه الأشياء؟ ولكن إذا انتابك الفضول بشدة، فسأخبرك».

كنت متحمسة للغاية لما سأسمعه؛ أعظم عذاب الإنسان هو نفسه.

«التقيت بنفسي في ساحة السلطان أحمد الفسيحة؛ أمام جامعه الصيف الماضي».

ثم فعل أفضل ما يفعله، لقد تفرع وتشعب في الحديث، أو هبت ريح وحملت ما كنا نتحدث فيه إلى أماكن أخرى كأنها أوراق قمامة:

«هل أنتِ جائعة؟ أفأطبخ لك وجبة لذيذة هناك؟».

هل حان وقت الطعام؟ لا، ولكن كان لا بد أن يكون وقته عند محمد من أجل الهروب من الأسئلة المؤلمة.

كانت شبكة الصيد في القارب مليئة ببلح البحر.

على الشاطئ؛ كانت هناك أشجار خضراء نضرة قصيرة ذات أغصان منفتحة مثل الشمسيات في جمال لم أره حتى ذلك اليوم.

«سيكون تحتها ظلال معتمة».

أشعل النار هناك وما لبث أن طهى بلح البحر، صنع من حفنة الأرز أرزًا بقدر يسد رمقنا في وعاء مكفهر يحتفظ به في قاربه على الدوام، كانت يداه مثل اللهيب: تتحركان بسرعة، شاهدته، أكلت ما طبخه بشهية. دفنت قدماي العاريتان بين الحصى، وتطلعت إلى البحر. لم أكن سعيدة ولا مطمئنة بهذا القدر أبدًا؛ لكن هذا الشعور اجتاح روحي مثل النسائم المنعشة. لم أكن أريد فقدانه. من يريد فقدان من يحب؟

ازدردت ريقي.

طار واختفى مذاق بلح البحر المقرمش الطري ومعلقتي الأرز اللتين تناولناهما، وشعرت كأنني آكل رمادًا. شعر محمد بانزعاجي، وعرض علي عرضًا ليمنحني مشاعر طيبة:

«يمكننا السباحة هنا، لن يرانا أحد».

تحمست فجأة كطفلة.

«أأنت متأكد من أنه لن يرانا أحد هنا؟».

«أنا متأكد، الشاطئ هنا أكثر منطقة معزولة في الجزيرة».

«أمَّان! من يرانا فليرَنا! لم أعد أخاف من أحد».

كانت ليلة واقفة على الشاطئ تشاهدنا:

«أعتقد أن ليلة في حياتها السابقة كانت إنسانًا، وليس كلبًا».

«الإنسان له حياة واحدة. يعيشها ويموت؛ لكن هل تعلم، لا ينتهي ماضي تلك الحياة بالحكي. يعيش الإنسان في ماضيه أكثر من اليوم. لأنه دائمًا ما يفكر في ماضيه».

«هل أنتِ كذلك؟ هل تفكرين في ماضيك طوال الوقت؟ كم عمرك أنت؟».

«سبعة عشر!».

«أنا في الرابعة والعشرين».

«لسنا طفلين؛ علاوة على أني كبيرة بما يكفي لإنجاب طفل».

«وأنا أيضًا ناضج بما يكفي لدراسة الحقوق في أوروبا، وبما يكفي لأسعى لإنقاذ البلاد...».

قاطعت محمد: «كان أبي يقول 'من يسعى لإنقاذ هذا البلد؛ مغفل!'».

«والدك على حق، لأن هذه البلد لن ينجو!».

«كما تقول بدرية فإن خميرتها قد فسدت!».

«هذا ممكن. الكل يريد لنفسه السلطة، وما العمل! ما في أيديهم لا يكفي السلطان حتى».

«الجميع يقول زعمًا إنه يعمل من أجل رفاهية وسعادة ورخاء الشعب؛ لكنه كذب. كما أنهم من ذوي الأذناب[1]. ذووا الأذناب كذبة!».

«أحسنتِ! تبدو الأنظمة التي تعاقب فنانيها ومفكريها سيئة في كل وقت. لا تخبري الآخرين بما تقولينه هذا، وإلا تصبحين مثلي غريبة ومنفية وهاربة!».

«أظن ذلك، فأنا أيضًا منفية وهاربة لكن بشكل آخر، هل يوصم رجل بأن له طفلًا غير شرعي؟ هل يرجم بالحجارة؟ لا. لكن أنا؛ أنا يحق بي وأستحق كل شيء، ليت أمي ولدتني ذكرًا!».

«لا رجل ولا امرأة! من الصعب أن تكون إنسانًا في هذا البلد. انظري وسترين! هذا البلد سيقع في النهاية في أيدي مجنون، وسيحرق أراضيه لإخفاء أخطائه وقذاراته. سيلقون بالبلاد في النيران. سيقاوم السلطان من ناحية والوطنيون من ناحية على هذا البلد. كلهم سيعانون من جانب واحد؛ لكن العناء الأصلي سيكابده شعب هذه الأمة. الجميع يعتقدون أنهم يحبون وطنهم وأمتهم؛ لكنهم مخطئون؛ لأن هناك مقولة وطنية لمن ليس لديهم ما يخسرونه "ليبق كبريائي وبغضي على الأقل!"، 'وحشدي الذي

1- العقارب.

سأتخذ مكانًا فيه!'، هذه الأمور لا تجري دون الرغبة لدي في شخص مختلف، وشخص آخر، وشخص ليس معك، ودون أن يعرف الجميع الحق والحرية؛ لو حدث ذلك فقط ستحدث».

«هل أصدرت الحكم بهذه السرعة على السلطان الذي اعتلى العرش حديثًا؟».

«أنا على دراية بأفكار عبد الحميد من وقت كان أميرًا، أنا أعرف ماذا سيفعله كاسمي، ليقم سلطاننا الجديد بجولاته في البوسفور والبحر كما يشاء ويبدو كما لو أنه أقرب للشعب وللإنسان من جميع مناحي الحياة، نحن نعلم مثل العسل أنه ليس كذلك! سيرى الجميع قريبًا الوجه الحقيقي لعبد الحميد الذي كان يكن لي الخصومة ويشي بي لعمه السلطان منذ أن كان أميرًا».

«ربما يدفع عبد الحميد الدين الذي أخذه عمه ذو الوجه اللحيم من والدي، وتنهي أمي قصرها غير المكتمل».

أطلق محمد القهقهات. يالجمال أسنانه! ثنيات فمه، لية شفته، وتغطية شفته العليا لأسنانه.. بينما ما زلت أشاهده بإعجاب؛ تابع حديثه من حيث توقف:

«أمُهمٌّ للغاية استكمال القصر؟».

«إنه مهم. لأن والدتي ستفرح».

«أنا أيضًا أمي هي أكثر من أحب».

أدرت رأسي نحو البحر، لم أكن أريده أن يراني وأنا أبكي كالأطفال، غالبًا ما يكون الرجال غير منتبهين كثيرًا؛ لم يلاحظ حتى إنني على وشك البكاء، واصل حديثه متطلعًا إلى البحر الفسيح الممتد أمامه:

«علق بذهني شيء: أنتِ تقولين قصرًا، قصرًا، لكنه بيت».

«نحن نعرف ما هو القصر، وما هو البيت. لكننا لا نريد تدمير أحلام أمي».

«آسف، لم أقصد إحزانك».

«وما الذي يحزنني يا عزيزي؟ وهل يحزن الإنسان من شيء كهذا؟ أمي أرادت تشييد قصر وليس بيتًا؛ ضخم ومهيب. حتى إنها أطلقت عليه قبل أن يكون قصرًا، ولم يكن. بقي عقدة في ذهن أمي».

«من المؤسف لا بد أنها أيضًا ممن يواسون أنفسهم بالأشياء التي يشترونها بمالهم».

«هكذا هي! كان لا بد أن تكون كذلك. إلى أي جهة أخرى يمكن أن تحملها طفولتها وشبابها اللذان ذهبا هباءً وزواجها التعيس؟! التفكير في الماضي لا يمنح شيئًا سوى الألم».

«حسنًا وأنت؟ ماذا يمنحك الماضي؟».

«الشوق فحسب».

لم أستطع إخفاء بكائي أكثر، أحنيت رأسي وبدأت في البكاء، احتضنني محمد، تعانقنا وتبادلنا القبلات، سلى عني بكلماته اللطيفة:

«لا تقلقي! ستلتقين بهن في القريب العاجل ولن تفترقن بعد ذلك».

قالها بشكل قاطع لدرجة أثارت في الدهشة، وفي الوقت ذاته، أقنعتني وطمأنتني، سرى الدفء في أوصالي، هذا ما يحدث عندما أفرح، يملؤني الدفء دائمًا، في رأيي أن لكل عاطفة لونًا ورائحة بقدر الإحساس الذي تمنحه للجسم.

إن شاء الله ألتقي بأمي وأختَي، كأن أيامنا الماضية حلم، وأنا أرى نفس الحلم كل ليلة، لا أستطيع أن أصف الحزن الذي أشعر به عندما استيقظ، قلت هذا وسط دموعي، ثم بدأت أحكي عن الأيام التي مرت معهن، والتي تقتحم الآن أحلامي:

«قامت أمي بفرش البيت بأكمله مثل بيوت النساء الأوروبيات، ولأنه كان من الصعب علينا جميعًا الجلوس على كرسي، أعدت لنا أريكة أمام النافذة. كان يتوجب علينا عندما نذهب إلى السفيرة الإيطالية وعندما تأتي إلينا أن نجلس أمامها مثلها تمامًا؛ لكننا كنا نمل من الجلوس وكأنما ابتلعنا شوبق. إذا نظرت إلينا، تجدنا نتثاءب وأيدينا مجتمعة فوق رؤوسنا. أحيانًا نتثاءب كثيرًا لدرجة أن أمي توبخنا "وقع فكك انحني لتأخذيه من الأرض!" وإذا لم

تستطع هي أيضًا تحمل الجلوس وأحست بعدم ارتياحنا على الأريكة، فستقول شيئًا آخر يبرر سلوكنا وحركتنا ولن توبخنا: "أصابت بناتي العين!".

لا يمكننا أن نمنع أنفسنا من الاسترخاء ومتعة الحمام الذي نقوم به صباحًا، ينثنين ويتمددن فوق الأريكة مثل القطط المشاكسة. أخذت هجران وسادة وأسندت عليها مرفقها، وقوست فاطمة ظهرها مثل القطة، كنت أحب الجلوس القرفصاء أكثر ما يكون؛ لكن أمي منعتني من القيام بذلك لكيلا تعوج ساقاي، كنا جميعًا بارعين جدًّا في شيء لم تكن النساء الأوروبيات يقدرن على فعله: ترك أنفسنا أينما نكون في المقابر أو الحدائق، والجلوس دون مساعدة من أيدينا، والوقوف بلا حركة في مكاننا مثل التماثيل، وبعد ذلك النهوض من على الأرض مثل زنبرك فارغ دون أن نستند على أي شيء».

«آه، ألا أعرف؟!» قالها محمد تعقيبًا على ما قلته: «كنت أشاهد في كثير من الأوقات النساء يقفن أمام المقبرة وفي الحدائق ويجلسن وينهضن برشاقة؛ لكن هل تعرفين أكثر ما أحبه؟ مشاهدة امرأة تستريح، وتغفو، وتستلقي على أريكتها مثل جيلي خفيف حلو، مشاهدتها راقدة...».

ابتسمت له وواصلت كلامي:

«أساسًا قالها رحالة بشأننا "كل لطافة المرأة في راحتها"

الجميلة النائمة التي تسقط رأسها إلى الوراء، وتنثر شعرها، وتدلي ذراعيها على جانبيها، تحصل على كل ذهب ومجوهرات زوجها».

ضحك محمد على قولي هذا؛ أما بالنسبة لي فانتهى قلق الأيام التي حاولت تمضيتها بالجلوس والقيام، بدأت في الحكي عنها وعن ذلك القلق ببطء أكثر. غارت عيناي. كانت تلك الأيام تومض أمام عيني واحدًا تلو الآخر. بدت وكأنها متواصلة لم تمض أبدًا، ولم تنته:

«أرادت أمي أن نجري محادثات جميلة، فجعلتنا نتعلم دروسًا من النساء اللاتي تعرفن هذا جيدًا؛ على الرغم من ذلك لم نتمكن من التحدث. الآن والكلام يتدفق مني مثل المياه؛ أعرف ذلك، إذ من أجل محادثة متناغمة لا بد أن تشعر تجاه من أمامك بالحب والإعجاب والاحترام والاهتمام والشغف».

أومأ محمد برأسه موافقة على ما قلته، فواصلت الحديث:

«في النهاية صمتنا وانشغلنا بما نفعله، كنا نجلس على الوسائد والسجاجيد ونطرز حواف المناديل التي سنقدمها كهدايا لصديقاتنا، ونقوم بشغل طواقي النوم وجرابات التبغ لأبينا وشقيقنا وصهرنا من قيصري، شغلت هجران واحدة أيضًا لحبيبها البستاني، وقالت لأمي "سأضيفها لجهاز عرسي" فقالت أمي "عجبًا! من أين علمت مقاس رأس زوجك؛ لتشغلي له جراب تبغ فقط!" وأشارت عليها فاطمة "وربما لا يدخن التبغ، في رأيي

ألا تشغليه حتى!" لهذا أعطت هجران لحبيبها البستاني طاقية وجراب تبغ غير مكتملين».

«وغير ذلك؟».

آه، كم كان محمد يسأل بطريقة جميلة، نقي وعفوي كطفل، ما أجمل أن تعرف المرأة أنها محبوبة يا إلهي!

«ثم نسبح مئة مرة، وكانت أمي تعد لأعلى رقم تعرفه كما كانت معتادة في الحرملك. وفي عقب ذلك كانت تحكي لنا عن أحلامها عن الحرية والحب أثناء وجودها في الحرملك متابعة بنظريها الدخان الأزرق للسجائر التي تدخنها. حذرت بدرية كالفا أمي "لا يليق بالأم أن تفعل هذا أمام بناتها".

ردت عليها أمي: "اخرسي! بدلاً من أن تعلميني الآداب! اذهبي وأحضري الشيشة!".

سئمت من السجائر، وبدأنا ندخن تبغ اللاذقية. وعندما نتعب من الشيشة، كنا نحتسي القهوة، ونتناول الفاكهة والحلوى، ونضع البوظة في أفواهنا ونضربها لتتحول وتذوب بعد نصف ساعة، ندخن نرجيله برائحة ماء الورد، ونرتشف الترياق حتى تذهب رائحة التبغ».

بقيت صامتة بعد كلامي الأخير هذا.

خطر على بالي امتصاص فاطمة لمسير معجون[1]، كانت هجران تسخر منها وتنكزني قائلة: «انظري كيف تمتصه فاطمة!».

لم أفهم ما الداعي لمشاهدة هذا على وجه الخصوص.

«يا له من فعل غبي! لقد عرفت منذ كثير ما لم نعرفه واعتادته! انظر وشاهد كيف ستفعله». بينما كنت أشاهد فاطمة التي تمتص مسير معجون باشتهاء ولذة دون أن أفهم الداعي لمعرفة ماذا ولماذا وكيف تفعل ذلك؛ كانت هجران تنظر إليّ وتضحك.

وكلما تذكرت ضحكت أنا أيضًا.

وعندما سألني محمد لماذا أضحك، قلت له «لا شيء».

كنا على الشاطئ.

محمد يرقد على ركبتي.

ويواصل اللهو بمرح كما كان في الليل.

انفجرت ضاحكة عندما قال: «كما لو أن نهيق خاصتنا يصدر من أعماق الشاطئ المقابل».

كنت أطلق القهقهات من أعماقي هكذا عندما كنت مع هجران وفاطمة وأمي:

1- مسير معجون (Mesir Macunu): حلوى تركية تقليدية لها تأثير علاجي ظهرت أول مرة خلال العهد العثماني.

«وبعد ذلك؟».

بدت لي تلك الأيام حاضرة أمام عيني عندما سأل محمد:

«ثم شربنا عصير الليمون لإزالة رائحته. نرتدي ونخلع ملابسنا ونجرب كل الثياب التي في الصندوق ثوبًا تلو الآخر، ونصنع شامات على شكل نجمة وهلال على وجوهنا ثم نمسحها، ونستمر في اتخاذ كل الوضعيات الممكنة حتى نرى الهيئة الأفضل في دستة المرايا. في بعض الأحيان كانت بدرية تأتي بالعرافة المارة من الطريق لتجعلها تقرأ لنا الفأل، كان هذا بمثابة عيد صغير لنا جميعًا. كنا نبقى ساندين وجوهنا على قضبان البيت التي في الطرف الذي يطل على الشارع ونشاهد الآتين والمارين والكلاب التي تلعب في الشارع. وهي تعلم الببغاء الذي تركته لنا السفيرة الإيطالية العائدة إلى مسقط رأسها كلمة جديدة، تخرج إلى الحديقة وتتأرجح، تدخل المنزل وتصلي، تتمدد على الأريكة وتلعب الورق، ترحب بالضيف القادم، ثم تعيد الكرة مرة وتواصل بالترتيب القهوة ثم التبغ ثم عصير الليمون ثم الطعام ثم القهقهات المزعجة ثم التثاؤبات المسموعة، وفي النهاية يغادر الضيف، وتهمس بدرية كالفا لأمي من على عتبة الباب:

«جاء السيد!».

حتى لو كان أسوأ زوج في إسطنبول؛ الله أرسله! ذهبت أمي لمقابلة أبي قائلة هذا، أما نحن فكنا نتابع هبوط ظلام الليل شيئًا

فشيئًا، في البداية لمس أطراف الأوراق، ثم تسلل ببطء إلى الأرض، وعندما تسلل إلى الأرض تحول وجه السماء قطرة قطرة من الأزرق الداكن للأسود، ثم سطعت النجوم في الظلام. كان لكل منا أنا وهجران وفاطمة نجمة، ومن يدري؛ ربما كانت لبدرية أيضًا، لم نسألها، نمنا مرهقين من عناء اليوم، مهما فعلنا ومهما كنا متعبين.. تتم دعوتنا للطعام إذا كان أبي في حالة جيدة، أما إذا لم يكن كنا نأكل بمفردنا، وأحيانًا ننام دون أن نأكل، إن لم نفكر في الخروج من البيت يمر يومنا هكذا.

وعندما ربح أبي المزيد من المال تغير هذا النظام، زاد شغف أمي بنمط حياة الكوكونا، ولم تفارق اللغة الأجنبية لسانها، كان العيش كالغربي وسيلة لنسيان أيامها الحزينة في الحرملك، لهذا بدأت أمي في ارتداء الكورسيه، والوقوف بشكل مستقيم، والجلوس على كرسي وتطريز الطارات، وأجبرتنا على القيام بذلك، وهكذا وصلنا إلى نهاية الأيام التي تناثرنا فيها مثل الهلام على الأرائك والسجاد».

«وماذا فعلت بعد ذلك؟».

سأل محمد ذلك بصوت شبه نعسان من حيث يرقد:

«نحن أيضًا واصلنا التجول صيفًا وشتاءً بالمظلات في أيدينا نديرها بخفة بين أصابعنا، وواصلنا دروسنا، وكنا نتهاوى على الأرض حالما نعود إلى المنزل، ونجلس على السجاجيد حسب الآداب القديمة، لقد اعتدنا بصعوبة على المنضدة والكرسي حسب الطراز

الأوروبي والكرسي حتى إننا كنا نتهاوى على الأرض سهوًا ونجلس أمام أعين الجميع في الفندق الذي كنا نقيم فيه في جزيرة الأميرات».

«أخبريني المزيد! هل لديك أي شيء آخر تحكينه؟».

كان رأسه الجميل لا يزال على ركبتي، فطبعت على خده قبلة، أدار وجهه نحوي قائلًا: «لتحط الفراشة التي حطت على خدي بجناحيها الناعمين؛ فوق شفتي أيضًا!»، قبلته من شفتيه لأجل خاطره، ثم نظرت إلى البحر الممتد أمامي، فاعتدل ونظر:

«كم يرتفع وينخفض بجمال مثل صدر العاشق!».

أضفت قائلة: «مثل صدر العاشق المفعم بالبهجة!».

ثم خطر على بالي فقلت:

«يمكننا أن نسبح هنا عرايا كما ولدنا، قلت لن يرانا أحد، أليس كذلك؟».

كنت أخلع ملابسي بينما كنت أسأل هذا، لم أشعر بالخجل أبدًا، ألا نأتي إلى هذا العالم عرايا؟! ثم يبدأ خجلنا مع الأشياء التي نضعها فوقنا لاحقًا.

حان وقت ملابسي الداخلية:

«سوف يقتلونني حتى لو دخلت البحر بملابسي الداخلية، لأبقى عارية.. وأستمتع بالحرية. دعهم يشنقوني! ولأقول "دخلت البحر

عارية، فعلتها!"».

بقي فم محمد مفتوحًا من الدهشة، وتابعني بينما كنت أركض إلى البحر، ثم جاء إلى جانبي عاريًا هو الآخر، وقفت ليلة على الشاطئ تنبح علينا، غطسنا وخرجنا، تبادلنا القبل تحت البحر، لعبنا ألعابًا صبيانية، بعضها معيب...

قلت: «إذا رآنا أحد، فربما يعتقد أنني ولد بسبب شعري القصير».

سحب محمد ذراعي: «تعال إلى هنا لنرَ أيها الفتى الجميل!».

ثم فعلنا مع بعضنا أمورًا مستهجنة، لكني أخجل، ولا يمكنني الحديث عنها.

42

بعد أن خرجنا إلى الشاطئ وتجففنا وارتدينا ثيابنا، استلقينا متعانقين على الحصى المفروش تحتنا كأنه سرير ناعم.

كانت فاطمة تقول: «يطلقون عليها 'ملعقة'»، على وضعية استلقاء الرجل محتضنًا المرأة من ظهرها..

«هذه أكثر وضعية أحبها للنوم، لكن صهركن لا يفضلها؛ يدير ظهره ويجعلني أشاهد قفاه»ـ كانت فاطمة تقول ذلك عابسة.

اعتقدت أن هذه عادته في النوم؛ لكنها واصلت بخيبة أمل:

«خاف صهركن ذات ليلة من الرعد وذهب إلى جوار والدته، أنا لم أحكِ لئلا تسمع والدتنا وتحزن؛ إياكن أن تخبرنها».

لم تستطع هجران حفظ السر، ذهبت راكضة لتوصيله لأمي، كان محمد يصغي لكل ما أقوله بأذن روحه، ليس هناك عاشق مثله ولا مستمع جيد بقدره.

سألني قائلًا: «حسنًا وماذا فعلت أمك؟».

كنت أشعر كلما حكيت عن أمي وهجران وفاطمة وحتى بدرية كأنما ألتقي بهن ثانية.

لو كانت بدرية معي الآن حادة وقاسية حتى، كان كل حديثي هذا مثل قصعة ماء لإخماد غضبها:

«استغلت أمي الفرصة وأخبرتنا كيف يكون الزوج صالحًا؛ دون أن تُنفر فاطمة من زوجها».

«كيف يكون؟».

«يوجد وضع واحد فقط لهذا: أفضل زوج هو الزوج غير الموجود».

ضحك محمد كثيرًا على هذا.

فقلت: «لقد كنا أربع نساء أحرار جدًّا في عالمنا لدرجة تدهشك، كنا نسعى ركضًا خلف أحلام أمي، نشاهد محيطنا بعيون شرهة، كان القصر الذي على الجزيرة أو الشاليه -أيًّا كانت تسميته- سيكون عالمنا الذي لا يقاس ولا يقدر بالحجم؛ لكنني أفسدت كل شيء».

«كفى! لا تلومي نفسك أكثر!».

لان صوت محمد.

قلت: «إذا قلت لك أكثر من ذلك، ستنام هنا».

قال: «لأنام».

فتحدثت:

«عندما أقرض أبي المال للسرايا، ظل يتجول لفترة في الأطراف منفوشًا مثل الديك الرومي».

ضحك محمد في مكانه حيث يرقد:

«أمثل الديك الرومي؟».

رق صوته، مست أنفاسه الدافئة عنقي؛ كانت أنفاسه تفوح برائحة النعناع، واصلت الحكي بين ذراعي حبيبي وفي حضنه؛ دون أن تفارق عيناي زرقة السماء والبحر الممتد أمامي:

«ثم ضاقت عليه الحال، وأصبحت مجوهرات أمي تروح وتجيء من السوق».

«إلى أين كانت مجوهرات أمك تروح ومن أين تجيء؟».

«هذا ما سألناه، لم يجب أبي، وأمي كذلك عينت جاسوسًا خلفه، كان والدي يبيع المجوهرات أولًا، ثم يشتريها مرة أخرى».

«كيف هذا؟».

«لم تتوقف أمي التي كانت تقبل وتشم مجوهراتها على الدوام، عن البكاء والدبدبة لأيام، وذات يوم أعاد أبي ثانية المجوهرات التي أخذها، وهكذا استعادت أمي قلائدها وأقراطها وأساورها وبروشاتها ودبابيسها وخواتمها التي ذهبت واحدًا واحدًا، وعاد أخيرًا الخاتم ذو الياقوتة الذي تناحرت -كما زعم- سيدات إسطنبول من أجله؛ لكن أمي اعتقدت أن لون الياقوتة الأحمر

الباهر لم يعد كالسابق، بهت لونها، بقيت أمام النافذة لعدة أيام تلصق عدسة أبي في إحدى عينيها وتدير الخاتم وتقلبه، ظلت تفعل ذلك تارة تحت أشعة الشمس في الحديقة، وتارة في الظل، وتارة أخرى خلال رحلة بالقارب في مضيق البوسفور، وتحت الضوء الساقط في كل ركن من أركان إسطنبول على حدة، كانت تحاول تذكر كيف كانت تبدو ياقوتة خاتمها الحمراء لعينيها، في النهاية زادت شكوكها وارتفعت مثل الشمس، وأخذتها إلى بائع حجارة ماهر، لم تستطع الذهاب إلى السيد ياقوب لسبب ما، لم نعد نمر حتى من أمام متجره، حتى لو حدث ذلك عن طريق الصدفة، تحذرنا أمي: 'من هنا يا فتيات!' وتجعلنا نغير طريقنا، قال بائع الأحجار لأجل الخاتم ذي الياقوتة 'هذا مزيف يا سيدتي!'، خلعت أمي مجوهراتها الأخرى كأنها كانت مستعدة لهذه الحقيقة المرة: 'وهذه؟' كانت كل مجوهراتها التي ذهبت وعادت مزيفة! ذهب كذب أبي وقوله أنه أعطاها للمرتهن وأعادها منه عبثًا، كان كله كذبًا! كما أنها كذبة مُذنَّبة! اتضح أنه اشترى الجاسوس الذي أطلقته أمي خلفه؛ قالت أمي: 'ومقابل ذهبية واحدة'، 'مع أنني عددت في راحته عشر عملات ذهبية! ذهب وباع نفسه بالذهب!' كانت هناك حقيقة أخرى مُرة تذرف أمي الدموع من أجلها: «أي إني هكذا؛ امرأة لا قيمة لها.. سواء كانت حاجياتها مزيفة، أم حقيقية؟ لا يوجد أي فرق».

في طريق العودة أخذت أمي تبكي بنشيج في عربتها التي يجرها حصان، ونثرت ما في الصرة المملوءة بالمجوهرات قائلة ليكن عيدًا

لمن يجدها في الطريق حتى يذهب إلى الصائغ، لم يتبق سوى خاتم ذي ماسة والخاتم ذي الياقوتة اللذين نسيتهما في إصبعها، في النهاية واستها بدرية بكلماتها: «أمَّان يا سيدتي! أنتم بقية السرايا وخرج القصر! إذا ارتديت صفيحة، يظنونه ذهبًا’».

كان محمد غافيًا كالطفل، يقال عليه لو سألتم «نوم الأرنب!»، سأل بهدوء دون أن ينقص الفضول من صوته:

«ماذا يعني بقية السرايا وخرج القصر؟».

«كانت أمي تقول ذلك على نفسها، لأنها أخذت إلى السرايا أولًا كجارية ثم أهديت إلى مربي طيور السرايا وعاشت في قصره، وفي النهاية تم إخراجهم من القصر ونفيهم إلى مصر، كانت أمي تتمتع بقوام فريد وأناقة لدرجة أن خياطها قال: «وإن ألبستك أجولة، يأتي جميع الحمقى في إسطنبول إلى باب منزلي ويقولون ‘خيط لنا مثلها!’؛ غير أنهم لا يعرفون أنه لو ارتديت جوالًا، لظنوا ما عليكِ نسيجًا هنديًّا لا يقدر بثمن!».

«أنتِ إذًا أخذت كل جمالك من والدتك».

استدار محمد خلفي وطبع قبلة على عنقي عند طرف عظم الترقوة، واصلت حديثي، لأن هذا كان أكثر ما أعرفه؛ كنا نحب حكي أمي والاستماع له؛ لكن أمي كانت تقول «أنتِ أيضًا تستطيعين الحكي»، الفتيات اللاتي يتحدثن بشكل جيد في الحرملك واللاتي يسمعن باهتمام مقدمات عند السلطان، أولئك اللاتي يحكين جيدًا

مثل شهرزاد سيترقين إلى خاصكي سلطان[1]، ثم إلى والدة سلطان في النهاية، أي أعلى مرتبة يمكن أن تصل إليها المرأة في الحريم، وبم يفيد الذهب والعرش والثراء والترف والأطعمة اللذيذة والفرش الناعمة بعد أن تصبحي تعيسة؟!

«أنتِ تشعرين إذا ما كان الشخص الذي أمامك يريدك أن تصمتي أو تتحدثي». قالتها ونبهتني: «لا أحد يحب من يتحدث كثيرًا، قومي بالثرثرة غير الضرورية في أعماقك، تحدثي بها بينك وبين نفسك، وشغلي عقلك خلال هذا؛ كي لا يصيبك الخرف».

قال محمد: «اييييه؟ سكتِّ، احكي هيا!».

أي إني كنت أتحدث مع نفسي، تسبب في هذا بقائي منعزلة لأيام لأنني أحمل في بطني عارًا، حسبت أنني أتحدث؛ لكنني كنت أتحدث مع نفسي، والحال أني بقيت صامتة؛ لكنني لم أخبر محمد بهذا؛ لأن أمي كانت تقول «لا يُقال كل شيء للرجال». الرجال حمقى، لكن لأنهم يروننا ضعفاء؛ يرتقون مع انعدام التفكير وبالقوة الغاشمة للأعلى مثل زيت الزيتون، إما أن يحزنونكن بعدم تذكر ما قلتُنَّه وعدم الاستماع، أو يحتفظون بكل ما تحكينه بخبث ثم يقرعون به رؤوسكن في المستقبل، لا تخبرن الرجال بكل شيء، اجعلن لقلوبكن حجرات سرية، اجلسن بعيدًا وتحدثن مع أنفسكن، ليكن لكُن سر وخبيئة، هذا الدفتر هو ما احتفظت فيه

1- خاصكي سلطان: لقب من ألقاب العائلة المالكة العثمانية، كانت تحمله زوجة أو أكثر من زوجات السلطان.

بسري! ما مررت به، وما لم أخبر أحدًا به، كنت أنا أيضًا أرغب في الكتابة حتى لا يُنسى أي شيء أبدًا، تمامًا كما التقطت أمي لنا الصور وجعلتهم يرسموننا لتذكر اللحظات الجميلة.

اقترب محمد كثيرًا وشعر بالقلق:

«عندما تسكتين، أدور بمركب مزقت الرياح شراعه. احكي هيا!».

قررت عدم جعله يكرر ما قاله، لأن فاطمة كانت تقول: «لا تجعلي أحدًا يُلح عليك أبدًا! وإلا فإنه سيكون مثل شرب اللبن المخضوض، فالشخص المُلح سيخض رأسك».

قلت لمحمد: «لأخبرك عن بدرية إذًا! على الرغم من أن أمي كانت تقول 'لا تحكين كما لو أنكن تنتقلن من فرع إلى فرع، اربطن ما تحكونه بعضه ببعض مثل خيط الحرير'. لكنني لست بهذه المهارة بعد.

«المهارة الزائدة مضرة، لأن الأشياء الكاملة ليس لها روح، فالجمال الخالص ممل».

أنا أتفق مع محمد. كانت هجران أيضًا تحب الأشياء الناقصة. وتقول «لهذه الأشياء جمال مختلف»، أغرمت بالفتى البستاني لأنه كان الوحيد الذي يتطلع إليها برغبة، نظرت ذات يوم إلى الورود التي في المزهرية وبكت، الورود التي غرسها لأجلها، أصبحت حتى لا تستطيع النظر إلى الورود في الحديقة وليس في المزهرية فقط،

كانت تدير رأسها بأسى، كنت أحزن لأجلها.

كما كنت أحزن في بعض الأحيان من أجل بدرية أيضًا، كانت تفقد صوابها أحيانًا، وتفكر أنها خسرت بسبب عيوبها، وكانت تندب:

«لو لم أكن عرجاء، كنت سأقدم عن توأمي. ولو لم تكن أصابعي ناقصة، لكنت أخذت إلى القصر منذ كثير».

«ولدت توأمة بدرية أولًا؛ من نجحت في أن تصبح إحدى جواري عبد الحميد. وجاءت بدرية بعدها. وبسبب أنها استدارت بالعكس لتفسح المجال لتوأمتها التي ودت المجيء قبلها، وأرادت القابلة إخراجها فجذبتها من قدميها؛ لهذا صارت بدرية عرجاء؛ لأنها أعطت الأولوية لولادة توأمتها. كان هذا هو أصل الحكاية. لكنها سئمت من تلك الرواية وحكت قصتها على النحو التالي: نُقلت الأختان إلى السرايا كجاريتين. وما حدث حدث بعد ذلك، أصبحت الأولى من المحظيات، وعندما وصل الكلام إلى هنا سألت هجران بدهشة:

«هل رأت ذكر الأمير؟».

قالت بدرية بغنج: «لا يقال عليه كذلك!».

كنت أنا من سأل بسذاجة هذه المرة: «وماذا يطلق عليه؟».

واصلت بدرية: «بعد تناول خاصة سلطان المستقبل».

«بعد تناول ماذا؟» سألنا كلنا هذه المرة حتى فاطمة، قالت بدرية:

ستَرون عندما تتناولنه، وتقلن «أوه، هذا الذي قالت بدرية يمكن تناوله». وملخص بقية كلامها كالتالي: خدعتها توأمتها الغيورة واتهمت شقيقتها بالسرقة، أخذت بدرية إلى الفلكة، وبفضل الرشوة التي تلقاها الضارب بالفلكة، تعرضت للضرب بشدة، وكُسرت ساقها، ولم تتعافَ مطلقًا، وطُردت من القصر، كانت تروي حكايتها بهذه الطريقة بعد ما حل بأمي التي كانت تتجول متخفية في هيئة امرأة فرنسية».

«أيهما تصدقين؟».

«لا شيء منهما؛ لأن جميع من يروون قصة عن أنفسهم يكذبون».

فسألني عن شيء آخر بخجل، اعتدل مكانه، كان من الواضح أنه سيقول شيئًا جادًّا ومهمًّا:

«ما تخبرينني به عن نفسك حقيقي، أليس كذلك؟».

قلت «حقيقي!»، وعاجلته بالشرح قبل أن أترك له فرصة:

«أنا لست متزوجة من شخص أو خلافه، وأنا لا أترك زوجًا عجوزًا في المنزل وآتي إلى هنا لأكون حبيبتك. أنا لست مثل المرأة التي في تلك الرواية الفرنسية».

ضحك محمد بعذوبة:

«أو هي إيما بوڤاري تلك المرأة التي تقصدينها؟».

«أخبرتنا السيدة الفرنسية صديقة السفيرة الإيطالية أنها قرأتها، وجدت أمي أوجه تشابه بينها وبين البطلة وشعرت بالقلق، وفي طريق العودة سألت: ‘فتيات، هل تعتقدن أني كنت العاهرة التي روت تلك الساقطة الفرنسية حكايتها؟’ قلنا جميعًا معًا ‘لا’، على الرغم من ذلك لم ترد أمي مقابلة تلك السيدة الفرنسية التي كانت شغوفة برؤية بيت تركي مرة أخرى، وأوضحت حجتها بقولها ‘ستسمر في حكاياتها لنا عن عبث الساقطات الفرنسيات’، يخاف الإنسان ممن يشبهه، يخاف من مثله ويهرب؛ لكن بدرية كانت تطارد خوفها، هذا ما التهمها وقضى عليها».

«حسنًا وكيف علمت أن أختها كانت من محظيات عبد الحميد؟».

«أما هذه فحكاية لا يُشبع منها! كانت أكثر ما يحب فاطمة وهجران حكايته، التقتا بعد فترة طويلة من رغبة شقيقتها في القصر في العثور عليها وأخذها لجوارها وعدم تمكنها من هذا، لكنهما لم تكونا قد التقتا قبل ذلك اليوم أبدًا، وكان هناك من يوصل الأخبار بينهما بين الفينة والأخرى، وبينما كنا نقضي وقتًا في استوديو التصوير الخاص بعبد الله لالتقاط الصور؛ جاء الموكب من القصر، وتبين أنهم اختلطت عليهم الأيام! ظنوا أن اليوم هو الغد وجاؤوا، أي؛ لا يمكن ردهم بالطبع، في ذلك الوقت، رأيت عبد

الحميد الذي كان أميرًا، حدقت فيه لأرى كيف يبدو، قلت لو شاء لضُرب رأسي، لم يكن لي شيء لأخسره، لأنني كنت أشعر بالكارثة الوشيكة فحتى لو لم يكن أحد يعرف أنني حامل؛ كنت أنا أعرف، فكرت بيني وبين نفسي أن في موتي خلاصي، لم يكن الأمير يلتفت لرؤية أحد، انتقلوا بسرعة إلى الغرفة شبه المظلمة حيث يتم التقاط الصور، بدا لي البقاء في تلك الغرفة كما لو أني أنتظر في قبري، قيام القيامة والبعث، وفي النهاية مرت هذه في عباءة تجر أطرافها؛ رائحة المسك تفوح منها، مع خشخشة أساورها، وحفيف أطراف ثوب الحرير الذي عليها، وشعرها الذي تُشعر الجميع باهتزاز خصلاته وشعراته، حتى لو بقي تحت الحجاب؛ كأنها ليست امرأة مثلنا، وكأنه لا مثيل لها في العالم: أخت بدرية التوأم بدري فلك!

في البداية وقفت أمام بدرية ونظرت دون وعي، ألم أخبرك عن ما حل بخاصتنا وحالتهن عندما رأوا توأمهم الآخر؛ تمامًا مثله، لم تعرفها بدرية، لكنها عرفتها، في النهاية تعرفت بدرية على من تنظر إليها من وراء بيشة لم تبين سوى عينيها، لأن العيون تكشف الجميع».

«أي إن الشقيقتين التقتا هناك؟».

«لم يجرِ الأمر هكذا تمامًا، تمالكت جارية السرايا نفسها فتراجعت في صمت، وذهبت مخلفةً وراءها رائحتها وخشخشة حليها وحفيف حرايرها وطقطقة كعب حذائها، بقي فم بدرية مشدوهًا، كان لديها نفس العينين والبشرة والشعر والصدر ونفس

البطن العريض مثل حجر الرحى؛ لكنها كانت هنا بيننا، والأخرى في حضن الأمير، منعتها أمي كونها سيدتها من الإقدام على أي جنون».

«أي نوع من الجنون؟».

«وما أدراني أنا! ربما تذهب وتركض فتحتضنها، وتقول 'أنا أختك التوأم التي أردتِ إحضارها للسرايا، في الحقيقة فعلت بدرية لاحقًا ما أرادته؛ لكننا تسللنا من استوديو التصوير في ذلك اليوم كالدخان؛ وجه بدرية كان أصفر شاحبًا؛ ولأن أمي أدركت أنها في حال يرثى لها ألهتها بأكثر شيء تحبه، أخذتها معها وأطعمتها حلوى! أكلت بدرية الحلوى بسرعة كعادتها لدرجة أننا انفجرنا في الضحك. حتى إن هجران أصيبت بالفواق من كثرة الضحك، فحزنت بدرية من هذا، أخجلها ضحكنا؛ أصبحت هي محل استهزائنا في حين صارت توأمها جارية الأمير. كم أن الدنيا مكان غير عادل! ثمة أشياء حرمت منها، يمكن أن تكون من ضمنها حتى الحلوى التي تحبها، وعندما وجدتها، تصرفت بنهم وأصبحت مزحة للجميع. كانت معها الحق في رغبتها في قتلي، لأنها لم تكن تقتلني، بل تلك الأشياء التي حرمت منها، كانت تتحدث أحيانًا هي وأمي وتتباكيان، تتشاركان همومهما حينًا من الزمن، ثم تواصلان العيش والتصرف كأنه لم يحدث شيء، ليتنا نستطيع معرفة قصة الجميع؛ لكن لا أحد يستطيع ذلك، لا يمكنك معرفة ما يخفيه الناس بأعماقهم، كانت أمي تتحدث مع فاطمة

وهجران بهذا، فقال أبي ‘هذا كلام تافه!’؛ لأن حديثهم القيم يكون حول الذهب والغنائم، والأشياء التي سيتركها الناس في هذا العالم عندما يذهب، والحال أننا عندما نموت فإن المشاعر التي نحملها وذكرياتنا وما أحسسنا به طوال حياتنا حتى ذلك اليوم، جميعها تُمحص؛ أليس كذلك؟».

لم ينبس محمد لوهلة بشفة، خطر على بالي أنه تخلى عن حكايتي واستغرق في النوم، وسررت برؤيته مستلقيًا على ظهره محدقًا في السماء بعينين مفتوحتين، مرفقه مسنود على جبهته، وثانيًا إحدى ركبتيه، بدا مزاجه في محله:

«هل انتهى ما ستحكينه؟».

«عندما يحكي شخص عن الآخرين، فإنه يحكي عن نفسه، ويتناولها في الأساس؛ لكنه لا يعلم ذلك، ماذا سأحكي إن كنت تقول حدثيني عن نفسك؟ أحب أكلة التاندير[1]، ومولعة بأرز الكبسة، لا أطيق حلوى الكشكول، وأستمتع بتمشيط شعري، أطأ الأرض برصانة مفرقة بين أصابع قدمي..».

«أحسنت. من يطأ الأرض بتمكن تصل رأسه إلى السماء!» قالها محمد فضحكنا، وتعانقنا، وتبادلنا القبلات.

1- أكلة مشهورة في تركيا تتكون من لحم الضأن المشوي على نار هادئة.

ثم قال: «هيا! إما أن ننام أو نذهب لنلقي نظرة على تلك الأطلال».

قلتُ: «دعنا ننام قليلًا»؛ لكني عدت أحكي من جديد قبل أن أنام، وحتى ذهبت في النوم:

«الشيء الوحيد الذي أتطابق فيه مع أمي وفاطمة وهجران هو العناد؛ غير أن بدرية أكثر عنادًا منا جميعًا، لم يكن لديها أي نية لترك تتبع أختها إحدى جاريات عبد الحميد، خدعتنا ذات يوم وأخذتنا إلى منتزه كوتشوكسو، بدأت في الاستعدادات قبلها بأيام لتُزيد حماسنا، حتى إنها هدأت من تذمرات أمي التي تشنج خصرها: بأن أعدت لها وسائد من الريش، مثل الموجودة عند نساء السرايا، لمعت عينا أمي، لم تطلب بدرية ولو دينارًا منها مقابل هذا، حضرتها من تلقاء نفسها لأجل راحة سيدتها، وهكذا جهزت أمي العربات، واتبعتنا عمتي، وانطلقنا نحو المنتزه، كانت بدرية متحمسة للغاية لدرجة أنها اختارت بنفسها المكان الذي سننزل وننتشر فيه، بدت أمي وكأنها أتت إلى المنتزه مجبرة من أجل وسائد الريش، ونحن كنا راضين بأي شيء يحمل المتعة والتسلية؛ أما بالنسبة لعمتي فكان الأمر مجرد تغيير جو.

وهكذا مكثنا بالقرب من المكان الذي انتشرت فيه نساء السرايا، حتى إن أحد صبيان السرايا أتى ودفع سائقي عرباتنا لئلا نقترب أكثر، فتدخلت بدرية وحلت المسألة بشكل جيد، لم يكن من الصعب علينا أن نفهم لماذا أحضرتنا إلى هنا، وأصرت على

أن نأتي إلى المنتزه وأجلستنا بقرب حاشية السرايا، كانت تترقب الصدفة التي صنعتها هذه المرة بعد التقائها بأختها بدري ـفلك في استوديو التصوير الفوتوغرافي، وهكذا عرضت على أمي في هذا المكان فكرتها الغادرة، وبينما تحشو فم سيدتها براحة الحلقوم:

«أمَّان يا سيدتي! يا سيدتي العزيزة! أعطني الإذن لأحل مكان بدري فلك؟»

«أهذا شيء يُعقل؛ حبًّا في الله؟»

أقنعت أمي بعد ذلك بطريقة ما، وقررتا الاحتفاظ ببدري فلك في مكان منعزل وأن تحل بدرية مكانها، اتضح أن بدرية اختارت رجلًا ضخم الجثة من السرايا ليكون عميلًا لها، وكان سيحل الجزء الأهم من المهمة، سألت أمي بالطبع عن خطة المكيدة:

«حسنًا وماذا ستفعلين بقدمك العرجاء، يا بدرية؟».

«سأقول وخزتها شوكة».

«وماذا ستضعين محل أصابعك المفقودة؟».

فكرت بدرية في كل شيء حتى الوصول إلىٰ هناك: أظهرت لأمي الأصابع التي صنعتها من شمع العسل وألصقتها مكان الأصابع الناقصة، كانت أصابع شمع العسل الموضوعة بأطراف أظافرها البيضاء مثل اللؤلؤ، واللامعة؛ تبدو حقيقية جدًّا، وفجأة عادت أمي إلى رشدها واحتجت قائلة:

«لا تسببي لنا المشاكل يا بدرية! ما سنخطفها ليست جارية عادية أو خادمة بل جارية الأمير!».

«أولًا من سنخطفها هي أختي التوأم، لا تنسي يمكنني حل محلها يا سيدتي!» لم تستمع أمي لأيٍّ مما قالته.

تجرأت بدرية وتعلقت بذراع أمي وكالت لها التهديدات حتى؛ لكن أمي لم تلق بالًا لذلك!

«ألم يكفيكِ ركضك خلف عربات السرايا وجلدك يا بدرية؟ آه، لم تُهمين بالقيام بمثل هذه الأشياء الخطيرة؟».

عادت بدرية معنا إلى البيت باكية، وأخبرتنا أمي عن هذا الحادث ليلًا قبل النوم.

كان هناك درس أرادتنا أن نستخلصه من كل هذا: 'الأحلام مثل الرياح، تجر وتسحب، لا تكنّ مجنونات في مطاردة أحلامكن، اعرفن حدودكن، ولا تطلبن أقل منها أو أكثر، لا تتخلين عن حذائكن لمن يهددكن، لأنه لا نهاية للتهديدات والابتزاز، لا أحد يستطيع إهانتكن ما لم تسمحن بذلك؛ أما إذا داخلكن شعور بالخوف من الفضيحة.. حينئذ ستفرش فرائكن على الأرض، ويعزف عليه العازفون ويغنون، ويدوسون فوقه'.

أنهت حلم بدرية في الإحلال مكان توأمها بدري فلك في السرايا في مهده؛ لكن الأمل ظل يدور في زاوية عقلها دائمًا أنه لو ساعدتها أمي ذلك اليوم؛ لأمكنها تحقيق ذلك، تتحول الآمال الضائعة

إلى كراهية وغضب بمرور الوقت، تسمم خيبات الأمل الإنسان، وتصيب روحه بجروح أكثر حدة من الخنجر ولا يمكن شفاؤها، كانت فاطمة تردد 'في البداية يكون عند الإنسان أمل في كل شيء'، 'تبقى التطلعات في حوصلة وتفسح مع الأحلام مجالًا للسخط، فتنعقد حواجبنا وتجف قلوبنا، لا يوجد شيء أسوأ من بقاء الإنسان في حوصلة التطلعات؛ لأنه عندما يجد ذلك الإنسان الفرصة، تحل الكارثة على الجميع'.

واصلت بدرية العيش معنا؛ لكن عقلها بقي عند بدري فلك في السرايا، وكلما مررنا أمام السرايا، كانت تبكي بنشيج».

استغرقت في النوم بين ذراعي محمد بينما أحكي هذا.

وعندما استيقظنا؛ كان البحر يموج برياح لودوس. نظر محمد إلى البحر بعينين ناعستين وقلقتين:

«هلمي لنذهب ونرى هذا البيت المتهدم في أسرع وقت ونعود على الفور، وإلا فلن يسمح لنا البحر بالمرور».

هاج البحر وماج فجأة، وحمل القارب بعيدًا للغاية عن الشاطئ، بسبب هبوب عاصفة لودوس. نظرت إلى البحر الذي زادت زرقته غمقانًا بمرور الوقت، وإلى جزيرة الأميرات التي كانت أمامنا مباشرة؛ وعليها طفلي من دوني وفي أيدي الآخرين.

42

انطلقنا للاطلاع على البيت الخرب، أمسك محمد بيدي وأنا أتسلق المنحدر الحاد الهابط إلى الشاطئ، كانت الحجارة تنزلق في بعض الأحيان تحت أقدامنا وتتدحرج، حتى إنني نظرت إلى الأسفل لوهلة وأصبت بالدوار فأطلقت صرخة، كان محمد خلفي ممسكًا بي من خصري، قال لي: «لا تخافي يا عزيزتي، تسلقي كأنك تسيرين على طريق مستقيم، ويكأنك تصعدين سلمًا، أنا وراءك، لا تخافي».

لم أخف بعد ذلك؛ لكن ليلة لم تكن تعرف ماذا تفعل وتئن بخوف بين الفينة والأخرى، استمر هبوب رياح لودوس الدافئة، كانت أمي تمسك رأسها خلال تلك الأجواء، وبدرية أيضًا تلف رأسها بحجاب معتصراه، وتقول:

«رأسي ينفلق ويتشقق في أجواء لودوس هذه».

بدأت آلام خفيفة توخز رأسي أنا الأخرى.

سيقطع المطر مثل السكين الآلام عندما يهطل.

أنا أيضًا مثل أمي كنت أترقب هطول المطر بسبب آلام رأسي.

أخيرًا وصلنا للأرض المنبسطة. لم يعد الشاطئ الذي دخلنا

بحره عرايا يظهر من المنحدر الذي نقف على قمته وكأنه لم يكن موجودًا أبدًا، كنت أرى هيبلي للمرة الأولى، نظرت حولي بفضول، سار الطريق إلى داخل الغابة المكونة من أشجار الصنوبر، كان الطريق خلف مرفأ الصنوبر أرضًا حجرية بالكامل، لم يظهر أمامنا سوى بقايا مقبرة فقط، قال محمد إن هذه المقبرة تخص إدوارد بارتون سفير الملكة إليزابيث الأولى ملكة إنجلترا، قرأ النقش اللاتيني وقال: «إنه مليء بالأخطاء الإملائية!». وروى حكاية الرجل المسكين: كان يقيم في بيت في طوب خانه. وتم إبعاده إلى هنا بسبب انزعاج سكان المنطقة المحيطة به من لهوه وضجيج حياته الليلية.

ربما أرادت أمي بإصرار أن أكون مثل الجميع لهذا السبب. إذا لم تكن مثل الجميع، فستجر إلى الجزيرة، بعيدًا عن أحبائك، وتموت هنا هكذا بلا أحدٍ وبمفردك. شعرت بالأسف على هذا الرجل الذي لم أكن أعرفه لكنني لم أبين لمحمد. ولم يمضِ الكثير حتى رأينا سور البيت المتهدم السابق ذكره. لم يتوقف محمد عن ذكره بالبيت القابع آخر الجزيرة.

كان البيت خربًا. قال محمد: «سيتم ترميمه، لا تقلقي!».

كانت هناك شجرة تين في حديقته، وكرمة عتيقة ملفوفة حول جذع الشجرة. ظللت أستمع له وهو يشرح بحماس وسعادة ما سيفعله في هذه الأنقاض. لم أعترض على ما قاله؛ ومن ناحية أخرى كنت أفكر كيف سنعيش في مثل هذا الخراب. لم يكن ثمة سقف فوق رؤوسنا حتى. بالنسبة لمحمد كان هذا أسهل شيء؛ بناء

سقف فوق رؤوسنا.

سألته: «هل يمكنك القيام بكل هذه الأعمال بمفردك؟».

«يوجد أحد معارفنا هنا، سيساعدني».

ثم جلسنا في المكان الخاوي الذي قال عنه محمد «ليكن هنا التراس!»، وكأن منزلنا كامل له أربعة جدران وعليه سقف وبه باب ونافذة، أقامت الحمائم أعشاشها على أنقاض الجدران، أخذوا يراقبوننا مقرقرين لمدة، فكرت في أصحاب المنزل السابقين، فسألت محمد عما يعرفه عن البيت لكنه لم يحكِ كثيرًا:

«مات صاحب البيت».

«حسنًا ومن هو؟».

زم محمد شفتيه.

حكى الشخص الذي يعيش في غرفة تشبه الصندوق على قمة الجزيرة ويعرفه ما لم يحكِه؛ لم تكن الزوجة سعيدة بقدومنا، كانوا فقراء للغاية. ربما لم يكن لديهما طعام يقتسمانه معنا، ربما كان خجلهما بسبب ذلك، من يدري؟

كان صاحب البيت رجلًا قام بعمل شائن ومخز قاده إلى هنا.

«عمل شائن مثل ماذا؟».

قال الرجل: «اعتدى على بنت صديقه أم شيء مثل هذا؟!».

أطبق علينا الصمت.

مست زوجته قماش تنورتي وهي تريني باب الحمام. رأيت أن الفضول انتابها وجربت حذائي الذي خلعته من الباب، إحدى الفردتين لم تكن في موضعها حيث تركتها، والأخرى كانت في مكان مختلف، علمتني؛ علمتنا أمي منذ البداية أن نخلع فردتي أحذيتنا متجاورين، وقالت: «هذا أول ما تتعلمه أجمل جميلات الفتيات التي ستصبح زوجة للباشا في المستقبل».

قلت للمرأة الغريبة صاحبة البيت «لو لديك يشمك هاتِه واستبدليه بخاصتي!». ففرحت كثيرًا، أحضرت حجاب مُرقع اسوَد لونه، ترتديه على أنه يشمك، وأعطيتها أنا يشمكي الحريري، هكذا اشتريت المرأة على طريقة أمي؛ لكنها رغم ذلك قالت ما تريده بعد ذلك:

«أو لست أنتِ الفتاة الشابة المرسلة إلى الجزيرة لتلد طفلها غير الشرعي؟».

صحيح ما قالوا؛ للأرض آذان، فوجئت من معرفة المرأة بذلك، لم تقل أمي عبثًا «الجميع يعرف كل شيء، كم شخصًا نحن هنا؟».

قالت: «ألم تسمعي أن الجميع يحكي عنك؟» كان البيت معتمًا للغاية، وكان المكان الذي أقف وأتحدث فيه مع المرأة وجهًا لوجه أكثر قتامة، وبدا لي في تلك العتمة رؤيتي للسان المرأة يلمع من البلل كأنه بقعة أرجوانية في فمها فأصابتني القشعريرة.

تحول ذلك المنزل العتيق المظلم الخالي من الروح في عيني فجأة إلى سجن، الفقر ليس ذنبًا، فالإنسان يستطيع أن يمنح الحياة للغرفة التي يقيم فيها بفرع واحد من الأزهار؛ لكن هذا البيت لم يكن فيه ذلك الجمال.

عندما غادرنا المنزل، هبت العاصفة.

كان المنزل على منحدر ينحدر حتى السوق، وكان يبدو من بعيد البحر يهوج ويموج، نادى صاحب المنزل على رجل كان قادمًا من بداية الطريق:

«هل تعمل العبارة؟».

فقال الرجل: «أي عمل؟! حتى الصيادون عادوا أدراجهم».

ثم عرض علينا الرجل الذي علمت لاحقًا من محمد أنه ابن سائقهم بخجل: «تفضلوا وانزلوا ضيوفًا عندنا!».

لم يأخذوا ليلة للداخل، وبقيت منتظرة أمام الباب في الشارع، تجولت قليلًا في البداية مع الكلاب الضالة وقلبوا الأرجاء بنباحهم، بقينا واقفين أمام الباب بشكل لم يعجبني أبدًا، كانت المرأة تنظر إلينا من الظلام في الداخل وبين ذراعيها طفل، حتى إنها لفت يشمكي الجميل بالفعل على رأسها.

لم نبقَ عندهم.

قال محمد: «كان من الخطأ المجيء حتى!».

أصابني الذعر، أو بالأحرى كنت خائفة، خائفة من البقاء عالقةً هنا لأيام، كانت الرياح تهب بقوة لدرجة أن الأشجار كانت تنحني على الأرض كما لو كانت تسجد للكون، وأذيال عباءتي تنتفخ مثل الشراع، ويشمك المرأة القذرة المكفهر لونه تفوح منه الروائح الكريهة إلى أنفي، شعرت بالتعاسة وعدم الاطمئنان كأنما ألقيت في عالم غريب للغاية ومختلف تمامًا.

43

أقمنا في النهاية في نُزل يديره يوناني، كان وجهانا عابسين، سأل محمد المرأة التي تدير النزل إن كان يمكنها إعداد حمامين منفصلين لنا نحن الاثنان، ووافقت المرأة على تحضيرهما مقابل المزيد من العملات.

ظللت أصب علي الماء الساخن، واغتسلت بالصابون، وعندما صعدت إلى الغرفة، كان محمد قد اغتسل ونظف وارتدى ملابسه أيضًا، كانت الغرفة تفوح برائحة حساء ترهانا الجميلة، قال محمد: قالت لي المرأة: «لا أعرف ماذا تجدون في هذا الحساء التركي التافه؟!»، ربما تكون محقة، لأن أطباق الأسماك والمقبلات اليونانية كانت جيدة للغاية، كان رئيس الطهاة في فندق جياكومو يونانيًّا، يحشو الكاليماري، وكنا نأكل أصابعنا. كانت هجران تلعق طبق المسبحة، وكانت أمي تقول: «توجد في أيادي اليونانيين والأرمن بركة، وشفاء».

كان الحساء لذيذًا، نظرت إلى الحديقة المظلمة من نافذة النزل الصغيرة، كأنما هناك ليل ثانٍ داخل الليل يتفتح ورقة ورقة مثل الزهرة أمام عيني، على الرغم من جمال الليل الذي كنت مستغرقة في مشاهدته؛ كنت أترقب هطول المطر وتنقية الهواء وهدوء

عاصفة لودوس.

في النهاية لم يستطع محمد تحمل ذلك، وسألني قائلًا: «لماذا تزعجين نفسك لهذا الحد؟».

أحيانًا يقع شيء ما ولا يمكنك تسميته. حدس! تستشعر ما سيحدث لكن لا يمكنك إيقافه؛ شيء من هذا القبيل.

حاول محمد مواساتي:

«دائمًا ما تخبرينني، لم تقولي لي أخبرني!».

كان محقًّا، كانت هناك الكثير من الأشياء التي تساءلت عنها بشأنه؛ لكنني لا أحب طرح الأسئلة، بتعبير أدق، لا تعتبروا ما سأقوله تعجرفًا وكِبرًا؛ لكنني لا أطرح أسئلة أعرف جوابها؛ غير أني في تلك اللحظة تساءلت عن شيء واحد فقط:

«من وماذا يكون أكثر ما افتقدته هنا بعيدًا عن جميع أحبائك؟».

رد على الفور: «إسطنبول»، اندهشت.

أوضح، وأنصتُّ له:

«كانت إحدى أكبر مُتعي في إسطنبول مشاهدة شروق الشمس وغروبها من فوق جسر غلاطة. وقت الشفق، وفي الخريف. في مثل هذه الأوقات دائمًا ما يكون القرن الذهبي مغطى بطبقة رقيقة من الضباب. يكون الجسر وشاطئ البحر خاويًا، تكون إسطنبول نائمة».

كنت أشعر بالشوق إلى إسطنبول كلما حكى محمد، حتى ربما أكثر منه، كنت أشتاق في الأصل لتلك الأيام الخوالي، كم أنه من المحزن أن الأيام الماضية لن تعود مرة أخرى، كان بإمكاني فقط إبقاء تلك الأيام حية في ذاكرتي، ومع الأيام ستذوي تلك الذكريات أيضًا، ستكون لي حياة جديدة بعيدة عن أمي وفاطمة وهجران، أسوأ شيء أنني سأبتعد وأنا معاقبة ومذنبة هكذا، أبذل حياتي لأجل أن يسامحوني.

بعد مرحلة ما لم أعد أستمع إلى ما يحكيه محمد.

مرت ثلاثة أيام وثلاث ليال على هذا النحو.

44

توقف الصداع فجأة في اليوم الرابع عقب أذان الفجر. تعالت جلجلة في الخارج، وبدأ هطول المطر وصفى الجو، احتضنت محمد بفرح فقال:

«لا بد أن البحر أصبح الآن هادئًا».

سألته: «إن قفزت على أول عبارة دون انتظار إقلاعك بقاربك، فهل ستحزن مني؟».

قال «لا! اذهبي واجتمعي بابنك في أسرع وقت!».

قبلني على جبهتي وضمني إلى صدره الدافئ، بدا الأمر كما لو أننا لم نرقد لثلاثة أيام بل لقرون مثل السبعة النائمين (أصحاب الكهف)، كان محمد أكثر شخص متفهم يمكنني أن أجده في هذا العالم. حمدًا لك مرة أخرى على جمعي به! خلال الأيام التي قضيناها محبوسين في حجرة ذلك النزل الصغير؛ ظل يخبرني كيف سيقوم بتجميل البيت الخرب، لم ألاحظ حتى أنه كانت توجد شجرة بنفسج في حديقته، إذا زرع وردتين من اللبلاب على جانبي الباب؛ ستصبح تلك الحديقة جنتنا، من الضروري زرع أشجار فاكهة أيضًا في الحديقة، يكبر الأطفال على قمم الأشجار، ألم أكبر

هكذا؟! كان هناك بئر جاف لم أره خلف البيت؛ لكنه كان يعرف مثل اسمه كيف يجلب الماء إلى ذلك البئر.

عندما ذكرت البئر، خطرت على بالي هجران وحبيبها، فانتابني الضحك:

«دعنا نبقى في البئر ليلة واحدة مع بعضنا قبل أن تغمرها المياه».

«لماذا؟».

«لأنه إذا نجح العشاق في البقاء في قاع بئر بحب وود، فسيقضون العمر هكذا».

كنت مقتنعة في تلك اللحظة حتى أن ما أقوله كذب، لو كان الأمر كذلك؛ فهل كانت هجران ستزوج للباشا بالغصب؟ لماذا فسخ الباشا الخطبة يا تُرى؟ أيمكن أن يكون بسببي؟ لم تذكر بدرية السبب، ربما اعتقدت أني أفهم هذا؟ أظن أن حزن هجران من هذا أكثر من سعادتها به، كانت قد أعدت نفسها منذ مدة طويلة لهذا الزواج.

كانت أمي تقول: «الحزن والغم يُظلم جوف الإنسان مثل البئر»، وتوصينا بأن نتنفس من أعماقنا للخروج والنجاة من ظلمتنا، فعلت ذلك أنا أيضًا، تنفست بعمق مثل البومة، وعندما تخلصت من ظلمتي لاحظت اكفهرار وجه محمد، كان القلق يعتري أعماقه؛ فمع أنه كان يحلم بحديقة وورود وبلابل على غصونها؛ إلا أنه لم

يكن بلبلًا على غصن وردة، فكيف سيختبئ؟ أدركنا نحن الاثنان العقبات التي أمامنا، فأطبق علينا الصمت.

تبادلنا الوداع والعناق بمشاعر محطمة لكنها مفعمة بالحماس والأمل رغم كل شيء، ولسبب ما انطلقت كلمة «الوداع» من بين شفتي:

«وداعًا، يا حبيبي!».

45

ركضت تحت المطر الغزير ولحقت بالعبارة، تبللت وكان الماء يقطر من أطراف عباءتي، لقد مر وقت طويل على عدم خروجي وسط الناس، كنت خائفة؛ لذا أردت الصعود والجلوس في الجزء المكشوف أعلى العبارة، لا يمكن أن يكون هناك أي شخص في هذا الطقس، بينما كنت مارة من القاعة السفلية المدخنة ببخار السماور[1]؛ رأيت من ينظرون إلي ويتهامسون، سحبت يشمكي حتى أسفل عيني؛ ومع ذلك عرفوني، حتى أنا أستطيع معرفة أكثر النساء من عيونهن، ومن بؤبؤ عيونهن، وبياضها، ومن انحناءة حواجبهن، ومن رموشهن، وأطراف رموشهن، ومن جباههن، وميل أنوفهن، والمسافة بين الحاجبين وتناسقهما، وهكذا من ينظرن إلي، تمنحكم المحظورات شعورًا برؤية ومعرفة ما تحت الغطاء؛ لهذا لا يمكن بقاء أي شيء مخفيًّا في الحياة، ولا يمكن حظره، فالمحظورات تولد الحرية التي تمر محطمة وساحقة العوائق الموضوعة أمامها، أقصد في المجتمعات التي ولدت حرة وتريد العيش باستقلالية.

1- السماور: وعاء معدني يستخدم لغلي الماء وتحضير الشاي في روسيا وأوروبا الشرقية وبلدان الشرق الأوسط.

أحنيت رأسي وصعدت الدرج إلى الجزء المكشوف من العبارة، أحيانًا يرغب من تم الاستغناء عنهم وحاملو الأمراض في البقاء منعزلين، فهؤلاء مثلي لا يخافون من البلل أو البرودة أو الشمس أو الرياح، هم مثلي يخافون فقط من الناس.

بات الجزء العلوي من العبارة الذي كان الجميع يكافح لاحتلال مكان عليه في الطقس الجيد فارغًا الآن تمامًا، كنت أعلم بوجود مظلة يُأوى إليها هنا، فحتى لو كان هناك مكان للجلوس في الزاوية على الحافة بالأسفل؛ لم أكن أريد الشعور بنظرات الناس الأحدّ من السيوف والأكثر دموية من الخناجر علي، كنت على استعداد للتبلل، وغير خائفة من بقائي تحت المطر، ومن ناحية أخرى حز في نفسي عدم تمكني من الجلوس وسط الناس، ثم قلت: «دعكِ من هذا!». تخطيت ما حدث مثل الموجة التي تنثر قشر البندق العائم في البحر. أي مصيبة تلك التي يجلبها الأطفال غير الشرعيين لأمهاتهن غير المتزوجات! لكن ثمة شيء جعلني عاجزة أكثر مما كنت في البداية. بدأ ثقل ما عشته يسقط فوق كتفي شيئًا فشيئًا. كنت أخشى أن يتم القبض على محمد في سبيل هذا الحب، ومن أجل البقاء والعيش معًا، ثم غضبت من نفسي لتركي طفلي وحيدًا هكذا، ولأنني لم أكن له أمًّا حقيقية. ليست ثمة كلمات تعبر عن حزني ومشاعري. ربما كانت السماء الباكية تذرف دموعي.

كانت العبارة تخلي الركاب لآخر مرة في جزيرة الأميرات. ذهبت ركضًا أسفل المطر الغزير إلى طنف في المقدمة. كان هذا هو

الجزء المظلل في الأيام المشمسة، وبينما كنا نروح ونذهب من وإلى الجزيرة؛ كانت هناك سيدة إنجليزية أكثر بياضًا من الجُبن تلوذ في كثير من الأحيان بهذه المظلة الثقيلة، والآن أصبحت ملاذي، تابعت لمدة النوارس التي كان أبي يقول عنها «هؤلاء كلاب ذوو أجنحة تطير في السماء»، كانوا يقفون على درابزين العبارة غير عابئين بالمطر، كان ريشهم ناصع البياض مثل الرغوة، وأكثر بياضًا من السيدة الإنجليزية، كم هي حرة وجريئة! يا لجمالها! تغلبت على كل مخاوفي في لحظة، خوفي من البلل على سبيل المثال، ضحكت على نفسي، وهل يخاف من البلل تحت أمطار الخريف الجميلة؟ ها أنا مبتلة بالكامل، مشيت إلى الدرابزين الذي حطت فوقه طيور النورس ضاحكةً من خوفي السخيف.

كنت أفكر في شيء آخر تمامًا الآن، الشيء القابع على الدوام في زاوية عقلي:

الموت!

أيمكنني رمي نفسي في البحر من هنا؟

قبضت على الدرابزين بيدي بشدة.

أخذت نفسًا عميقًا.

انتفخ صدري مع تنفسي.

لم تخف طيور النورس مني، ولا أنا خفت من الموت!

في غيابي لن يكون هناك حب، وسيكبر الطفل بسهولة أكثر مع شخص آخر، ستقول أمي وفاطمة وهجران «لقد نجونا!». ستغرق الكارثة التي حلت بالجميع في الماء وتختفي بصمت.

شعرت في هذه اللحظة أن هناك أحدًا يقف تحت الإفريز ويراقبني. لم أرد أن يكون هناك شاهد على موتي؛ لأن في هذه المرة سينشر الذين يتحدثون عني بهمس حكايتي في الأرجاء، ويحكونها بشكل أسوأ. أدرت رأسي ونظرت لأرى من الذين سيضعون حجرًا على جثتي؛ فعلت هذا بهدوء وببطء وبتردد شديد.

من أولئك الذين ينوون رؤيتي وأنا ألقي بنفسي في البحر من مكاني وأموت؟

ماذا رأيت فجأة؟

من يقفون تحت الطنف وينظرون إلي؛ أليس هؤلاء أمي وفاطمة وهجران؟

46

تجمدت مكاني؛ لا أعرف ماذا أفعل. ظهرت فاطمة بلطف قبل أمي. كانت تتجه لحل محل أمي شيئًا فشيئًا على ما يبدو:

«ماذا تفعلين يا فتاة؟».

كنت حزينة للغاية؛ رغم هذا أخبرتهم أنني متعبة:

«أنا متعبة بشدة، متعبة لدرجة أني لا أعرف ماذا أفعل؟».

«تعالي إلى هنا! أنت مبتلة، ستمرضين».

عندما قالت أمي ذلك، هرعت إلى أسفل الطنف.

لا أعرف لماذا؟! أطلق القبطان صافرة العبارة. بدا الأمر كما لو أنه يحتفل باجتماعي بأحبائي بعد أشهر. أحطت أمي بيدي، ظننت أنها ستسحبها لكنها مدتها، وسمحت لي بتقبيلها، غريب! كانت ترتدي قفازات من الجلد الأسود رغم أنه لم يكن موسمها، لقد أدى هطول الأمطار الغزيرة إلى تبريد الهواء؛ لكن ليس بما يكفي لتبرد.

قلت «اشتقت إليكن كثيرًا»، واحتضنتهن.

التزمت هجران الصمت، وظلت شاردة.

قالت أمي: «ونحن أيضًا قلقنا عليكِ».

لم تحتضني؛ لكنها لم تدفعني كذلك.

ثم تحدثت فاطمة:

«لقد تخليت عن نفسك واستسلمت، ما حالة يشمككِ هذا؟».

لم يكن هناك مجال لإخبارها بسبب ذلك وقول: «إنه ليس يشمكي!». انصب اهتمامي على أمي بشعور قلق المذنب الذي تم هجره، ترددت للحظة، ثم ربتت على ظهري:

«لقد نحفت. لقد برزت عظام كتفك».

حينئذ شرعت في البكاء.

قلت: «لا عليكِ! ما زرعته حصدته».

قالت أمي: «دعكِ من هذا الآن! سنتحدث في كل شيء».

خطر على بالي سؤالهن «لماذا لستن في القاعة السفلية؟»؛ لكنني سكتُّ. هل يا تُرى رأونني وصعدن للأعلى؟

سحبتنا أمي جميعًا إلى الطرف، أسندنا ظهورنا على السور الخشبي المبلل للعبّارة. كان المطر ينهمر بغزارة، وكانت القطرات التي تسقط على الأرض تتناثر، وتطقطق على الطنف فوقنا. لم يعد ما فوق البحر ظاهرًا. لمدة وجيزة تابعنا جميعًا هذا المشهد.

ثم التفت إليهن وسألتهن: «ألا تشعرن بالبرد هنا؟».

قالت أمي: «الله أعلم! لن يحدث شيء لنا».

عقبت هجران: «لن يحدث شيء أكثر!». كانت تتحدث لأول مرة.

فقلت: «كيف حالك يا أختي؟ لو تعلمين كيف اشتقت لك!» ونظرت إليها وأمسكت بيدها؛ كانتا مثل الثلج!

قالت فاطمة بأنفةٍ: «أنحن سكر حتى نذوب؟» لاوية عنقها بعجرفة أثناء الحديث. كان هذا يبدو حتى من أسفل يشمكها التُّل.

قالت أمي: «مطر الصيف يأتي ويذهب».

بزغت الشمس على إثر كلمات أمي هذه، ومن جهة أخرى كان المطر لا يزال يهطل. نصبنا عيوننا جميعًا على وجه السماء المشرق اللامع للتو الذي ازرق محطمًا ما كان يغشاه. كنا ننظر إليه كأنما نترقب معجزة وقالت أمي:

«إنها تمطر بغزارة!».

وجدت نفسي أقول: «انظرن إلى قطرات تلك الأمطار؛ إنها مثل البلور واللؤلؤ». كانت الشمس تدفئ كل مكان تمسه. كان كل شيء تحت الشمس يلمع.

أغمضت هجران عينيها مثل قطتنا العمياء مستان، وأدارت وجهها الجميل نحو الشمس.

قلت: «سيبزغ قوس قزح بعد قليل».

ردت فاطمة: «كأننا لن نعلم لو لم تقولي!».

وجدت هجران تقول: «ومن أين ستعرفين؟ هل قرأت وكتبت مثلنا؟ لا يمكنك حتى كتابة اسمك بعد..».

جزت فاطمة على أسنانها وقرصتها من ردفها، فضحكنا جميعًا. فقالت أمي كما هي العادة: «شششْشْــت!».

قلت: «كم فعلتن خيرًا بمجيئكن!».

قالت فاطمة: «رأيناكِ تركبين من هيبلي».

قلت: «لأجل عمل خير».

تطلعن إلي كأنما لم يتوقعن هذا، وأنا أيضًا لم أتحدث في الموضوع. لم يسألن عن الطفل، أمسكت نفسي حتى لا أبكي، لم أكن أريد أن أبكي بعد هذا، زممت فمي بشدة. كن يستمتعن بتصرفي هذا؛ لكن دون أن يبدين ردة فعل، ظللن ينظرن فقط. سألت أمي بصوت منخفض:

«لماذا تبكين؟».

قلت: «أنت تعرفين الأسباب!».

لم أستطع منع دموعي أكثر من هذا. أصعب شيء في العالم هو منعك للبكاء. لم أستطع. نكست رأسي، وأحنيتها مثل ابن عرس رأى الشمس كما يقول محمد.

تشكلت برك المياه على فرش سطح العبارة. وكانت بعضها تموج بالألوان.

قالت أمي: «مضى كل شيء، وانتهى».

بدأت أبكي أكثر.

أمسكت بذقني ورفعت رأسي بهدوء:

«لن نسألك على أي شيء بعد الآن. وأنتِ أيضًا لا تخجلي مما مررتِ به. ماذا نفعل؟! هذا ما حدث».

قالت فاطمة: «حدث ما حدث!».

بدأت في البكاء فجأة بنشيج منتحبة؛ كأنما النهر الفائض من أعماقي يريد التدفق والفوران مرتطمًا بالحجارة. بات من المستحيل أن أتماسك. كنت أبكي كالأطفال. ومع هذا كان لدي أشياء مهمة لأقولها:

«فاطمة! أنا فكرت ربما يمكننا إظهار هذا الطفل باعتباره طفلك».

نظرت، كانت فاطمة تستمع بتعبير ساخر، واصلت:

«ألم يأتِ صهري آخر مرة منذ ستة أشهر؟ تقولين إنك حملت حينئذٍ، وإنك أدركت متأخرًا أنك حُبلى، ثم نقول بعد ذلك 'وُلد الطفل مبكرًا شهرًا'. يكون عنده شهران حينئذٍ، ولكن من سيعرف إذا لففناه جيدًا؟ علاوة على أنه ولد صغير جد بالفعل مثل ولد الفأرة. فهمت لماذا كان انتفاخ بطني صغيرًا مثل البندقة. لم يتجاوز عمره شهرين؛ لكن المسكين خفيف مثل المولود. يكبر وينشأ كأنه طفلكما، وأنا أيضًا سأكون بقربه؛ كوني نصف أمه، وسوف أشاهده يكبر».

اعترضت أمي قائلة: «أيمكن أن يحدث هذا؟! الطفل لأمه. الأفضل أن تربي أنت طفلك».

عندما قالت ذلك بدأت البكاء بحرقة أكثر. لقد أغفلت محمد؛ لأنني كنت أريده أن يهرب وينجو بنفسه. وأنا والطفل سنكون عائقًا يقيده.

مسحت أمي دموعي بيديها ذواتي القفازين. كانت الشمس قد حررت نفسها تمامًا من الغيوم التي حبستها، وتتلألأت الآن مثل ملكة في كبد السماء:

«في الواقع هناك من يطلب يدي. وقعت في الحب؛ اسمه محمد. لقد عبر عن آرائه علنًا، وأثار غضب السلطان منذ أن كان أميرًا، وفي النهاية أصبح هاربًا، يريد الهروب والتخلص من الاستبداد القابع هنا، وقال لي 'أنا سأكون والد طفلك'، حتى إننا وجدنا بيتًا في هيبلي

سنرممه ونسكن فيه. وفكرنا أنه يمكننا العيش هناك مختبئين لمدة ثم سنهرب إلى باريس. لا يمكن ألا نهرب».

نظرت إلى أمي بعينين دامعتين لقياس ردة فعلها، ربما كانت هذه هي المرة الأولى التي تنصت إليّ فيها من صميم قلبها. يجب أن أعترف أنني اندهشت من هذا، ومن ثم تابعت بهذه الدهشة: «فكرت أن نعيش في البيت خاصتنا؛ لكن.. محمد لا يقبل. إنه ذو كبرياء عال. بالإضافة إلى أنه؛ ماذا سيقول أبي؟ لا يمكن!».

كان هذا كل ما أردت قوله. غريب! لم تغضب أمي من استخدامي «بيت» بدلًا من قصر. استمعن إليّ بهدوء حتى النهاية. كنا على وشك الوصول إلى جزيرة الأميرات. بدا منظر الشجرتين الوحيدتين المتقابلتين. وأشارت هجران هذه المرة. كان هناك قوس قزح يمر فوق رؤوسنا:

«انظرن! الشجرتان وقوس قزح!».

«هل سيتغير جنسنا إذا مررنا من أسفل قوس قزح يا أمي؟».

«هلا سألتن هل يوجد مار تحت قوس قزح..».

ابتسمنا لإجابة أمي هذه.

ارتطمت مؤخرة السفينة بالرصيف، فاهتززنا قليلًا. دخلت تحت ذراع أمي؛ بدت لي نحيفة للغاية. رست العبارة على الرصيف. تعالى صرير الحبال المشدودة. كنت أحيانًا أجز على أسناني بهذه

الطريقة خلال النوم وكانت هجران تغضب من ذلك، فتنهض بغير كسل وتقرصني من ردفتي، ثم تعود للخلف وتنام بوجه متجهم.

«لنحضر الشاي عندما نصل إلى القصر، وأخبرك عن محمد. وعن قصة حبنا».

ما إن قلت ذلك؛ حتى خطر على ذهني اليوم الذي أرادت بدرية فيه قتلي.

«لماذا غام وجهك يا حبيبتي؟».

سألت هجران ناصبة عينيها الكبيرتين اللتين تشبهان الزيتونتين السوداوين، فأجبت:

«ليس هناك شيء!».

لم أرغب في إفساد مزاجنا، ولم أحكِ شرور بدرية.

قلت: «انتهى الأمر! انتهى كل شيء!».

نظرت إليهن جميعًا واحدةً تلو الأخرى:

«كنت حزينة للغاية لافتراقي عنكن، وحتى لو ضمد وجود محمد والحب جروحي بعض الشيء، فقد اشتقت إليكن كثيرًا».

ومع أن أمي تأثرت؛ إلا أنها زمت شفتها مثل وردة، وتدخلت في الحديث رغم ذلك:

«هيا لنذهب إلى القصر دون أن يرانا أحد. اذهبي أنت أمامنا».

«هل تخجلن من الظهور معي؟».

«هل بقى الآن ما يُخجل؟ هذا ما نراه في عين الآخر. تبقى من الإنسان مشاعره التي يسترجعها، فما يشعر به هو ما يبقى، الحب يبقى، والسعادة تبقى. وصدقيني، حتى الروائح والأطعم تبقى في ذهن الإنسان؛ لكن هذا ليس شيئًا مخجلًا، وليس عليه الخجل منه على الإطلاق. فهذه تتلاشى مثل ممتلكاتنا وثرواتنا التي تحترق وتصير رمادًا؛ أما الأشياء التي لا تتلاشى تكون في أعمق أعماق قلب الإنسان، وهؤلاء لا نار هذا العالم ولا رياح ولا أي خنجر حتى يستطيع نزعها ومحوها».

احتضنت أمي ثانية: «سأصل قبلكن، وبمجرد أن أصل، سأخبر بدرية أن توقد لكن أسفل السماور. نشرب الشاي مثل الأيام الخوالي ونتحدث كيف سنفرش القصر. وسأعرفك غدًا على محمد».

لم تقل أمي نعم أو لا؛ لكنها قبضت بشدة على كتفي:

«لا تنسي يا ابنتي: الحب قوي مثل الموت؛ عيشي وأنت تعرفين هذا؛ لأنهم سيتركوننا في حضن الأرض في النهاية مثل البذرة. كل شيء يبقى هنا. ما تصاحبنا فقط هي تجاربنا».

لمع السطح الرطب للعبارة تحت الشمس.

قالت فاطمة: «اذهبي الآن!».

كانت هجران على وشك أن تقول شيئًا؛ لكنها تراجعت. وشردت مرة أخرى.

قلت بحماس: «أنا أنتظركن!».

استدرت بينما كدت أفتح الباب المؤدي إلى الدرج، ونظرت لأرى إن كان ما رأيته حلمًا أم حقيقة؟

لقد كان حقيقة؛ حقيقة مثل كل الجمال الموجود على الأرض. ظللن واقفات هناك تحت الطنف، حتى إن فاطمة مدت يدها لتمس المطر، وأدارت راحة يدها وهي تتطلع إلى السماء لتقتنع أنها لا تمطر. ثم نظرن إليّ فابتسمن، ولَوَّحن لي بلطف.

47

عندما وصلت إلى القصر، رأيت بدرية علقت عباءتها المبتلة على درابزين الدرج مثل الفزاعة السوداء القبيحة، لا بد أنها عادت للتو إلى البيت، لو كانت أمي هنا، لما استطاعت تعليق عباءتها المبللة هكذا.

ناديت «بدرية، بنت يا بدرية!». كنا جميعًا نناديها هكذا عندما يكون مزاجنا معتدلاً.

لم تصدر بدرية صوتًا. وبدلاً من ذلك، سمعت صوت أقدامها صاعدة من الطابق السفلي وآتية. ثم ظهر وجهها المُظلم. كيف يمكن أن تكون توأمتها من المحظيات حتى لو لم تكن قدمها عرجاء، اعترتني الدهشة.

«أتت أمي والبقية. إنهن على وشك الوصول. هيا اركضي وأوقدي أسفل السماور. لنخرج فناجين البورسلين ونغسلها بالماء».

وقفت بدرية أمامي مثل الجدار بدلًا من أن تنفعل مثلي، وأمسكت يدها ناقصة الأصابع بيدها السليمة:

«مرحى! تقصدين أن الهانم الكبيرة وفتياتها شرفن الجزيرة...».

كان ثمة شيء في حالها وتصرفها لكن ما هو؟ لم تلتفت لكلامي

وتصرفت كأنها لم تصدق ما قلته.

«بنت يا بدرية! ألم تسمعي ما صدر من فمي؟ سأشكو لأمي كل هذا. كنت قد تراجعت عن القيام بذلك؛ لكنني سأفعل. وكيف تعاملتِ معي كأنك السيدة وحتى...».

لم أستطع أن أقول «إنك أردت قتلي» سكت. تجمد الهواء المحيط بنا وضغط علينا من جميع الأطراف مثل المعصرة. كان هناك شيء غريب! ولوهلة شعرت بأني لا أستطيع التنفس، ذهبت ركضًا إلى النافذة وصرخت بعنف وأنا أفعل ذلك؛ لا أعلم لماذا:

«افتحي النوافذ! الجو خانق للغاية هنا!».

فتحت النافذة، فضرب وجهي الهواء النقي القادم من الحديقة، وأتت رائحة البحر. أغمضت عيني وبقيت هكذا للحظة. ما أجمل رائحة الأجواء بعد المطر! تصاعدت رائحة التراب. تناهى إلى مسامعي صوت المياه المنسابة والمتقاطرة، واستمر كل شيء في اللمعان والتألق.

استعدت نفسي بسؤال بدرية: «أين كنتِ؟».

«قلت لك. ذهبت إلى هيبلي».

«متى ذهبتِ؟».

«عندما عصفت لودوس، تقطعت بنا السبل. فانتظرت حتى هدأ الجو، ثم ركبت أول عبارة جاءت بعد العاصفة. كان محمد

سيذهب بقاربه؛ لكنني جئت على عجلة».

«أوجئت على عجلة؟! امرأة لها طفل تأخرت أربع أيام وتقول جاءت على عجل...».

«أهناك شيء يا بدرية؟».

بقيت بدرية صامتة. ثم همست مثل ريح مخيفة:

«لقد خرجت أنا أيضًا من بعدك».

«إلى أين ذهبتِ؟».

«إلى إسطنبول، استدعتني عمتك وبعثت لي مع جميل أفندي؛ قائلة: «تعالي على الفور!».

«وبعد؟».

«وبعد يا سيدتي الصغيرة، فأنا أيضًا لم أكن متواجدة؛ ذهبت راكضة إلى مصيبة، وأتيت إلى هنا لألحق بمصيبة أخرى».

«ماذا حدث هنا؟».

«لم تكن المرضعة موجودة عندما أتيت».

«الطفل؟».

«رغم أنك أطلقتِ عليه اسمًا.. ما زلت تقولين على الولد طفلًا..».

«هل حدث شيء للطفل؟».

«اذهبي وانظري ماذا حدث للطفل؟».

48

كان الطفل يرقد بلا حراك على فرشة على الأرض في القبو حيث تركته مع المرضعة، كانت جميع النوافذ التي تبدو منها خضرة الحديقة مفتوحة على مصارعها، ورغم ذلك؛ كانت هناك رائحة نفاذة في الغرفة، رائحة لا توصف مزيج من رائحة التراب والمطر والبحر وأوراق الشجر والزهور. كانت هناك أصوات تأتي من الخارج؛ هديل حمام، وثرثرة الجيران، وضجيج العربات المنهمر من الشارع، وصوت البحر.

أغلقت جميع النوافذ لأسمع صوت تنفس الطفل، ذهبت وانحنيت عليه، دنوت منه. كان يرقد بلا حراك، فمه نصف مفتوح، وشفتاه كأنها منتفخة أكثر، ولون بشرته بدا أغمق. كان وجه طفلي مكفهرًّا. قلت لنفسي: «من الضوء»، أخذته في حضني، واقتربت من النافذة. حدقت بوجهه في الضوء الهابط على الأرض. كان هناك ظل غريب على وجهه. فتحت صدري؛ على الرغم من أن حليبي لم يأتِ، وألصقت شفتي الطفل الزرقاوين المنتفختين بصدري. ليستيقظ إن كان نائمًا، ويلتصق بثديي إن كان جائعًا؛ لكنه لم يتحرك.

قالت بدرية: «كان ميتًا عندما أتيت».

متى نزلت للأسفل؟ متى تسربت كالدخان وأتيت إلى جانبي؟ قلت: «أي موت يا هذه! كان حيًّا عندما تركته، كان حيًّا عندما عهدت به إليك وغادرت».

«من الواضح أن المرضعة خرجت وغادرت عندما ذهبت إلى إسطنبول، كما أن عقلها لم يكن في محله، وتحمل لك الضغينة. كانت خائفة».

«هل تركتما طفلي هنا بمفرده؟».

«ظننت أنك ستعودين، وكانت المرضعة تهتم به؛ كيف لي أن أعرف؟».

«لقد قتلتما طفلي!».

أطلقت صرخة أخذ صداها يتردد لمدة في القصر الذي ظل قائمًا، ثم انحلت عقدتا ركبتي فانهرت على الأرض مثل دمية ضعيفة تفككت من الحبال؛ لكنني كنت لا أزال أمسك طفلي بقوة في حضني، وأضمه إلى صدري.

آه، لو تعرفون ألم عذاب العجز الذي نشعر به في وجه الأمور التي لا رجوع فيها!

يا لشدة عذاب تقبل الكارثة، والموت!

إن إدراك أنك فقدت للأبد شيئًا لم تستطع الشبع منه، أو شيئًا لم تدرك أنك تحبه، واستسلامك للموت هو موت لك في هذا العالم؛

لا يمكن مضاهاته باجتماع كل معاناة من يعيش على وجه الأرض ووقوعها عليك.

آهٍ، لو تعرفون كم كنت أعاني!

أي إنه مات. مات جراء تركه جائعًا بلا أحد.

آهٍ يا صغيري! أنا لست بلا قلب لأفعل لك هذا، خُدعت. تأملت عبثًا. كنت سأخلق لكلينا حياة جديدة، حتى لو أتى العالم علينا. لم أرد أن يأخذك أحد بسببي. ربما فكرت في البداية أنك دخلت مثل الشوكة بيني وبين أحبائي، اعتقدت أنك فرقتني عن أحبائي وأخذتني إلى المنفى. ربما غضبت منك مع كونك رضيعًا بقدر كف اليد جراء ذلك، علاوة على أني لم أرغب في أن تكبر في حضن من لا أعرفه.

كان الطفل مثل الثلج. من يدري متى مات؟ هل بكى كثيرًا عندما كان جائعًا؟

«لقد أهملتماه! وأردتما موته! ضحيتما به!».

هجمت على بدرية بيدي الأخرى مثل المخلب قائلة هذا؛ وأنا أضم طفلي إلى صدري. مزقت وجه الشمطاء، فأطلقت صرخة يائسة:

«يا فاجرة! لو أنك انتظرت مع لقيطك بدلًا من التسكع مع حبيبك!».

انطرحت أرضًا؛ كنت قد خططت مسارات دامية في وجهها

كالأربعة تجاويف العميقة التي تحفر في الحقل الجاف القاحل. اندهشت كأنها لم تكن تتوقع مني شيئًا كهذا:

«لقد سودت حياتنا كلنا، دمرت أمك التي تحبينها كثيرًا وأختيك».

«لا! لقد سامحنني، كن على متن العبارة، وسيكن هنا قريبًا».

«كن على متن العبارة.. هذا صحيح، كن على متن العبارة!».

«أو أنك أيضًا جئت بنفس العبارة؟».

«أجل!».

«هل اشترين لك تذكرة درجة ثالثة؟ لم لم تكوني بجانبهن؟ هل رأيتِني؟».

«رأيتك، صعدت الدرج مثل جسد بلا روح، وأنت تتلفتين يمنةً ويسارًا، اتجهت عاجزة إلى سطح العبارة كأنك ضُربت علقة أو مخدرة من شم الأفيون، تبعتك من الخلف، وراقبتك. ظللت تقفين مبللة تحت الطنف حتى إني أشفقت عليكِ. وقلت: أسيكون هذا مصير هذه الفتاة؟».

«إذًا لماذا لا تصدقين أن أمي وأختي أتين إلى الجزيرة؟! لم تبتسمين في وجهي ابتسامة عريضة مستهزئة؟!».

«لا تستطيع عائلة تحمل كارثة كهذه. ولا يمكنها تحمل جنونك

على الإطلاق!».

«عقلي في محله».

«واضح..».

صمت كلانا، ومسحت بدرية الدماء من على وجهها بظهر يدها. شعرت بالأسف من أجلها حينئذ؛ لأني لم أؤذِ أحدًا طوال حياتي. نظرت إلى طفلي بين ذراعي؛ كأنما دفأ قليلًا بدفئي. ليت المعجزات تتحقق! نظرت إليه على أمل حدوث معجزة.

كانت بدرية تحاول النهوض من الأرض في هذا الوقت؛ مثل صرصور مقلوب يصارع للاعتدال.

قالت مرة أخرى: «أمك وأختاك لا يستطعن القدوم، من المستحيل مجيئهن. لم يعد هذا ممكنًا. لا يمكنهن المجيء بعد الآن. فقط جثثهن هي ما يمكن أن تأتي إلى هنا بعد ذلك!».

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

49

لم أصدق ما قالته لي بدرية، لم أستطع تصديقه.

خرجت من البيت مهرولة والطفل بين ذراعي، ترفرف أذيال تنورتي جراء الانفعال والقلق. أنظر إلى كل عربة مارة من أمامي إن كن بداخلها؟

شعرت كأن قلبي سيخرج من صدري، نسيت حتى وفاة طفلي، وجثته التي بين ذراعي. لم أود ترك جسده الصغير الهامد ورائي؛ لأنه كان لا يزال لدي أمل حتى لو ضعيف في عدم وفاته؛ إضافةً إلى أن بدرية قالت شيئًا أرعبني كثيرًا:

«كيف يمكن لمن لا يعلمون بوجوده أن يعلموا بوفاته؟ كان يا ما كان. تصدعت رؤوسنا بما يكفي بسبب هذا اللقيط. ليدخل هذا الصبي بأسرع ما يمكن في حضن الأرض ويجد السلام».

لم أعطها الطفل. كنت أخشى أن تدفنه بعد ذهابي خفية في زاوية منعزلة في الحديقة؛ كما دفنت الطائر المتسمم؛ لأن هذا ما فهمته مما قالته.

كانت قد تعلقت بذراعي، وأرادت أخذه مني بالقوة؛ لكنني قاومت.

نزلت إلى ساحة الجزيرة، فذهبت إلى مقهى دباجادره القابع أمام فندق إترانجرس الذي كانت أمي وأختاي يُحببن الجلوس فيه كثيرًا.

كانت تباع هنا الحلويات والقهوة الفرنسية، فكانت أمي تقدم طلباتها مثل الفرنسيات، قلت في نفسي «ربما، ربما جلسن هنا للاستراحة».

«لقد طار عقلك وذهب، صرت مجنونة!» صرخت بدرية من ورائي؛ وإلا فإن عقلي كان لا يزال في رأسي؛ في رأسي لدرجة ألا أترك لها جثة طفلي، كنت منتبهةً بما يكفي لأتأكد من أنني رأيت أمي وأختَيّ وتحدثت معهن. كنت منهكة فقط ومتعبة وحزينة وبائسة. ومن يدري ربما البقية المتبقية في ذهني وروحي؛ هي ما لم تصدق ما تقوله بدرية. أمي وأختاي على قيد الحياة، ما زلن يعشن.

لكنني لم أجدهن في ساحة الجزيرة.

لم تنتظر مدام ماري صاحبة المقهى إليّ حتى؛ مع أنني سألتها بأسلوب مهذب وبالفرنسية:

"Vous avez vus maman? Hicran، Fatma?"[1]

فأجابتني بالتركية قائلة «هيا، هيا!» وهي تدفعني خارج الباب.

1- هل رأيت أمي وهجران وفاطمة؟

كان الجميع ينظرون إلي.

ينظرون إلي ويتهامسون.

توقفت عند الفرن، كانت أمي تحب مخبز الجزيرة كثيرًا، ربما أرادت شراء خبز طازج وإحضاره معها. كانت فتيات القصر المجاور أيضًا في المخبز، أولئك اللاتي رمينني بالحجارة في منتصف الطريق. صرخن بدهشة:

«الطفل بين ذراعيها. إنها تتجول مع لقيطها! أمان يا ربي!».

قلت: «لم يمت».

فررن كأنه مريض.

وتابعتني الهمسات:

«أليست هذه ابنة كنف رجب أفندي؟».

«يقولون إنها جُنت بعد أن أنجبت طفلًا غير شرعي».

بينما كنت أهرب وأبتعد عن كلماتهم السيئة، ارتطم حجر بظهري «جوب!»، استدرت لأرى من فعل هذا؛ غير إن اثنتين من النسوة أطلقتا صرخة مقابل قوة وشدة الحجر المرتطم بظهري، حتى إن واحدة منهن نهرت من قذفت الحجارة قائلة:

«ماذا تفعلين؟».

ناشدها الصبي الحرفي: «أتعلمين ما فعلتِه بها؟».

قالت واحدة أخرى من النساء «أيًّا كان! فجزاؤها من الله وليس منك!».

فرحت من مدافعتهن عني، هممت بالابتسام لهن؛ لكنهن ابتعدن تحت مظلاتهن. كنت قد كتبت ذات مرة في الواجب الذي أعطته لي المعلمة «المرأة عدو المرأة كذبة، المجتمع هو من يفعل ذلك»، قالت المعلمة «على سبيل المثال؟»، كانت جميع الأمثلة تعود لأيام الجزيرة عام 1876.

ذهبت في النهاية إلى الفندق الذي كنا نقيم فيه، ووقفت على بابه بحزن، كنا نأتي إلى هنا بسعادة، ونعبر من بابه في كل دخول أو خروج بمرح، ولا سيما حين نكون نحن وأمي متنكرين بالمظهر الفرنسي.. لم أستطع أن أنسى ذلك اليوم. نظرت بعينين ممتلئتين بالدموع، فرآني أحد الموظفين، كما أنه عرفني أيضًا.. لا بد أنه كان على دراية بكل ما كان يحدث مثل الجميع، حيث أغلق أمامي باب الحديقة بناءً على أمر مسيو تاڤردي:

«لن تدخلي للداخل، لئلا تعتاد قدمك المجيء».

«رأيتها قبل قليل في ساحة الجزيرة، كانت تسأل عن والدتها وهجران وفاطمة؟».

كانت ضيفات الفندق المحترمات يجلسن حول النافورة؛ كان بإمكاني رؤيتهن من خلال بوابة الحديقة المنقوشة كالدانتيل.

كنت أعرف هؤلاء السيدات اللاتي تمددن على أرائكهن يحركن نسائم الهواء بمراوحهن، إحداهن كانت السيدة شيري التي تخيط فساتين أمي وفساتيننا.

عجبًا! متى تحول لون شعرها إلى الأصفر يا تُرى؟ والأخريات كن أخواتها اللائي يقمن في بيت على الطراز الإنجليزي في شيشلي، ومعهن كلب صغير يدور حولهن، كانت أقدام الحيوان المسكين قد تلطخت من التراب الذي أصبح طينًا بسبب المطر، وأفسد ثوب إحدى الأخوات. ترددت شائعات أنها كانت تستمتع بالنوم مع الحمالين الآتين إلى المنزل، استدرن جميعًا الآن وكن ينظرن إلي، أدركت أنني كنت أتحدث بشكل متقطع مثل الببغاء، فأوضحت مشكلتي:

«أنا أبحث عن أمي وأختَيّ، هل رأيتموهن؟ قابلتهن آخر مرة على متن العبارة، سبقتهن، وكن سيجئن خلفي. تحدثت بدرية بالأكاذيب والأمور الخاطئة. لم أصدقها. عقلي في رأسي، لا تخفن!».

«هيا يا صغيرتي، إلى عملك!».

قالها مسيو تاڤيردي مغادرًا السيدات بخطوات سريعة فتوقف عند بوابة الحديقة، وظل ينظر إليّ من وراء البوابة الكبيرة كأن الجنون والغرابة معديان:

«ماذا يوجد في حضنك؟ أطفلك؟».

أومأت برأسي أن «نعم»، تفاجأ بإجابتي التي لم تعطِ احتمالًا

لأي لبس، أتت رائحة أزهار اللبلاب التي تزين الباب إلى أنفي، عندما جئنا لأول مرة اندهشت أمي من رائحة الورد، لم تكن تعرف أنها رائحة زهور اللبلاب، آه أتذكر كأنه البارحة.

«من الذي فعل هذا يا طفلتي؟ هاه؟ أخبريني؛ مِن مَن؟ تكاثرت الأحاديث في إسطنبول عن هذا».

كان مسيو تاڤيردي يتحدث بسرعة.

«سأتزوج قريبًا».

«حقًّا؟!».

تصرف مسيو تاڤيردي بدهشة مرة أخرى، جحظت عيناه أكثر كما لو أنهما ستخرجان من محجريهما وتسقطان:

«مِن مَن ستتزوجين؟ بأبي اللقيط؟».

«من فضلك يا مسيو تاڤيردي. تحدث معي باحترام».

«انظري إليّ، أيتها العاهرة الصغيرة! كنت أنحني أمامك لأن والدتك كانت تنثر المال؛ لكن الآن ليس أمامك خادمك. سأتحدث معك باعتبارك عاهرة أنجبت طفلًا غير شرعي وجلبت كارثة لأسرتها».

كنت أستمع إلى مسيو تاڤيردي كأنما ابتلعت لساني الصغير، كما لو أن السيد المحترم الذي خدمنا بكل لطف طيلة هذه السنوات قد

ذهب، وحل محله شخص آخر فظ وقح بلا قلب. تجاهل دهشتي واستمر في الكلام مخفضًا صوته:

«لقد رأوك آخر الجزيرة. هل تقومين بهذا العمل مع كل شخص يطلب؟».

«ماذا تقول؟ خطيبي يعيش هناك».

«ماذا تقصدين بهناك؟».

«في الكوخ العائم خلف الجزيرة».

«أوه، ذلك الخائن للوطن! أذلك من يستمتع بك؟ واه على اليقظ واه!».

«نحن سنتزوج».

«متى؟ اعتقلوا الرجل في هيبلي يا هذه!».

نظرت بسذاجة وسألته:

«من؟».

لوح مسيو تاڤيردي في الفراغ بيده الضخمة:

«أوه، أنت لا علم لديك بما يجري في العالم يا طفلتي».

تسمرت مكاني، كانت أمي تقول: «لتعصف به رياح موحشة! جمع كل شيء ودفعه أمامي». كان هذا اليوم هكذا.

«طفلك هادئ كثيرًا ما شاء الله، لم يصدر صوتًا، ثمة طفل في فندق كاليسبو المجاور يقلب الوسط رأسًا على عقب ولا يستطيع أحد تنويمه».

«قالت بدرية «مات» لكني لم أصدقها».

فتح مسيو تاڤيردي عينيه الجاحظتين مثل بيض العنكبوت على اتساعهما، وتراجع بضع خطوات إلى الوراء خائفًا.

«ميت؟ أهذا الطفل الذي بين ذراعيك الآن ميت؟».

«ربما هو حي. لا يُقطع الأمل في الله».

«اذهبي من هنا! كانت أمي تطلق على الأشخاص مثلك «مشؤومين». اذهبي، لا تتجولي حول بابي».

أيوجد شيء مهين في هذه الحياة كالطرد من الباب؟ أحرجت من الإهانة، فسألت بيأس:

«قالت بدرية عن أمي: «ماتت»، وفاطمة وهجران ثلاثتهن ماتوا؛ أهذا صحيح؟».

فوجئ مسيو تاڤيردي؛ لكن دون أن يفتح عينيه بدهشة هذه المرة، على العكس من ذلك؛ أرخى جفنيه بهدوء على عينيه وسأل بتمعن:

«ألا تعلمين؟».

«أنا لا أصدق بدرية».

«أعتقد أنه من الأفضل أن تصدقيها. فسخ الباشا الخطبة، وحاولت هجران الانتحار؛ الرب أنقذها؛ أرادت المجيء إلى هنا ونتف شعرك، فمنعتها فاطمة، وسمع أبوك بما حدث، والباقي مجهول».

وهكذا سمعت على دفعة واحدة مرة أخرى ما سمعته من بدرية، تساءلت لِم لَم يكمل كلامه حتى النهاية، لا أظن أنه يشفق علي؛ لهذا همست له أنا بالنهاية المؤلمة؛ لأنني ما زلت لا أصدق أن ما حكاه هو الحقيقة.

«اندلعت النيران في البيت، وماتت قطتنا ميستان وحتى طيور الجنة والفلامنجو لم تتمكن من مغادرة الحديقة وماتت كلها في تلك النيران».

«على نحو ما لم يكن والدك وشقيقك في المنزل، وماتت النساء الثلاث في الحريق، ولم يستطعن الهروب والنجاة».

كررت بيأس ما قاله السيد:

«لم يستطعن الهروب والنجاة...».

«تعالي، اقتربي!».

عاد تاڤيردي وانحنى إلى أسفل بوابة الحديقة، وجذبني نحوه بإصبعه السبابة الملتوي كالخطاف كما لو كانت هناك آلية سرية

بيننا، اقترب، وقربت أذني على بوابة الحديقة، وملأت أنفاسه أذني وهو يهمس، وامتزجت رائحة أزهار اللبلاب برائحة زيت النعناع المفروك بلثته:

«يقولون إن والدك أحرقهن جميعًا أحياء؛ وإلا فلماذا لم يستطعن الهروب؟ لماذا لم يفتحن الأبواب؟ لماذا لم يرمين بأنفسهن من النافذة؟ لماذا لم يستطع أولئك الذين أرادوا مساعدتهن دخول المنزل؟ لماذا لم تنجُ ولا واحدة منهن؟ لماذا لم يوجد أي شخص آخر غيرهن في المنزل؛ أليس كذلك؟!».

لم أصدق موتهن، لم أصدق أن أجسادهن النحيفة تلك ستُترك لتتعفن في حضن الأرض، لذا سألت مرة أخرى بأمل أخير مستفسرة:

«قالت بدرية 'ستُدفن جثثهن في حديقة القصر'».

قال: «هذا صحيح. ومن المفترض أن والدك سيذرف دموع التماسيح. 'آهٍ يا ابنتَيَّ، آهٍ يا زوجتي الجميلة غادرتن هذه الدنيا قبل أن تستمتعن بالقصر'، ويتفضل بقوله 'سيكون مكان استراحتهن الأبدية منذ الآن حديقة قصرنا'، لتنلن حظًّا من أثره».

«لا.. هذا مستحيل...».

كان مسيو تاڤيردي يتحدث أحيانًا بكلام ودي بقدر ما يستطيع لتسلية زبائنه من النساء وإضحاكهن. لا بد أنه فعل ذلك مرة أخرى، ويحاول أن يفعله:

«لماذا يا فتاة؟».

«الجميع يعتقد أنني فقدت عقلي، يعتقدون أني جننت».

«ألم تُجني؟».

«لا.. لم أجن؛ لكن الجميع يعتقد هذا، يقولون إنني فقدت عقلي ومن أحبهم وكل شيء».

«ألم تفقديهم؟».

«يستحيل فقدان من نحبهم؛ لأن الحب هو الشعور الوحيد في الحياة الذي يبقى على الدوام في أعمق أعماق قلوبنا، ولا يموت قبل أن نموت، الحب يدوم إلى الأبد. أنا لا أصدقك يا مسيو تاڤيردي. لا يمكن أن تموت أمي وأختاي».

كان هناك عنقود الويستارية بنفسجي ملتف حول بوابة الحديقة؛ براعمه المخروطية الرقيقة كأنها قد انبثقت من أنفه وفمه وإحدى عينيه الجاحظتين على الباب فجعلت وجهه يبدو مقطعًا لا يمكن الشبع من مطالعة قبحه. لم تكن هناك فائدة من الوقوف هنا وتضييع الوقت.

صاح من ورائي: «إلى أين أنتِ ذاهبة؟».

«للعثور على محمد، ربما عاد من هَيبلي، سيصدقني، ويساعدني في العثور على أمي وأختَيّ، سيفعل ذلك بالتأكيد».

«أقول لكِ إنه تم القبض عليه! اعتقلوا ذلك الخائن للوطن!».

«الأمر ليس بهذه السهولة!».

«لكنه حدث، وقع بالفعل، انزلي إلى الساحة واسألي أي شخص يأتي أمامك! سيخبرك الجميع أن حبيبك الذي يعيش في الكوخ العائم خلف الجزيرة قُبض عليه».

أردت الابتعاد من هناك سريعًا، لا تنتهي مغامرة الإنسان في هذه الحياة عندما يفقد عقله؛ بل روحه، وحتى ضميره. فعندما يفقد ضميره يكون إنسانًا ميتًا، ولا يوجد بينه وبين الحمار الذي يستمر بالنهيق في آخر الجزيرة الذي أطلقت عليه اسم أبي؛ أي فرق.

50

جمعت كل الأزهار على طوال الطريق الذاهب إلى آخر الجزيرة، على طوال شارع نظام، جمعت عناقيد الوستارية البنفسجية والورود، وزهور العسل المتدلية من أسوار الحدائق، والزنابق الرملية الذابلة من أسفل الجدران، والمغنوليا الساقطة على الأرض والقرنفل والياسمين والنرجس والأقحوان والزهور النجمية، اختفى طفلي الذي كنت أحمله بين ذراعي في باقة الزهور التي بعثت الروائح العطرة، وكأنما صار أخف وزنًا، كانت أمي تقول: «أحببن الزهور على أغصانها»، لهذا لم تكن الزهور التي جمعتها حية نضرة على أغصانها؛ بل كانت زهورًا انثنى عنقها أو على وشك السقوط من غصنها أو حتى الساقطة بالفعل، لم يكن قلبي يسمح لها بالامتزاج بالأرض والتحلل.

كان الرسام الذي يأتي إلى منزلنا بانتظام قد رسم لوحة لفاطمة وهي تشم وردة في غصنها، انغمس أنف فاطمة الكبير في الوردة وهربت نحلة تجمع العسل، ظهر كل هذا بوضوح في اللوحة:

لم تقل أمي عبثًا «لا شيء يحل محل اللوحة!»، ماذا بإمكان امرأة سلب منها شغفها بالتقاط الصور؛ أن تقول أكثر من ذلك؟ لكنها لم تتخل عما لم تقله لعبد الحميد الذي كان في ذلك الوقت

أميرًا ولا يأمل في العرش:

«لا يريد هذا الرجل سعادة الناس، هذا الرجل ظالم وسيئ، إنه يمتلك عقلًا أشد مكرًا من الثعلب، له عقل مثل السم، لهذا يمكن أن يفعل كل المساوئ التي يرسمها خياله لهذا الوطن، يمكنه أن يجعل الأمة تتقيأ دمًا لأجل إظهار قوته ومداراة عيوبه ونقائصه!».

قال أبي: «اسكتي!».

«إن وصل إلى أذنك؛ ستُضربين بالنار، لأن الظالمين دائمًا ما يفعلون ذلك، لا يريدون سماع كلمات سيئة بحقهم، ليس لديهم تفاهم، لا يستطيعون السماع، لا يتسامحون».

«حتى الله في العلا يستمع لمن يسبه؛ أما هؤلاء فيقولون للرجل 'من أنت؟!'».

قام أبي لتغيير الموضوع بلفت انتباه أمي إلى اللوحات التي على الحائط، وخُدعت أمي بسهولة، فنظرت إلى اللوحة التي برز فيها أنف فاطمة بكل هيبته على سبيل المثال وقالت «جميلة الجميلات»، كانت أمي هكذا تحبنا جميعًا؛ علاوة على أن أنف فاطمة لم يكن قبيحًا، كان أنفها مختلفًا؛ لكنه ليس قبيحًا، وثدياها كانا كالحجر، وشفتاها كانتا مرسومتين لحيمتين، كانوا ينظرون إليها ويقولون: «مثل الفلفل، ما شاء الله!»، وكانت أمي تحب أن تقول لنا «أجمل الجميلات!».

جمعت الزهور لأنني كنت بحاجة إلى هذا القدر من الجمال.

شعرت وكأن هناك من يركض خلفي، وكأن المارين في الحناطير ينحنون وينظرون إلي، والواقفين في شرفاتهم وحدائقهم يشيرون إلي.

أيمكن أن ينتقل من شخص لشخص أنني تجولت في الجزيرة بطفل ميت بين ذراعي؟

بدا لي كما لو أن الطفل يهز إصبعه الخنصر بين الفينة والأخرى، ويتنهد بحزن؛ لكنني لم أستطع التأكد، أكان وجهه بين الزهور يزداد جمالاً عنها كلما مضى الوقت، أم شحوبًا؟ أم أن هذا ما يبدو لي من الإرهاق؟ لم أرغب في أن يمسك بي أحد، ويكأن هناك من يلاحقونني لكنهم لا يجرؤون على الاقتراب، لهذا انطلقت إلى أحد المنحدرات قبل وصولي إلى المسجد في نهاية شارع نظام، وسرعان ما كنت في بستان الصنوبر، تسارعت أنفاسي، ظننت أن ارتفاعات صدري وهبوطه ناتجة عن أنفاس الطفل فازداد انفعالي لوهلة؛ ولكنني عندما رأيته راقدًا بين ذراعي بلا حركة؛ شعرت بخيبة أمل مرة أخرى، وهذه المرة بدا فمه لي فاغرًا أكثر، كنت سأهبط من هنا مباشرة لمؤخرة الجزيرة، كنت أنوي الذهاب إلى الكوخ العائم والعثور على محمد، لم أصدق أنه قُبض عليه، لا يمكن أن تنهمر كل المصائب من السماء في الوقت نفسه مثل قطرات المطر وتجدك؛ أليس كذلك؟

على الرغم من أن أبي كان يردد على الدوام أن المصائب متصلة بذيل بعضها:

«تقع مصيبة وتجر الباقي خلفها!».

ألم تكن ولادتي لطفلي غير الشرعي هي مصدر كل المصائب؟! بقدر ما فهمت فقد انفصلت هجران عن الباشا الذي كانت مخطوبة له بسبب هذا، ومن ثم ثارت ضجة في المنزل، ونتيجة لها وصل هذا الشيء المشين إلى أذني أبي وجرى ما جرى؛ لهذا تُرك الطفل وحده في القصر، ولم تعرف المرضعة ماذا تفعل وغادرت، ربما أخافتها الأخبار السيئة القادمة من إسطنبول، ربما ظنت أن أبي سيداهم القصر ويقتلها مع الطفل؛ ونتيجة لذلك تركت الطفل فبقي وحده لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ جائعًا دون مياه، كانت النيران تشتعل بداخلي كلما فكرت بذلك، أشعر بألم وعذاب ضمير لا يمكن وصفهما.

لماذا؟ لأنني ذهبت إلى هيبلي مع محمد؛ لأنني وقعت في الحب، وقعنا في الحب، كان محمد سيرعاني أنا والطفل، قال: «من الصعب علينا أن نعيش مع الطفل في الكوخ العائم على أربعة أعمدة على البحر، فسرعان ما سيأخذه مد وجذر البحر وينهار»، أراد أن يقدم لي معروفًا، الناس يريدون فعل الخير لأحبائهم، لأن الحب يجعلك تحب العالم، لأنك تعلم أنه سيكون كل عالمك، وتشعر به كما لو أنك تتنسم عبير زهرة، كنا سنقيم في البيت الكائن في هيبلي، ذهبنا لإلقاء نظرة عليه، فهبت لودوس ولم نستطع العودة، مضينا أيامًا مفعمة بالحب، أحببنا بعضنا بعضًا أكثر، حلمنا بترميم المنزل المنهار، كان محمد سيعود بقاربه بمجرد تحسن الطقس؛ لكنني

عدت مع أول عبارة توقفت في هيبلي، كنت قلقة على طفلي، لم أكن قد اعتدت على قول اسمه بعد، يستشعر الإنسان ما سيحدث بدقة، ويشعر به من أعماقه، كنت قلقة على طفلي؛ ورغم قول محمد «انتظري قليلًا وسنذهب بالقارب!».

هناك شيء جيد في كل شيء، كانت هجران تردد: «يجب على المرء أن يبحث عن الجمال ويجده حتى في الأمر السيئ»، من الجيد أنني ركبت العبارة، وأني صعدت ولذت بالقسم العلوي المكشوف؛ على الرغم من المطر المنهمر وابلًا، وإلا فكيف كنت سألتقي بأمي وأختيَّ الكبيرتين؟ ماذا كن يفعلن هناك لو أنهن مُتن؟ كما أنهن متن حرقًا، ألا يفترض أن يكن من طيور العنقاء التي تولد من رمادها مرة أخرى لينتصبن أمامي حيات؟!

سألت أمي ذات يوم عندما كنت صغيرة جدًّا «ماذا ستكون آخر رغباتك قبل أن تموتي؟»، سألت هذا لأن المعلمة التي كانت تأتي لتدرس لنا أنا وهجران حدثتنا عن الموت في ذلك اليوم.

قالت: «يجب أن أعلمكن!».

«ماذا؟» قلنا بفضول.

«جعلوه لزامًا على الطلاب الذين يتلقون دروسًا في المنزل أمثالكن، يومًا ما سيطرق شخص بابكن ويمتحنكن، ليرى ما إذا كنتن تعرفن كيف يُغسل الميت!».

أصابنا الذهول، تعلمنا في ذلك اليوم غسل الموتى، لم نستطع

انتظار انتهاء الدرس وتقيأنا، سألت أمي عن سبب تقيؤنا وأوضحنا لها، ثم ذهبت إلى المعلمة وصرخت فيها:

«لا بد أن هناك مشكلة في أذهان أولئك الذين يشترطون معرفة كيف يغسل الموتى، فهم لا يحبون أنفسهم لذلك يجعلون الآخرين يكرهون الحياة! إنهم أعظم المذنبين، إنهم يسرقون طعام هذا الشعب ويقيمون برفاهية في سراياهم، وهم يتعللون بمثل هذه الشروط لكبح أرواح الأطفال المساكين، لأنه عندما يبقى الجميع في ظلام الجهل المعتم؛ ستظل لهم السلطة على الدوام، إنهم عديمو الأخلاق. فاسدون. شياطين. يريدون كل شيء في سبيل حكمهم، سيدفنوننا أحياء من أجل حكمهم!».

قالت المعلمة وهي تجمع أغراضها: «إلى أين أوصلتِ الموضوع؟»، وأضافت «لن يخرج عني هذا الحديث.».

«ليخرج إن شئت، ليطير كلامنا كالطيور، ويذهب فيحط على نافذة القصر، ويغرد، الجميع أمام الله سواسية، هؤلاء السلاطين ينسون هذا، الأيام دول، وعندما ستدور الأيام سنرى ولا شك هؤلاء السلاطين وهؤلاء القضاة الظالمين! فمن يعذبون الناس في هذه الدنيا ومن يقتلونهم سيهلكون ألف مرة في الحياة الآخرة، ويعذبون بدل المرة ألفًا عند الله، إنهم شياطين أبالسة، لا يعيشون في هذه الدنيا ولا يصدقون الآخرة».

هذا ما سألته أمي في نهاية ذلك اليوم، بينما انسحب الكل إلى شأنه وكانت هي في المكان الذي تجلس عليه ناعسة في الصالون في البيت في إسطنبول:

«ماذا ستكون آخر رغباتك قبل أن تموتي؟».

قالت أمي «أنا! أريد أن أطير مثل الطير قبل أن أموت، وأحلق وأرى كل أحبائي، لا غير».

ثم عاد قرين روحها المتوفية إلى الرقاد ثانية.

أيمكن أن يكون هذا ما حدث؟

أيمكن أن يكون الله قد حقق آخر أمنية لأمي وبناتها أجمل الجميلات؟

من يدري ربما كانت هذه آخر رغبة لي أنا أيضًا.

كم يفكر المرء كثيرًا، وكم يهذي خلال نومه، ربما ما نسميها الحياة ليست إلا نومة، وما نظن أننا نحياه ليس إلا هذيانًا، ربما كنت أتحدث في أعماقي وبيني وبين نفسي؛ لكن لم يكن كل شيء صامتًا لهذا الحد.

كنت قد وصلت إلى حافة المنحدر الذي يرى البحر من أعلى نقطة دون سقوط زهرة واحدة، فلو أسقطت ولو زهرة أو سقطت كنت سأعلم، عرفتهم عيناي واحدة واحدة، وأضفت إليها بيتونيا،

وشقائق النعمان، وزهرة وزال أسلي التي أدهشني بشدة بقاؤها لهذا الموسم لأنها تزهر في الأصل في نهاية شهر إبريل وسرعان ما تختفي، ذهبت رائحتها بعقلي، وضعتها على القمة، كانت أمي تتخدر من رائحتها وعندما كنت أدخل بينها وأشمها حد الشبع كانت تحذرني:

«احذري يا جميلة الجميلات، إنها مليئة بالقراد».

«ولو التصق بك القراد لن يتركك، ويدخل تحت جلدك إن شاء ويحرقه وإن كنت محظوظة يتركونك على قيد الحياة!».

كانت فاطمة تقول وهي تقطف شقائق النعمان الرقيق مثل الحرير: «لكل جمال شيء يعاني منه في هذه الحياة».

«آه يالجمال شقائق النعمان تلك ووزال أسلي في فروعها! لا تقطفن زهورها يا بنات! أنتن زهور أجمل من الزهور».

وحدها هجران من كانت تستمع إلى كلمات أمي، فلم تكن لتقطف شقائق النعمان ووزال أسلي المفضلة لديها، أخبرتنا بسبب هذا ذات يوم: «لأن أمي زهرة انتزعت من فرعها؛ لهذا لا أريد قطف الزهور من المكان الذي تنتمي إليه».

في رأيي أن هجران كان بإمكانها أن تصبح شاعرة لو أرادت؛ لكنها فضلت أن تصبح زوجة الباشا.

كنت على الشاطئ حيث رأيت محمد لأول مرة.

كان الحمار في طرف غامسًا رأسه في العشب والخضرة، وعندما رآني رفع رأسه ونظر، كنت أخشى أن يلعق شفته المنتفخة وينهق مظهرًا أسنانه الكبيرة، كانت ليلة هناك أيضًا؛ مع أنها جاءت معنا إلى هيبلي، ربما عاد محمد، غمرت السعادة أعماقي فجأة؛ لكنها كانت تبكي وعيناها مثبتتان على البحر، آه من صوت عواء الكلاب... لا يتحمله القلب، نظرت في الاتجاه الذي تنظر إليه، كان قارب محمد يقف متمايلًا في عرض البحر مثل المهد الفارغ.

51

انحسر البحر، جال في ذهني «لودوس لا تفعل ذلك!»، عجبًا! أيكون هذا هو الموسم الذي تحدث عنه محمد ذات مرة؟ لهذا السبب تمكنت من المشي حتى الكوخ العائم في المياه التي وصلت إلى خصري، ولو كانت المياه مثلما كانت، لكنت رفعت طفلي إلى مستوى رأسي وذهبت إلى هناك دون أن أغرق سابحة مثل الكلب، كنت سأصل بالتأكيد بطريقة أو بأخرى إلى الكوخ العائم القابع في وسط البحر.

حتى طرف قماط الطفل لم يبتل، دسست الأزهار التي جمعتها بين صدري وطفلي، كأنها هذه الزهور هي حياتي، لم أكن أريد أن أفقد ولا حتى فرعًا واحدًا منها، لا بد أن يكون للجميع حياة جميلة يريد عيشها لدرجة أنها لو عادت لا يريد تخطي يوم واحد فيها.

وصلت إلى الكوخ العائم أخيرًا.

كان الماء باردًا، وكنت أرتجف؛ لكن الطفل لم يبتل، كنت سعيدة لذلك.

ولجت إلى الداخل مباشرة، لم تكن هناك كتب ولا خيش محمد ولا عباءاته، كان القارب في الأمام، بعيدًا، بعيدًا جدًّا، ما زال يتمايل،

إذا افترضت أنه كان يصطاد السمك؛ ألن يكون في القارب؟ ربما غفا بينما هو مستلقٍ في القارب.

تساقطت الزهور بينما أرقد الطفل فوق فراشه تلقائيًّا، بدا لي أن رموشه تهتز، فسألت نفسي: «أو أني خُدعت مرة أخرى؟».

كانت أمي تقول لي: «أنت طفلة سهلة الخداع، لأنك يظهر عليك عندما تحبين أحدًا بشدة».

سألت هجران» «ماذا تقصدين؟ ماذا تقصدين بأنك يظهر عليك عندما تحبين أحدًا بشدة؟».

«عندما يحب الإنسان أحدًا بشدة، فإنه يفقد نفسه، مثلها»، ثم نظرت إليَّ وأضافـت:

«علاوة على أنها حالمة منذ ولادتها، عاشقة بالفطرة، عاشقة للعشق».

لو كنت نجمة في السماء، لكان اسمي نبتون؛ لأنه اسم نجم الأحلام والأوهام؛ قال محمد هذا بينما كنا نشاهد السماء ذات ليلة من الليالي.

ضحكت فاطمة مقهقهة على ما قالته أمي عني («حالمة منذ ولادتها، عاشقة بالفطرة، عاشقة للعشق»)، وسقط البونبون الذي بيدها على الأرض من الضحك، ثم انفجرنا جميعًا ضاحكات، كنا نذهب إلى السفيرة الإيطالية لاحتساء شاي الخامسة، وكان حذائي

الجديد يرتطم بقدمي، لكني لم أحدث صوتًا، تقدمن أمامي، ونظرت من ورائهن، كان ضوء الصيف الناعم في فترة ما بعد الظهر يغشى كل مكان، وهديل الحمائم يتعالى في زاويا الأشجار، استدارت أمي ونظرت إلي لترى إن كنت قادمة، فكرت كم أحبهن، وأني سأحب رجلًا كذلك ذات يوم، وسيسمى هذا عشقًا، فكرت في كل هذا في تلك اللحظة، وشيء آخر: هل يمكن أن يفكر ظل الإنسان مثله؟ لأن ظلي جذب انتباهي لأنه كان يظهر أقصر قليلًا في ضوء الصيف، «ما دام هناك ضوء، فهناك ظل»؛ قرأت هذا بصوت عالٍ من دفتر مدرسة أخي، أثناء محاولتي تمضية بعض الوقت في المنزل في أحد أيام الشتاء، قالت أمي: «طالما أنتِ موجودة فظلك موجود»، وأكملت وهي تشغل بالكروشيه وردة لا مثيل لها «السعادة أيضًا شيء مثل هذا»، نظرت فوجدتنا ننصت لها بدقة فقالت ناظرة داخل عيوننا: «السعادة مثل ظلكن، وجودها مرتبط بكن فقط».

وقفت هناك وفكرت في كل هذا ثم ركضت وراء أمي وأختَي، عندما ذهبنا لزيارة السفيرة الإيطالية في ذلك اليوم خفت أن أفقدهن فجأة وأدركت كم أحببتهن.

يا لحبي لكُن.. كم أحببتكن...

لِم لَم أستطع أن أحب طفلي إذًا؟

حللت قماطه، كان غريبي قد وسخ أسفله، وجفت أوساخه فوق بعضها، وجدت بعض الماء النظيف، فمسحت ونظفت طفلي، كيف يبدو جليًّا أن محمد ينتمي إلى عائلة جيدة مستقرة: بقيت ملاءة نظيفة في الزاوية، مزقتها، وصنعت قماطًا جديدًا ونظيفًا لطفلي. لم يكن يتحرك. ويكأنه في نوم عميق، لم أقتنع بوفاته، من المستحيل أن أصدق ذلك، أرقدته فوق الزهور على السرير بجانبي، خلعت تنورتي المبللة وعلقتها أمام النافذة، جفت في الريح على التو، لفَفت بقية الملاءة تحتي، لم يبتل أعلى جسدي كثيرًا، استلقيت بجانب طفلي، أغمضت عينيّ وأنا أحلم بأنه ستكون لي حياة سعيدة، من يدري، ربما كان كل شيء حلمًا.

أليست الطريقة الوحيدة لتحقيق المستحيل؛ أن تصدق أنه ممكن؟

قلت: «لم يمت أحد»، لم يلقوا القبض على محمد أو يضعوه في الزنزانة، ولم يأخذوه ويشنقوه.

لا أعرف كم من الوقت نمت.

كنت أسمع أحيانًا صوت البحر.

صوت تدفقه أسفلنا وجريانه؛ كما لو أنه يعود مثل انسحب.

ثم رفرفة ملابسي التي علقتها على طرف النافذة في الريح،

وأشعر بالرياح الدائرة عبر الشقوق الخشبية في الكوخ، وصرير الباب الذي لا يتوقف معها، أدركت أن شيئًا ما كان يتحرك بجانبي، فتحت عيني قائلة «إن شاء الله لا يكون حلمًا!»، ها أنا استيقظت وبت الآن في مواجهة الحقيقة، كان الطفل يتململ بجانبي، وعيناه مفتوحتان، ينظر إليّ، ويهمس بأصواتٍ، اعتدلت على الفور، فمددت ذراعيّ وأخذته في حضني، قلت بسعادة: «حبيبي! أنا أحبك كثيرًا، ربما أكون حزينة لأنك ولدت قبل الأوان ودون رغبتي، ومن شخص لم أرِده يا طفلي، ولم أستطع تقبلك بسرعة؛ لكنني أردت أن تعيش، ساعدني الله، وظهر أمامي رجل وقعت في حبه، اتضح أنه رجل صالح، سنبدأ حياة جديدة معه، لقد حالفنا الحظ حتى الآن، وتمكنا من الاختباء والبقاء على قيد الحياة وإيجاد مأوى».

كان الطفل يستمع إلي فاتحًا عينيه وابتسم، فتح فمه الخالي من الأسنان على أشده، أتت لأنفي رائحة أزهاري المفروشة على السرير، أي إنني لست في حلم، احتضنت الطفل كما لو أني أحتضن حياة جديدة، هذه هي الحقيقة، كان الطفل يتلوى وبين ذراعيّ.

ملأت الشمس داخل الكوخ، تراجعت الرياح وتلألأ البحر بلمعانه الفضي وامتد على نطاق واسع نحو الأفق، تناهت أصوات من الخارج، صوت المياه المنسكبة من مجدافي القارب، وصوت مجيئها شاقة المياه، ثم صوت أمي، وصوت فاطمة وهجران!

كنت أقف عند باب الكوخ العائم والطفل بين ذراعي.

لقد حشروا في القارب، وجاؤوا إلى هنا! كان محمد ممسكًا بالمجدافين، تساءلت كيف وجدوا بعضهم بعضًا، لم تقل أمي عبثًا وهي تقدمني «هذه ابنتي جميلة الجميلات دائمًا ما تفكر وتتحدث مع نفسها، إذا أردتم الاستماع لها، فهي تتحدث مثل كتاب، وتحكي كأنها تحكي ألف ليلة وليلة»، لم أقف دون جدوى ثانية وفكرت.

لا بد أن محمد ذهب إلى ساحل القصر ليبحث عني، وربما جاءت أمي وفاطمة وهجران إلى القصر وهبطن على الشاطئ، وإن كان محمد قد سحب مجدافيه ووقف على ساحل القصر بأمل رؤيتي، فلا بد أنهم التقوا هناك، ولو فتنت بدرية كالفا بمن يكون لأمي، فربما تكون أمي قد استدعت محمد.

وهكذا التقوا جميعًا ببعضهم وجاؤوا الآن، لأخذي أنا وطفلي، لوحت لهم، فلوحوا لي ولطفلي، يا لها من لحظة مفعمة بالسعادة! لو بإمكانكم أن تعرفوا! كانت الشمس تدفئني أنا والطفل، والرجل الذي أحبه يبتسم لي، كانت لدى وجهه ابتسامة جميلة فريدة تبدو مثل الجوهرة والضوء والقمر والنجمة؛ لا يمكنني الشبع من مشاهدتها، كان فخورًا بإحضار أحبائي إليّ، وقفت أمي في القارب، كانت تبدو سعيدة، وبخير، وكانت هجران وفاطمة

تمسكان بها، لوّحت لي هجران بيدها الأخرى، وأرسلت لي فاطمة قبلة بيد، كن مبتهجات، جميلات، أجمل الجميلات.

أدركت أنه حلم!

انسابت دمعة دافئة على خدي، بقي الطفل مستلقيًا جانبي بلا حراك، وكان القارب يتأرجح في الأمام مثل مهد فارغ.

حتى لو أخذ الموت أحباءنا منا؛ طالما أننا نحب ذكرياتهم ونفتقدها ونعيشها، فلن نفترق عنهم؛ أليس كذلك؟ لا يمكن أن نفقدهم، نعلم نحن الذين سلموا أحباءهم إلى الأبدية، أنهم معنا ما دمنا نعيش.

قربت الطفل من صدري، ثم ربطته بي، حتى الموت لا يمكنه أن يفرقنا الآن، اختفت الشمس، ودنت سحب العاصفة من البحر، هزت الكوخ الرياح التي ملأته؛ ورجته، وبدأت المياه المسحوبة تعود بقوة، وغاص القارب بعيدًا ثم ظهر، ثم غاص مرة أخرى وتناثرت أخشابه، شاهدت هذا بذهول؛ أي إن محمد لم يكن فيه، وكذلك أمي وفاطمة وهجران، لا بد أنهم وصلوا إلى أرض الموت.

كان البحر يفور ويرتفع مثل الخبز المخمر، شددت ركبتي إلى بطني واستلقيت على السرير، وعانقت طفلي الذي ربطته بي بشدة، أغمضت عيني، وانتظرت الموج الرهيب التي سيدمر كل شيء ويغرقه في الماء، أنتظر الموت.

أما في حلمي فكنت مع طفلي على سلالم الكوخ الهابطة إلى البحر ننتظر قدوم القارب الذي أمسك محمد بمجدافيه قادمًا نحونا، وأبتسم لكل الموجودين على القارب فردًا فردًا، ثم نظرت للطفل بين ذراعي فابتسمت، وقلت: «أحبكم كثيرًا!»، وعلى الدوام.

أبريل-أكتوبر 1876

جزيرة الأميرات

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook